مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٨

مكتبة الأسرة



مرسى عطا الله

٦ أكتوبر ..
حرب الـ ٦ سنوات



الأعمال الخاصة



٦ أكتوبر... حرب الـ ٦ سنوات



mohamed khatab

٦ أكتوبر ... حرب الـ ٦ سنوات

مرسى عطا الله



مهرجان القراءة للجميع ٩٨

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

٦ اكتوبر... حرب الـ ٦ سنوات

تأليف: موسى عطا الله

الغلاف

الإشراف الفني:
الفنان محمود الهندي

المشرف العام

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

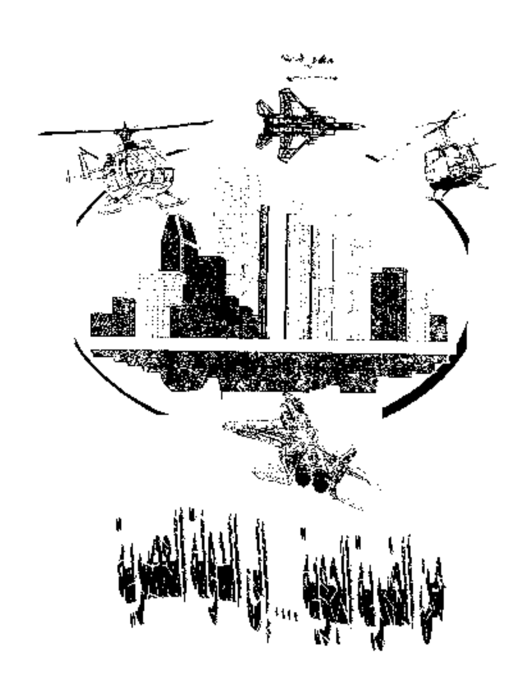
على سبيل التقديم

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التنويرية وأهدافها النبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضارى المتميز منذ فجر التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ للتواصل مع الثقافات الأخرى، لأن الكتاب مصدر الثقافة الخالد هو قلعتنا الحصينة وسلاحنا الماضى فى مواكبة عصر المعلومات والمعرفة.

د . سمير سرحان

المؤلف

- رئيس تحرير الأهرام المسائي.
- ٣٠ عاماً من العمل الصحفي في «الأهرام» تدرج خلالها من محرر عسكرى إلى نائب رئيس التحرير قبل أن يتحمل مسئولية إصدار «الأهرام المسائي».
- عمل مساعداً للمتحدث العسكرى المصرى الرسمى خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣ .
- قام بدور إعلامى بارز عن التصدى لجريمة الغزو العراقى للكويت خصوصاً على شاشة التليفزيون المصرى... وحصل من الرئيس مبارك على ميدالية حرب تحرير الكويت عام ١٩٩١ .
- عضو المجلس الأعلى للصحافة.
- عضو المجلس القومى للثقافة والآداب والفنون.
- أصدر عدة مؤلفات أهمها كتابان عن حرب أكتوبر... أولهما باسم «حرب أكتوبر من غرفة العمليات»... والثانى باسم «قصة الثغرة فى الدفرسوار».



من الضربة الجوية .... إلى الدولة العصرية !

"تمام القوات الجوية .. المهمة تم تنفيذها بالكامل في أوقاتها المحددة .. عادت جميع طائراتنا عدا طائرة واحدة استشهد قائدها".

كان هذا هو نص مكالمة تليفونية أجراها اللواء محمد حسني مبارك قائد القوات الجوية من داخل غرفة العمليات الرئيسية للطيران في حوالي الساعة الثانية و٤٥ دقيقة بعد ظهر يوم السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣.

كان على الطرف الآخر الفريق أول أحمد إسماعيل علي وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة الموجود في مركز القيادة الرئيسي "مركز رقم ١٠" الذي سرعان ما أتجه ببصره يميناً إلى الرئيس السادات الذي كان قد وصل إلى المركز قبل لحظات ليبلغه بالنبأ العظيم.. ولتنطلق وجوه جميع القادة بالثقة والاطمئنان.

وتصدر التعليمات بإذاعة البيان رقم "٣" وهذا نصه: "إلحاقاً للبيان رقم ٢ نفذت قواتنا الجوية مهامها بنجاح وأصابت مواقع العدو أصابات مباشرة وعادت جميع طائراتنا إلى قواعدها سالمة عدا طائرة واحدة". وتمت إذاعته بالفعل في تمام الساعة الثالثة ودقيقتين".

كان البيان رقم "٢" قد أذيع في الساعة الثانية و٢٥ دقيقة متضمناً ما يلي بالحرف الواحد : "رداً على العدوان الغادر الذي قام به العدو ضد قواتنا في كل من مصر وسوريا يقوم حالياً بعض من تشكيلاتنا الجوية بقصف قواعد العدو وأهدافه العسكرية في الأراضي المحتلة".

وهكذا بدأ دوران عجلة حرب أكتوبر المجيدة بالضربة الجوية الأولى.

كان معنى ما حدث خلال الساعات الأولى من الحرب أن الضربة الجوية قد نجحت في تحقيق كل أهدافها وأكثر!

كان على الجانب المصري إحساس صادق بالثقة في النفس خصوصاً من جانب قواتنا التي كانت تتأهب لبدء مهمة عبور قناة السويس وقد أعطاها أزيز الطائرات في رحلة العودة إحساساً بقرب بلوغ الأمل المنشود.

لقد سرى نبأ نجاح الضربة الجوية في صفوف المقاتلين ليرفع روحهم المعنوية إلى السماء، بعد أن سقطت أسطورة الذراع الطويلة لإسرائيل باسم التفوق الجوى والقدرة التكنولوجية والتدريب الدقيق.

أما على الجانب الآخر فقد أصيبت كل مستويات القيادة المركزية والميدانية بالشلل، ليس من هول المفاجأة فحسب وإنما من دقة نجاح الضربة الجوية وماترتب عليها من خسائر موجعة لم تتوقعها إسرائيل بأى مقياس.

كانت مصر كلها تعيش أسعد لحظاتهـا، ولكن رجلاً واحداً كانت أحاسيسه في هذه اللحظة تتجاوز حدود الفرحة والسعادة والانتصار.

كان هذا الرجل هو اللواء محمد حسنى مبارك الذى اختارته المقادير ليتحمل مسئولية الضربة الجوية الأولى في أصعب ظرف يمكن أن يواجهه أى قائد عسكرى محترف خصوصاً بعد ما وقع فى نكسة يونيو ١٩٦٧ من تداعيات، كانت كلها بالحساب الدقيق تُحسب لصالح الأسطورة الإسرائيلية وتتصادم مع الحلم المصرى فى التصحيح والتعويض.

لقد تحمل المسئولية بكاملها من لحظة إعادة بناء القوات الجوية بعد يونيو ١٩٦٧ إلى لحظة إصدار الأمر الكودى بالكلمة الكودية "صدام" إلى جميع مراكز وغرف عمليات التشكيلات والقواعد والمطارات الجوية فوق مصر، ظهر يوم السادس من أكتوبر ليبدأ قادة هذه المراكز والتشكيلات فى فتح الأظرف المغلقة التى تحوى تعليمات تنفيذ المهمة الكبرى.

كانت عين الرئيس جمال عبدالناصر قد وقعت عليه واختارته لمنصب مدير الكلية الجوية في نوفمبر عام ١٩٦٧، لكى يبدأ أهم مشوار في تخريج جيل جديد من النسور الذين سيتحملون مسئولية غسل عار الهزيمة ورد الاعتبار لمصر.. وعندما اطمأن الرئيس عبدالناصر إلى أن مبارك أدى هذه المهمة بكفاءة واقتدار فى زمن قياسى لم يتجاوز ٢٠ شهراً، كان القرار الثانى باختياره رئيساً لأركان حرب القوات الجوية فى ٢٣ يونيو ١٩٦٧ لكى يتحمل مسئولية القيادة لما هو قادم من مهام جسام.

وعندما تولى الرئيس أنور السادات مسئولية الحكم لم يجد سوى اللواء محمد حسنى مبارك لكى يسند إليه منصب قائد القوات الجوية فى ٢٣ إبريل عام ١٩٧٢.

كان إحساس مبارك يوم السادس من أكتوبر ١٩٧٣ إحساساً مختلفاً تماماً عن أحاسيس ومشاعر الآخرين، فقد كان كل عطائه وجهده المتصل قد أصبح في الميزان. كان ينتظر أن يرى بكل الشوق واللهفة نتاج جهده خلال توليه مسئولية قيادة الكلية الجوية منذ نوفمبر ١٩٦٧ وحتى يونيو ١٩٦٩ في إطار الجهد الشامل لإعادة بناء قواتنا المسلحة بإعداد القاعدة الأساسية لجيل جديد من الطيارين القادرين على عبور الهزيمة وإثبات القدرة على الأداء البطولى في الاختبار الحقيقى عندما تحين ساعة معركة استرداد الكرامة.. وقد حانت اللحظة بالفعل!

وكان ينتظر أن يرى نتاج عمله وإبداعه وتخطيطه لخدمة هذا اليوم المجيد، من خلال خطة خداع بارعة للقوات الجوية في إطار خطة الخداع الاستراتيجية الشاملة للقوات المسلحة، ومن خلال تلقين دقيق ومحكم للأهداف والمواقع التى سوف تتم مهاجمتها وتدميرها في الضربة الجوية الأولى التى يتوقف عليها مصير الحرب فقد كان هو نفسه الرجل الذى عهدت إليه القيادة السياسية بمسئولية رئاسة أركان القوات الجوية ثم بقيادة القوات الجوية في ظروف حرب الاستنزاف ثم الاستعداد لمعركة العبور.

كانت مقاييسه فى حساب للنجاح وللنصر جد مختلفة عن حسابات الآخرين لأنه كان يعرف أكثر من غيره حجم العرق والدم الذى بذله الرجال إلى حد الاستشهاد في ساحات التدريب، لكى يكونوا عند مستوى المسئولية بإنجاز أكبر مهمة في تاريخ مصر الحديث والمعاصر، وهى مهمة الضربة الجوية الأولى في حرب أكتوبر ١٩٧٣.

وقد عبر اللواء محمد حسنى مبارك عن هذه المقاييس التى أجرى بها تقييماً للأداء الجوى في حرب أكتوبر بعد انتهاء الحرب بعدة شهور خلال الندوة التى أقامتها القوات المسلحة لشرح وتحليل ظروف النصر ومعطياته بقوله:

"إن حرب أكتوبر ليست فقط البطولات التي تحققت وليست المعارك الجوية الضارية التي دارت فوق سيناء أو غرب القناة فحسب، بل هي برامج الإعداد بكل أحجامه والتخطيط بكل أشكاله المتعددة والمتجددة دوماً والتدريب الجيد والتنسيق مع الأسلحة الرئيسية الأخرى لقواتنا المسلحة ثم التجهيز فالتنفيذ والأداء في النهاية.. يمكن أن يتحول كل هذا الجهد إلى رقم صفر إذا لم يكن الطيار يفوق بقدراته البشرية كل إمكانات الطائرة بأجهزتها الإلكترونية المعقدة وفنونها التكنولوجية المتقدمة".

هكذا كانت نظرته إلى الإنسان وإلى المقاتل تسبق نظرته إلى السلاح وإلى المعدات، وبالتالي فقد كان هو أكثر الناس إحساساً في تلك اللحظات بقيمة ومصداقية رهانه على رجاله الذين استعدوا لمهمة ذلك اليوم الموعود بالتدريب الشاق والإرادة الصلبة والإصرار على بلوغ الهدف المنشود.

والآن فإننا نقول بأن الضربة الجوية كانت هي مفتاح النصر، فإننا نقولها من واقع الشهادات الموثقة للقادة المصريين والإسرائيليين الذين شاركوا في هذه الحرب وتولوا بعد ذلك مهمة رصد حصادها.

كان حصاد الضربة الجوية الأولى على جبهة قناة السويس وسيناء متمثلاً فيما يلي:

١) ضرب القواعد الجوية الإسرائيلية التي تتمركز فيها طائرات الخط الأمامي في سيناء.

٢) تدمير مراكز القيادة ومحطات الرادار ومراكز الإعاقة والشوشرة الإلكترونية.

٣) تدمير مواقع الدفاع الجوي خصوصاً مواقع صواريخ "هوك" الأمريكية التي كانت إسرائيل قد تزودت بها حديثاً.

٤) تعطيل مدارج المطارات لكي تنعدم قدرة استخدامها لفترة زمنية معقولة تتم خلالها مهمة العبور بعيداً عن قدرة العمل الجوي الإسرائيلي من هذه المطارات القريبة.

ثم كان ماكان بعد ذلك من أداء رائع ومتصل لقواتنا الجوية في تأمين سماء العبور على امتداد ساحة المواجهة بأكملها، وحماية العمق المصري من محاولات الاختراق الإسرائيلية، فضلاً عن المهام الانتحارية التي قامت بها أسراب الهليكوبتر خلف الخطوط الإسرائيلية طوال مراحل الحرب.

ويزداد اليقين بأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

والآن فإننا عندما نتأمل رحلة الـ٢٢ عاماً الماضية منذ أن تحقق نصر أكتوبر المجيد وحتى الآن، وبينها ١٤ عاماً مع مبارك في مقعد المسئولية الأولى كقائد للوطن كله، لاتجد ثمة خلافاً يذكر بين أسلوبه في مهمة إعادة بناء القوة الجوية القادرة على تجاوز محنة الهزيمة وبلوغ هدف النصر، وبين أسلوبه في مهمة إعادة بناء الدولة القادرة على تجاوز تراكمات سنوات الحروب والصراع، وبلوغ هدف التنمية والرخاء تحت رايات السلام.

إنها نفس الاستراتيجية بنفس الملامح وبذات الإرادة وبنفس التصميم وإن اختلفت التفاصيل.

إن حلم بناء قوة جوية عصرية يماثل حلم بناء دولة عصرية فكلا الأمرين يحتاجان إلى العلم والتخطيط والصبر والمثابرة وإلى حسن اختيار الرجال القادرين على تنفيذ المهام.

ولعل نجاحنا في بلوغ الحلم الأول عام ١٩٧٣ هو الذي يزيد من ثقتنا في قرب بلوغ الحلم الثاني لبناء الدولة العصرية والذي قطّعنا على دربه مشواراً طويلاً حتى الآن !

إن الإنصاف يقتضي أن نسجل للرجل في بداية عامه الخامس عشر في موقع المسئولية الأولى أنه كان صادقاً مع نفسه بمقدار صدقه مع شعبه ومع أمته ومع العالم كله.

لقد أثبتت كل قراراته وإجراءاته في الداخل والخارج على حد سواء أن غايته الأولى والأساسية هي بناء مصر كدولة قوية وعصرية من خلال فتح أوسع الأبواب والنوافذ للديمقراطية وإطلاق كل طاقات الوطن نحو خدمة هدف الإنتاج تحت مظلة من الاستقرار والأمن والتوازن الاجتماعي.

ولعل أعظم ما سيسجله التاريخ لمرحلة حكم الرئيس مبارك أنها شهدت قدرة غير مسبوقة على إقامة التوازن الدقيق بين الحرية السياسية والتنمية الاقتصادية

والضرورات الأمنية، فلم تصادر الحريات العامة لحساب التنمية الاقتصادية، ولم يأخذ القانون إجازة من أجل الضرورات الأمنية، برغم أن ظروفاً كثيرة واجهت الوطن كانت تبيح اللجوء للإجراءات الاستثنائية.

ثم إن أية نظرة منصفة ومحايدة على علاقات مصر الإقليمية والدولية بعد ١٤ عاماً مع مبارك تكشف بوضوح، كيف أن نسيج هذه العلاقات لم يكن يوماً بمثل هذه المتانة والجودة، وبما يخدم أهداف الأمن القومي وأهداف التنمية والاستثمار.

والتاريخ يتسطر دائماً بالحقائق والأرقام.. وليس ببعض ما يكتب لحسابات ومصالح وأنانيات حزبية ضيقة !

هذا هو اعتقادى .. وتلك هى شهادتى عن حرب مجيدة كان لى شرف أن أكون أحد جنودها، وعن عصر مجيد كان لى حظ أن أعيشه، وأن أستمتع بنسمات الحرية والديمقراطية فيه والتي يعرف قيمتها وأهميتها جيداً أصحاب مهنتنا الشاقة.. "مهنة البحث عن المتاعب".

ومازالت أحلامنا مفتوحة من أجل مزيد من الديمقراطية ومزيد من الحرية مع عصر مبارك على طريق الحلم والأمل في بناء الدولة المصرية !

ولابد لمصر دائما من جيش قوى !

ويبقى يوم السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣ حدثاً فريداً ومجداً مقيماً تتذكره الأجيال العربية جيلاً بعد جيل، لكى لاتقع فى دائرة الإحباط أو تستسلم لعوامل اليأس مهما حدث من تطورات ومهما وقع من متغيرات؟

يبقى يوم السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣ حدثاً تاريخياً عظيماً يؤكد قدرة هذه الأمة على أن تلم شتاتها وأن تستجمع قواها وأن تملك إرادتها لكى تصحح أى خطأ وأن تعيد ترتيب الموازين وأن تثبت أن إرادة الحياة والبقاء أقوى من كل ترسانات السلاح.

ولقد أضيف فى البداية أن مايجرى الآن من تطورات وتفاعلات وتداعيات على امتداد مساحة الشرق الأوسط

دوافعي للتوقف بالتأمل أمام ذكرى ذلك اليوم المجيد الذى أصبح بمثابة خط فاصل بين عصرين في المنطقة.. عصر ماقبل أكتوبر ١٩٧٣ وعصر مابعد أكتوبر ١٩٧٣.

وربما يكون ضرورياً أن نتذكر جيداً كيف كانت الصورة عشية حرب أكتوبر ١٩٧٣ أقرب إلي ما نحن فيه اليوم حيث مظاهر العربدة والتشدد والتعنت الإسرائيلى بغير حدود، بينما الغضب العربى كان قد بلغ درجة من الحنق والغيظ الذى يلامس خطوط اليأس والإحباط !

ثم لعلي أسارع بإيضاح ضروري هو :

أنه ليس معنى ذلك أننا على أبواب حرب جديدة، وإنما معناه أن إسرائيل فى ظل حكومة نيتانياهو لم تستوعب دروس الماضي جيداً، وبالتالى فإنها تدفع الأمور إلى حافة الخطر والمواجهة، وهو ما يدفع كل الأطراف إلى إعادة حساباتها من جديد بعيون يقظة ومفتوحة تواصل الانتصار لخيار السلام واستحقاقاته، دون أن تستبعد احتمالات النكوص عنه والتراجع عن الوفاء بالتزاماته، من نوع ماتكشف عن سلوكيات وإجراءات وتوجهات حكومة نيتانياهو حتى الآن.

وفى هذا الإطار يجئ الفهم الصحيح والمحايد لمعنى ومغزى المناورة العسكرية المصرية بدر ٩٦' .. ويجئ أيضاً الفهم الصحيح والمحايد لأبعاد انتفاضة الغضب الفلسطينية مؤخراً رداً على أبعاد جريمة حفر وفتح النفق أسفل المسجد الأقصى.

وأعود إلي ملف الذكرى وأوراقها لكى نقلّب فى بعض الصفحات ونتوقف أمام عديد من الدروس والعبر !

وأتذكر أن وطأة الإحساس بالخوف من بلوغ مرحلة العجز عن اتخاذ القرار كان هاجسَ الجميع في العالم العربى وخاصة فى مصر التى عليها دائماً مسئولية القرار ومسئولية التنفيذ أيضاً !

وأظن أن أحاسيس الخوف والعجز قد تبددت مع الساعات الأولى لملحمة العبور، عندما أكد جنود مصر البواسل أنهم لم يعبروا فقط قناة السويس التى تعتبر

أصعب حاجز مائي وإنما عبروا حاجز "الخوف" وأن هؤلاء الرجال العظام عندما اعتلوا المواقع الحصينة لخط بارليف لم يحطموا حائطاً من الحصون المنيعة وإنما حطموا حائط "العجز".

كانت ظهيرة السادس من أكتوبر ١٩٧٣ ملحمة فداء وعطاء أصابت الدنيا كلها بذهول مفاجئ، وأكسبت العسكرية المصرية احتراماً وتقديراً غير مسبوق.

وربما لهذا السبب ـ وليس لأي أسباب أخرى ـ أشفق من جانبي على من سينال شرف المشاركة في إعداد الفيلم التاريخي المنتظر عن هذه الحرب المجيدة سواء كإعداد درامي أو إخراج فني، لأن ما حدث أكبر من أن تصوره كاميرات أو كلمات لايمكن لها أن تعكس بصدق عاصفة الدم والنار واللهب التي جعلت من سطح مياه القناة الهادئة بحراً هائجاً ومتلاطماً بأمواج الغضب والثأر والإصرار على استعادة الكرامة ورد الاعتبار.

أما أي أحاديث أخرى عن التشويه أو التلفيق أو حجب الأضواء فإنها لاتستحق التوقف أمامها طويلاً، لسبب بسيط هو أن القوات المسلحة المصرية صانعة النصر هي نفسها التي ستتولى إنتاج هذا الفيلم والإشراف عليه من الألف إلى الياء... وهذا في اعتقادي كاف ويدعو للاطمئنان !

إن عظمة حرب أكتوبر أنها حطمت معتقدات بالية وأساطير وغيبيات واهية في الجانب الإسرائيلي وأعادت اكتشاف كنوز مدفونة وغائبة في الجانب العربي.
لأن مجرد نشوب الحرب على جبهتين عربيتين في توقيت واحد كان بمثابة رسالة واضحة من العالم لتل أبيب، بأن أكذوبة العجز العربي عن التنسيق والتضامن والقدرة على اتخاذ القرار المشترك قد انتهت تماماً.

ثم إن مشاهد اللحظات الأولى من المواجهة فضحت أكاذيب الدعاية الإسرائيلية التي ظلت تروج لها منذ هزيمة يونيو ١٩٦٧ بأن الجندي العربي لا يقوى على مواجهة الجندي الإسرائيلي فقد كان الاقتحام والإقدام والاستبسال من جانب

طلائع العبور لا يواجه في معظم الحالات بغير التراجع والارتداد ومحاولات الهروب والاختفاء خلف الحصون والمدرعات.

وفي المحصل العام كان ماحدث في ٦ أكتوبر ١٩٧٣ بمثابة إعلان واضح وصريح بسقوط أسطورة الجيش الذي لايقهر، وهي أسطورة كانت قد بلغت مرحلة اليقين وعدم القبول بالتشكيك فيها خصوصاً لدى أقرب الحلفاء والأصدقاء لإسرائيل وعلى رأسهم الولايات المتحدة الأمريكية.

ولكي لا تصدمنا اليوم أي مواقف فلعلنا نسترجع واقعة محددة ربما تجيب عن بعض ما نريد استخلاصه من دروس الذكرى المجيدة، وما نريد أن نقيس عليه الآن من إجراءات وتصرفات مماثلة.

كان الجميع وخصوصاً في أمريكا لا يخالجهم أدنى شك في أن الجيش الإسرائيلي لايقهر، وأنه لاقبل للجيوش العربية مجتمعة بمجرد التفكير في تحديه !

وكانت أسباب الولايات المتحدة في هذا الاعتقاد معروفة، فهي التي ساندت ضربة عدوان يونيو ١٩٦٧ بالخديعة وبالدعم، وهي التي عارضت أي اتجاه داخل مجلس الأمن لربط قرار وقف القتال بالعودة إلى خطوط ماقبل ٥ يونيو ١٩٦٧.
ثم أنها أيضاً هي التي ساهمت في دعم الحرب النفسية الشرسة لزرع اليأس في النفوس العربية ودفعها للاستسلام للشروط الإسرائيلية من خلال إمداد إسرائيل على مدى السنوات التي أعقبت يونيو ١٩٦٧ بأضخم كمية من السلاح المتطور لكي يظل الميزان العسكري لصالح إسرائيل.

إن وقائع القصة تقول :

عندما وصلت أنباء الحرب يوم ٦ أكتوبر إلى واشنطن في ساعة مبكرة من الصباح "نتيجة فروق التوقيت" أيقظ الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون كبار مساعديه ومستشاريه من نومهم لإعداد تقرير عاجل للموقف واحتمالاته.. وكان الشعور الأمريكي السائد لحظتها هو الخشية من أن تعبر إسرائيل القناة لكي تصل إلى القاهرة ثم تستدير باتجاه سوريا لكي تحتل دمشق.

ومسارع الدكتور هنري كيسنجر وزير الخارجية الأمريكي بالاتصال بالدكتور محمد حسن الزيات وزير خارجية مصر الذي كان موجوداً في نيويورك للمشاركة في اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة.. وكان هدف ومضمون الاتصال الأمريكي هو ضرورة أن يتوقف القتال فوراً لأن واشنطن تخشى من الرد الإسرائيلي المنتظر والذي قد يتجاوز حدود الاحتمال لكل من مصر وسوريا.

وعندما أبلغه الدكتور الزيات بأن القوات المصرية قد أصبحت على الضفة الشرقية للقناة بامتداد المواجهة من بورسعيد شمالاً وحتى عيون موسى جنوباً، كانت نصيحة كيسنجر هي أن على مصر ألا تضيع الوقت وألا تضيع فرصة القبول باقتراح أمريكي محدد يدعو إلى وقف إطلاق النار وعودة القوات إلى الخطوط التي كانت عليها قبل بدء نشوب القتال.

ولم تقبل مصر طبعاً العرض الأمريكي المجحف والظالم لأن الجنود في ساحة القتال لم يسمعوا به ولم يشغلوا به أنفسهم سوى إنجاز المهمة التي كلفوا بها.

ولعلنا نتذكر جيداً أن إسرائيل ظلت طوال الأيام الأولى من حرب أكتوبر لمدة أسبوع على الأقل" وهي تتوهم إمكان القدرة على صد الهجوم المصري بمفردها، وعندما اكتشفت جولدامائير أن موشي ديان قد انهار وأن القادة العسكريين في الجبهة قد فقدوا صوابهم سارعت إلى الاستنجاد بالرئيس الأمريكي تطلب منه تدخلاً أمريكياً مباشراً، لأن التأييد السياسي لم يعد كافياً والجسر الجوي والبحري لايفي باحتياجات المواجهة.

ولعلنا نتذكر أيضاً كيف أن الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون كان يعاني -وقتها- من إخفاقه في حرب فيتنام وتصاعد الاتهامات ضده في فضيحة ووترجيت، مما جعله في موقف ضعف أمام اللوبي اليهودي فراح مسرعاً إلى الكونجرس لكي يطلب منح إسرائيل سلاحاً عاجلاً قيمته ٢٣٠٠ مليون دولار، وأن يتم السماح للطيارين الأمريكيين -تحت مظلة التطوع- بالتوجه للمساهمة في إنقاذ إسرائيل.

وجرى ماجرى من تدخل أمريكي مباشر في مجريات القتال منذ يوم ١٤ أكتوبر مما دعا الرئيس السادات صاحب قرار العبور إلى أن يقول كلمته الشهيرة .. لقد

استطاع "الولادى" أن يضربوا إسرائيل بمفردها، ولكن الموقف الآن قد تغير ويحتاج لحسابات جديدة بعد أن تدخلت الولايات المتحدة الأمريكية بشكل سافر ومباشر وإنه لايمكنني بحكم مسئوليتي عن أبنائي من الضباط والجنود أن أقول لهم.. حاربوا أمريكا أيضاً " !

والحقيقة أن ماحدث فى أكتوبر ١٩٧٣ كان شهادة لمصر كلها.

كان شهادة لملحمة إعادة بناء القوات المسلحة من جديد وقدرتها الفائقة على الوقوف على قدميها بعد أسابيع قليلة من كارثة الهزيمة .. ومن معركة رأس العش فى يوليو ١٩٦٧ إلى إغراق المدمرة إيلات فى أكتوبر ١٩٦٧ إلى بدء مرحلة الدفاع النشيط عام ١٩٦٨ إلى القدرة على خوض حرب استنزاف مجيدة عامى ١٩٦٩، ١٩٧٠ اكتملت كل مراحل التطعيم الضرورية للمقاتلين استعداداً لليوم الموعود.

وكان شهادة للجندى المصرى الذى استطاع فى شهور قليلة أن يستوعب أحدث الأسلحة التكنولوجية التى جرى تدريبه عليها.

وكان شهادة للجبهة الداخلية التى أعطت بلا حدود، ووقفت بكل ماتملك، تدعم وتشجع وتؤكد ثقتها المطلقة فى قواتها المسلحة.

وكان شهادة عظيمة القدرة على إحداث التغيير عندما يكون التغيير ضرورة حياة وبقاء..

وأتذكر الآن قصة من أوراق ملفات الأسرى التى عايشتها خلال تلك الأيام المجيدة، تكفى وحدها للتدليل على دلالة ما أحدثنا من تغيير لأنفسنا بعد يونيو ١٩٦٧.

تقول القصة :

أنه بعد نجاح القوات الجوية المصرية فى توجيه الضربة الأولى التى مهدت لملحمة العبور، كانت مهمة الدفاع عن سماء الوطن التى خاضها طيارونا بكل بسالة طوال أيام الحرب.

وكان تساقط الأسرى الإسرائيليين فى البر والبحر والجو حديث الدنيا كلها !

وكانت تجرى عمليات استجواب فورية لهؤلاء الأسرى لمحاولة التعرف على أية معلومات النوايا والخطط الإسرائيلية العاجلة.

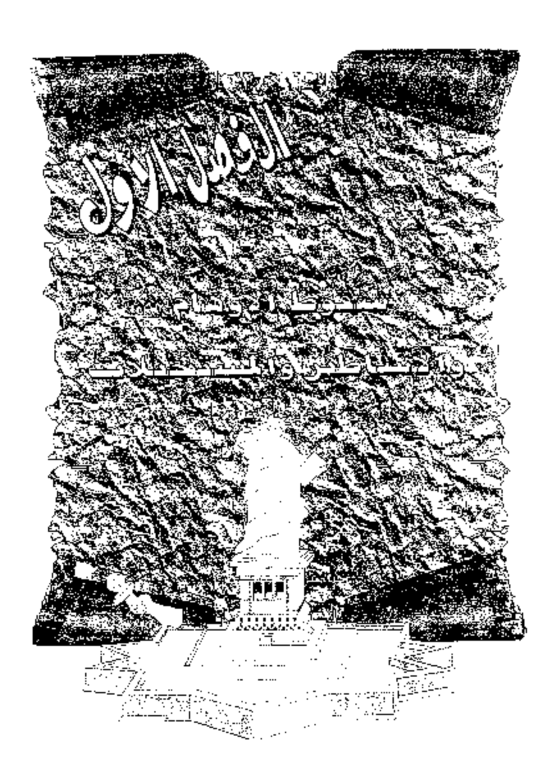
ومن بين هؤلاء الأسرى طيار إسرائيلي كان قد هبط بالمظلة سالماً بالقرب من إحدى القواعد الجوية بعد أن تحطمت طائرته، وتصادف وجود اللواء محمد حسني مبارك قائد القوات الجوية ـ انذاك ـ في القاعدة لمتابعة الاشتباكات الجوية الضارية التي كانت قد بلغت ذروتها أيام ١٠،١١،١٢،١٣ أكتوبر.

وطلب القائد المصري أن يرى الطيار الإسرائيلي الأسير وأن يستمع إليه .. قال القائد المصري للأسير: " لقد تابعت المعركة الجوية ولاحظت أن مستواكم كطيارين قد جاء أقل مما كنا نتوقع .. فما هو السبب وما الذي حدث وأدى إلى هذا التغيير؟ ".

وكان رد الأسير الإسرائيلي موجزاً وبليغاً : " سيدي القائد إننا لم نتغير ولكنكم أنتم الذين تغيرتم إلى الأحسن ".

وما أكثر الذكريات ... وما أعظم الدروس التي تؤكد حاجتنا إلى أن نملك جيشاً وطنياً وقوياً.

وأظن أن ما نشهده الآن على مسرح الشرق الأوسط يحتم علينا ذلك !


الفصل الأول

الفصل الأول

سقوط الأوهام .. والأساطير .. والمستحيلات

توقفت طويلاً أمام عبارة موجزة وردت في كلمة الرئيس محمد حسن مبارك التي وجهها إلى الأمة بمناسبة حلول الذكرى الـ ٢٤ لانتصار أكتوبر المجيد.. عبارة تقول: **"إن حرب أكتوبر صححت موازين القوى، وغيرت مسار الصراع العربي- الإسرائيلي وفرضت على العالم ضرورة إيجاد حل حقيقي لأزمة الشرق الأوسط وفتحت فرص السلام واسعة فسيحة أمام شعوب المنطقة كي تبدأ مرحلة جديدة من التعايش والتعاون على أسس صحيحة قوامها الاعتراف المتبادل وتكافؤ الحقوق والواجبات ورفض دعاوى التفوق والسيطرة وقبول مبدأ الأرض مقابل السلام".**

إن هذه العبارة لخصت كل ما حدث في ساحة الحرب قبل ٢٤ عاماً، ثم فسرت ومازال يجرى حتى اليوم على صعيد العمل الدبلوماسي من أجل الوصول إلى حل سياسي ومصالحة تاريخية للنزاع العربي - الإسرائيلي.

وربما يكون ضرورياً أن نسترجع معاً صورة الموقف في الشرق الأوسط قبل الساعة الثانية و ٥ دقائق من ظهر يوم السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣، حتى نستطيع أن نحكم على ماجرى وما ترتب على ذلك الذى جرى فى هذا اليوم المجيد، ومازالت نتائجه تتدفق حتى اليوم.. وأظن أن توابعه كزلزال استراتيجي سوف تستمر لسنوات طويلة قادمة.

كانت حالة اللاسلم واللاحرب قد طالت بأكثر مما ينبغي، رغم ما حققته معارك حرب الاستنزاف على الجبهة المصرية من نتائج معنوية وتكتيكية، ساعدت على تخطي صدمة النكسة والهزيمة في يونيو ١٩٦٧.

كان مسرح العمليات المنتظر مسرحاً صعباً ومعقداً بكل مقاييس العلم العسكري، فقد كانت قناة السويس تمثل حاجزاً مائياً من أصعب الحواجز التي تعيق العمل

العسكري.. وكان على الشاطئ الشرقي من قناة السويس خط من التحصينات يسمى خط بارليف يتكون من سلسلة من المواقع الحصينة التي تتفوق على أشهر الحصون المسجلة في التاريخ العسكري الحديث، وأبرزها خط سيجفريد الألماني وخط ماجينو الفرنسي.

وكان هناك من الخبراء والأصدقاء من ألحوا على مصر بدعوى الحرص والنصيحة بعدم التفكير في مغامرة عبور القناة ليس فقط لأنها مغامرة شبه مستحيلة، ولكن لأن ما يمكن أن يترتب من تكاليف وتضحيات فوق طاقة احتمال الوطن.

وكانت توابع الحملة النفسية التي تعاظمت بعد نكسة يونيو ١٩٦٧ لكي تمجد من قدر العسكرية الإسرائيلية، وتنال من سمعة العسكرية المصرية، تعشش في بعض النفوس.

وكان على من سوف يتحمل مسئولية اتخاذ القرار أن يضع كل ذلك في اعتباره، وأن يحدد هدفه بوضوح في اجتياز حاجز الخوف، ثم ضرب نظرية الأمن الإسرائيلي وصولاً إلى تصحيح موازين القوى بما يسمح بإمكانية التحرك على طريق التسوية الشاملة والعادلة بعيداً عن قناع الغرور والتعالي الذى سيطر على العقلية الإسرائيلية بعد حرب يونيو ١٩٦٧.

كانت هذه هي الأبعاد الحقيقة لحجم التحدى الذى نواجهه، فما الذي جرى بعد ذلك؟

إن المفاجأة التي ذهلت العالم كله، لم تكن مفاجأة الحرب ذاتها. وإنما كانت المفاجأة العظمى في حجم ما استطاعت القوات المصرية إنجازه في الساعات الأولى من بداية الحرب. حيث تم عبور القناة وتحطيم خط بارليف واجتياز حائط الخوف في ضربة واحدة!

ثم كان ماكان من سقوط أسطورة الجندى الإسرائيلي الذى لايقهر، وكان السقوط على كل المستويات.

سقطت أسطورة التفوق عند مستوى القيادة وأثبت المصريون أنهم يستطيعون أن يكتموا السر، وأن يحققوا المفاجأة، وأن يملكوا المبادأة وأن يحسنوا التخطيط والتنفيذ.

وسقطت أكذوبة العسكرية الإسرائيلية الشجاعة التي جرى الترويج لها بعد يونيو ١٩٦٧. وأثبتت المعارك وشهادات الإسرائيليين أنفسهم، أن الجنود المصريين كانوا يقتحمون المواقع بصدورهم مهما كان حجم النار واللهب، بينما كان الإسرائيليون يبحثون عن ملجأ أو مأوى للهرب من المواجهة.

وعندما أشرق صباح يوم السابع من أكتوبر كانت كل صحف العالم، خصوصاً الأمريكية والغربية التي جندت نفسها ٦ سنوات متصلة لجلد الشخصية المصرية. هي نفسها التي تتحدث عن المعجزة المصرية.

كان هناك ما يشبه الإجماع بين خبراء الاستراتيجية العالمية على مايلي:

١) أن أداء القوات المسلحة المصرية فاق كل التقديرات والحسابات بدقة التخطيط وعظمة التنفيذ.

٢) أن العالم كله سوف ينتظر - اعتباراً منذ هذه اللحظة — نظرة احترام للعسكرية المصرية التي حطمت أسطورة التفوق الإسرائيلي.

٣) أنه مهما يكن من أمر الحرب ومسار عملياتها، فإن من المؤكد أن خريطة الشرق الأوسط قد تغيرت، وأنه لابد من إعادة رسم هذه الخريطة من جديد في ضوء معطيات الأداء العسكري الرائع على جبهة قناة السويس.

وبدأت معاهدة العلوم العسكرية والاستراتيجية في العالم تطرح سؤالاً مجيــداً:

ماذا حدث.. وما الذي تغير في ٦ سنوات؟

وكان الجواب هو:

أن إسرائيل لم تتغير، بل إنها ازدادت قوة وغروراً بفضل الدعم العسكري الأمريكي المتواصل لها.. ولكن المصريين هم الذين تغيروا بأكثر مما كان في حسبان واحد.

كان حجم التغيير الذي حدث في مصر منذ لحظة إعادة بناء القوات المسلحة المصرية على الهزيمة هو الذي أدى إلى هذه النتائج المذهلة، حيث استعاد العرب ثقتهم بأنفسهم بينما ضاعت هيبة المؤسسات العسكرية الإسرائيلية، وضاع معها رباط الثقة الذي كان يهيئ لها مقومات السيطرة على المؤسسة السياسية في تل أبيب.

كان شباب مصر الذين انخرطوا في سلك العسكرية المصرية بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ ومعظمهم من حملة المؤهلات، أحد أهم ملامح التغيير الذي أدى إلى سرعة استيعاب برامج التدريب على الأسلحة الإلكترونية المتقدمة، ونشوء مناخ جديد يسمح بعلاقات إنسانية متكافئة بين الضباط والجنود، وأرضية للثقة بين الجندي والسلاح الذي يحمله.

كان الذين طرحوا سؤال البحث عن سر ما جرى، وما الذي تغير في ٦ سنوات فقط، لكي يحدث هذا الانقلاب معذورين في تساؤلهم لأن الصورة في أعقاب هزيمة يونيو ١٩٦٧ كانت قاتمة السواد بالنسبة لنا .. فقد كانت الحقائق العلمية المادية الملموسة تقول بما يلي :

١) أن القوات المسلحة المصرية خسرت أكثر من ٨٠٪ من حجم معداتها العسكرية، وأن معظمها جرى تدميره بغير قتال.

٢) أن صدمة الهزيمة أدت إلى تعثر وتشتت معظم القوات، خصوصاً تلك التي هامت على وجهها في صحراء سيناء وشمسها المحرقة.

٣) أن المحصلة العامة للقوات المسلحة المصرية يوم ١٠ يونيو ١٩٦٧ الذي صدر فيه قرار وقف إطلاق النار، لم تكن في النهاية قوة قادرة سواء في الدفاع أو الهجوم.

٤) إن الإسرائيليين نجحوا في احتلال شبه جزيرة سيناء كلها وأن قواتهم تحتل الضفة الشرقية لقناة السويس بأكملها.

٥) فهل يعقل أن تتمكن مصر في ٦ سنوات فقط من إعادة بناء جيش يقدر على منازلة إسرائيل وإلحاق الهزيمة الإستراتيجية والتكتيكية بها؟

وكان الجواب في النهاية :

أن المصريين حطموا كل المستحيلات لأنهم وضعوا كرامة ومستقبل أمتهم في الميزان، لكي يصححوا كل الموازين المغلوطة في منطقتهم.

والآن .. وبعد ٢٢ عاماً من ذكرى هذه الحرب المجيدة. فإن لنا أن نقول بكل الاعتزاز والثقة في النفس، أن كل ما نشهده الآن من خطوات على طريق التسوية والمصالحة التاريخية للنزاع العربي – الإسرائيلي، هو من نتاج هذه الحرب التي مازالت أمتنا العربية تستثمر نتائجها الإيجابية حتى اليوم.

لقد كان مستحيلاً أن يكون هناك اتفاق سلام تسترد بموجبه مصر كامل ترابها الوطني في ظل اختلال موازين القوى.

وكان مستحيلاً أن تعترف إسرائيل بالفلسطينيين، وأن تتفاوض معهم على قدم المساواة في ظل صلف وغرور القوة الإسرائيلية المطلق.

لقد كانت أهمية ماحدث يوم ٦ أكتوبر أنه نبه إسرائيل إلى الحقيقة التي غابت عنها في ظل غشاوة الوهم بالتفوق المطلق بعد حرب يونيو ١٩٦٧.

وفي حين نجحت حرب أكتوبر في تحطيم نظرية الأمن الإسرائيلي التي كانت ترتكز على قدرة إسرائيل وتفوقها بما يمكنها من فرض إرادتها، فإن حرب أكتوبر نجحت أيضاً في أن تثبت قدرة المصريين على تحدي التفوق الإسرائيلي وتحقيق المفاجأة وامتلاك زمام المبادأة والقدرة على تغيير الأوضاع.

كانت أهمية ماحدث يوم ٦ أكتوبر أنه أذاق الإسرائيليين طعم الهزيمة التي عايرونا بها في يونيو ٦٧.

لقد واجهوا نفس ما واجهنا وأكثر، وكان لذلك دلالاته وانعكاساته التي يصعب انتزاعها من الضمير الإسرائيلي.

لقد واجهوا محنة الهزيمة في أكتوبر ٧٣ بمثل ما واجهنا نحن محنة الهزيمة في يونيو ٦٧.

لقد أخذناهم على غرة بأخبث وأمكر وأذكى مما أخذونا.

وعندما بدأت الحرب وتوالت نتائجها، كانت أسباب شماتتنا فيهم تكتسب منطقية ومعقولية عن أسباب شماتتهم فينا.

لقد أصيبت قياداتهم العسكرية والسياسية بالشلل التام في مراكز القيادة، في حين تشرذمت قواتهم وتحطمت على طول امتداد قناة السويس.

لقد فرضت الحقائق الجديدة للحرب نفسها على إسرائيل، وحتمت عليها سرعة التعامل مع هذه الحقائق وأهمها الخروج من وهم التفوق المطلق.

ثم إن هذه الحقائق الجديدة للحرب هي التي أكدت لنا صحة الاعتقاد بأن السلام لا يستطيع أن يعيش في غيبة من قوة قادرة على أن تصونه وأن تحميه.

واخيراً فقد يسألني أحد القراء

هل يمكن أن تظل حركتنا السياسية خصوصاً على طريق البحث عن سلام شامل وعادل مرتكز على نصر أكتوبر وحده ؟

واقول صادقا :

أن ما يحدث حتى اليوم من خطوات على طريق التسوية والمصالحة التاريخية بين العرب وإسرائيل، هو نتاج حرب أكتوبر.. وأن الذين يتحدثون عن انتهاء العمر الافتراضي لاستثمار نتائجها، يتجاهلون أن قيمة ماحدث في أكتوبر لم يكن مجرد استرداد قطعة من الأرض احتلتها إسرائيل، وإنما القيمة الأساسية في أن نثبت لإسرائيل أن مفاهيمها خاطئة وأن كفة موازين القوى لا يمكن أن ترجح لصالحها إلى مالا نهاية.

وهذا هو ما يجعلنا أكثر اطمئناناً إلى المستقبل ... وأشد قناعة بمسيرة السلام ...

ويكفي أن نلقي نظرة فاحصة ومدققة على نص التوجيه الاستراتيجي من الرئيس السادات بصفته القائد الأعلى للقوات المسلحة، إلى الفريق أحمد إسماعيل على وزير الدفاع يوم الخامس من أكتوبر ٧٣ قبل أن يبدأ دوران عجلة الحرب بساعات، لكي نعرف أننا حققنا كل أهدافنا المرجوة من الحرب. ولكي تزداد ثقتنا بأننا نمضي على الطريق الصحيح مطمئنين إلى المستقبل مقتنعين بصحة اختيارنا لمنهج السلام.

لقد كان نص التوجيه الاستراتيجي كما يلي

إنه بناء على التوجيه السياسي العسكري الصادر لكم مني في أول أكتوبر ١٩٧٣ وبناء على الظروف المحيطة بالموقف السياسي والاستراتيجي، فقد قررت تكليف القوات المسلحة بتنفيذ المهام الاستراتيجية الآتية :

١) إزالة الجمود العسكري الحالي بكسر وقف إطلاق النار اعتباراً من يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣.

٢) تكبيد العدو أكبر خسائر ممكنة في الأفراد والأسلحة والمعدات.

٣) العمل على تحرير الأرض المحتلة على إمكانيات وقدرات القوات المسلحة.

كما تضمن التوجيه الاستراتيجي نصاً يفيد تنفيذ هذه المهام بواسطة القوات المسلحة المصرية منفردة أو بالتعاون مع القوات المسلحة السورية.

وأظن أن التقييم المنصف لما جرى ولما تحقق حتى الآن. يؤكد أن حرب أكتوبر كانت عبوراً من اليأس إلى الأمل، وأن ما تحقق على صعيد العمل السياسي والدبلوماسي لم يكن سوى ترجمة صحيحة للموازين الجديدة التي صنعتها نيران الدبابات والمدافع والصواريخ والبوارج والطائرات.

أليست الحرب هي مواصلة للسياسة بطريقة أخرى كما قال كلاوز فيتز المؤرخ العسكري الشهير قبل أكثر من ٢٢٥ عاماً؟

ثم أليست دبلوماسية التفاوض هي التي تؤدي في النهاية إلى نتائج تعكس موازين القوى الحقيقية لأطراف التفاوض؟

هذا ما نستطيع أن نقوله بكل الرضا عن حرب أكتوبر المجيدة والخالدة التى أدت إلى سقوط الأوهام والأساطير والمستحيلات، وقبول الجميع الاحتكام إلى العقل والمنطق الذى يتفق مع حركة التاريخ ...




الفصل الثاني

في ٦ أكتوبر ١٩٧٢ أي قبل الحرب بعام كامل قال الرئيس السادات بالحرف الواحد : "عندما أيقنت بحتمية المعركة أيقنت أن الأمريكان والروس قد وصلوا في لقاء موسكو إلى اتفاق على عدم المواجهة فقررت تصفية الوجود العسكري السوفيتي. لأن وجود عسكري سوفيتي واحد على أرض مصر عندما تبدأ معركتي مع إسرائيل يشكل خدمة كبرى للإستراتيجية الإسرائيلية، فإسرائيل سوف تدعي أنها تحارب الروس وأنها لا تحارب العرب وبذلك ستكسب الرأي العام الأمريكي بل وحتى الأوروبي. ومعنى ذلك أن السوفيت قد أصبحوا عبئاً علينا فهم لا يحاربون ويعطون عدونا وسيلة ابتزاز يغطي بها ما يحصل عليه من دعم ومساعدات أمريكية.

ونقطة أخرى أردت أن أحققها بإنهاء الوجود العسكري السوفيتي وهي إقناع زعماء الكرملين بأن استراتيجيتهم في المنطقة لايمكن أن تتحقق على حسابنا وحساب مصير أمتنا وأن عليهم أن يضعوا في حساباتهم الإرادة العربية وكما قلت في الخطاب الذي ألقيته في ذكرى وفاة عبدالناصر قبل أيام : لقد كان إحساسي كمن يقف فوق رمال متحركة ولابد أن أقف في خندقي الحقيقي وكان القرار صدمة كهربائية وقد يكون فيها شيء من العنف ولكنها كانت ضرورية. كان لابد منها ليستفيق الصديق ويدرك أنني أدخل معركة محسوباً فيها علي ولكنه في الحقيقة ليس معي.. إن قرار إنهاء الوجود العسكري السوفيتي قرار أملاه عليّ إيماني بحتمية المعركة واستحالة السكوت على عربدة إسرائيل في المنطقة. القرار لم يكن ضد السوفيت بل كان من أجل مصر. من أجل أن نكون في خندقنا الحقيقي وعلى أرض الواقع".

ومن حسن الحظ أن أحداً في العالم كله لم يصدق - بل لم يتصور - أن الرئيس السادات قد مس الحقيقة أو حتى جزءاً منها عندما برر الاستغناء عن الخبراء السوفيت بحتمية دخول المعركة ومن حسن الحظ أيضاً أن ذلك كان هو ما يستهدفه الرئيس السادات بالتحديد ويضعه في حساباته.

"الحقيقة لشعبي والخداع لهم".

ومع بداية العد التنازلي لعام المعركة لم يجد الرئيس السادات فرصة لكي ينصب للعدو شبكة معقدة . من أسلوب خداع محكم إلا واغتنمها وكان في ذلك يصدر عن معرفة علمية ودقيقة ومحسوبة لتفكير العدو وحساباته.

لم يكن باستطاعة الكمبيوتر أن يخرج نتيجة واحدة لتقييم وتحليل نوايا السادات الحقيقية عن احتمالات دخول الحرب وموعد دخولها فقد كانت أغلب الأسئلة التي تلقى على الرئيس تدور حول صيغة واحدة "هل ستدخلون الحرب وهل هي قريبة" وفي معظم الأحوال كانت إجابة الرئيس لا تخرج عن جواب واحد.. الصبر والصمت "أنا عارف سيقولون الصبر ضياع.. الصمت انهزامية لقد قالوا الكثير وسيقولون أكثر، أؤكد أننا لسنا في ضياع ولانخطوا في الفراغ وأننا عارفون كيف نقدر خطواتنا بحساب دقيق وعميق وبعد نظر".

وعندما تصادف وجود الرئيس السادات في ليبيا في يناير ١٩٧٣ عقد مؤتمراً صحفياً في منزل العقيد القذافي قبل أن يغادر ليبيا متوجهاً إلى يوجوسلافيا ضمن إطار خطة تحركات شاملة لخدمة هدف الإعداد للمعركة وكان أهم ما ركز عليه السادات "أن مصر سوف تواجه بكل الصلابة وبدعم القومية العربية أشرس عدو في التاريخ كما أنها ستواجه بذات الصلابة أخطر غارات العمق، وكان يقصد بالغارات حملات التشكيك والحرب النفسية التي تهدف إلى احتلال نفس العربي جميعاً بعد أن احتلت أراضيهم ولم يتردد السادات في أن يعلن أن مصر تسعى إلى شراء السلاح من أي مكان في العالم لكي تخوض معركتها.. ومن حسن الحظ أن أحداً لم يكن على استعداد لأن يصدق".

وقد زاد من شدة ارتباك الإسرائيليين وحلفائهم الأمريكيين وعدم قدرتهم على استخلاص النوايا الحقيقية لمصر أن الرئيس السادات كان في أحاديثه مع الصحفيين العالميين وخصوصاً الأمريكيين ـ يطرح من المسائل ما يمكن تصوره سراً عسكرياً لاينبغي إذاعته من دولة تنوي أن تخوض حرباً وكان أبرز نموذج لحيرة الإسرائيليين والأمريكيين هو عجزهم عن تحليل حديثه الهام في أول إبريل ١٩٧٣ مع أرنود

بورشجراف كبير محرري مجلة نيوزويك الأمريكية الذي عدد فيه عدداً من الأعمال العسكرية المصرية التي كان مزمعاً تنفيذها ضد إسرائيل ولم تنفذ وبصفة خاصة عمليات الإعداد التي جرت في شهر ديسمبر ١٩٧١ لشن غارات بقاذفات القنابل في الجزء المحتل من سيناء ولكن هذه العملية ألغيت إثر نشوب الأزمة الهندية ـ الباكستانية، كذلك عمليات الإعداد لإرسال لواء المظليين إلى سيناء في نهاية صيف ١٩٧٢ بهدف احتلال نقطة على الساحل خلال فترة تتراوح مابين أسبوع وعشرة أيام يتم خلالها دعوة مجلس الأمن للانعقاد ووقف ضخ البترول وممارسة قدر كبير من الضغط على واشنطن حتى ترغم إسرائيل على الجلاء عن الأراضي المحتلة.

ولقد كان طبيعياً أن يرى الإسرائيليون وغيرهم في هذه التصريحات عدم وجود نية فعلية للحرب خصوصاً أن بورشجراف ذكر في حديثه نقلاً عمن أسماهم بالمساعدين المقربين للرئيس السادات أن مصر تنوي شن حرب واسعة النطاق على قناة السويس وأن أقصى ما تطمح إليه هو القيام بأعمال حربية محدودة مثل شن غارات في سيناء واستئناف أعمال قصف شبيهة بحرب الاستنزاف في منطقة قناة السويس.

وفي هذا الوقت لم يستطع أحد أن يفهم أن ما ذكره الرئيس السادات كأسرار عسكرية وماتم تسريبه من أنباء عن طريق مساعدين مقربين لم يكن إلا حلقة في سلسلة حلقات الخداع المستمر ولم يكن قد بقي على موعد الحرب سوى ٦ شهور فقط لم يتردد خلالها الرئيس السادات في أن يتحدث مع صحفيين ومراسلين من شتى أنحاء العالم عن حتمية المعركة وعن الإعداد لاستخدام البترول كسلاح في المعركة.

وعندما حان موعد الذكرى الثالثة لوفاة عبدالناصر في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٣ ووقف الرئيس السادات يلقي خطابه المعتاد في مثل هذه المناسبة لم يكن أحد في العالم ذلك يعلم ـ سوى الرئيس السادات والرئيس الأسد والمشير إسماعيل ـ أن ساعة الصفر قد اقتربت ولم يعد باقياً سوى ١٠٠ ساعة فقط على نشوب الحرب، وكانت قمة المفاجأة وذروة الخداع أن الرئيس السادات ـ في هذا الخطاب ـ على عكس عادته منذ تولى السلطة في مصر ألا يتحدث بشيء عن المعركة سوى إشارة طفيفة في ختام خطابه

كان فيها مايكفي لتطبيق المبدأ الذي التزمه السادات في كل أحاديثه "الحقيقة لشعبي والخداع لهم".

وعندما وقعت الحرب راحت إسرائيل كلها تلعن سوء الفهم وقصر النظر الذي وقع فيه قادتها ومخابراتها بينما تذكرت الأمة العربية في هذه اللحظات ساعات المرارة السابقة التي كانت تلعق فيها جراحها وأيقنت أن أفضل دستور للمواجهة مع عدو شرس وخبيث ومتعلم كإسرائيل ليس سوى دستور الصبر وبصرف النظر عن صيحات المزايدة باسم الثورة والثورية.

وفيما كانت خطب وأحاديث الرئيس تمضي وفق مخطط علمي ومدروس وضعه السادات بنفسه لخداع العدو وتضليله كانت الأجهزة المصرية المسئولة وبينها وزارة الخارجية ووسائل الإعلام وإدارات المخابرات والشخصيات المرموقة تتولى مهمة تسريب أنباء إلى الصحافة العالمية تخدم خطة الخداع وتبدو وكأنها أنباء صحيحة تماماً وفي غاية السرية خرجت دون علم المسئولين في القاهرة غير أن العكس كان هو الصحيح.

كانت القاهرة هي مصدر كل هذه الأنباء التي شوهدت صورتها الظاهرة في العالم والتي حاول البعض في العالم العربي أن يستخدمها بغباء للضغط على القاهرة وقيادتها السياسية، كان من مصلحة مصر أن تخرج صحيفة إيطالية واسعة الانتشار في فبراير ١٩٧٢ لتقول "أن المصادر العسكرية المصرية تعترف صراحة أن مصر تعاني من نقص في البنزين وقطع الغيار وأنه ليس لديها سوى طيار واحد فقط لكل طائرتين، وتجثم الطائرات الحديثة الأسرع من الصوت كأحجار لا يوجد من يحركها وقد تحطمت في الشهور الخمسة الأخيرة ٣٠ طائرة أسرع من الصوت في التدريبات.

ومن حسن الحظ أن إسرائيل كانت تلتقط هذه الأنباء لتنشرها بصورة بارزة في صحافتها وكان ذلك الإبراز من جانبهم يعني في نظر القاهرة أنهم أصبحوا أسرى للخداع المصري الماكر وعندما كان عام ١٩٧٢ يقترب من نهايته خرجت صحيفة من

معاريف الإسرائيلية الواسعة الانتشار وعناوينها الرئيسية تتحدث عن تقرير لوكالة اليونايتدبرس الأمريكية من بروكسل جاء فيه:

"إن تقريراً سرياً أعده السلاح الجوى المصرى ووزعت نسخ محدودة منه على عدد من كبار المسئولين جاء فيه أن ٤٠٪ فقط من السلاح ، ٦٠٪ من الطائرات المصرية المقاتلة في حالة صالحة، وذكرت المصادر الدبلوماسية في بروكسل التى نقلت التقرير السرى أن العوامل الأساسية المسئولة عن هذا الوضع غير السليم هى الصيانة السيئة ونقص قطع الغيار من الاتحاد السوفيتى، ويتضح من التقرير السرى المصرى أن مصر فقدت ٥٠ طائرة مقاتلة على الأقل من صنع سوفيتى فى التدريبات منذ حرب الاستنزاف وحيث ذكرت مصادر موثوقة أن مصر كانت تمتلك ٥٢٣ طائرة قبل حرب الاستنزاف فإن معنى ذلك أن فى حوزتها الآن من ٤٠٠ إلى ٤٥٠ طائرة منها ٣٠٠ جاهزة للقتال.

وعزز هذا الانطباع – الذى جرى التخطيط له من قبل القاهرة ببراعة – أن بيث مراسل الفايننشال تايمز البريطانية فى نفس الوقت .. ديسمبر ١٩٧٢ .. بتقرير من القاهرة يقول فيه: "إن الجيش المصرى ليس مهيأ أبداً للقتال على الرغم من توق تشكيلاته إلى حرب مع إسرائيل وقد ذكر لى مثقفون مصريون أنه فى حالة نشوب حرب ستكون هزيمة الجيش المصرى محققة لأنه بالإضافة إلى فقدانه المقدرة على القتال فإن القدرة الدفاعية ذاتها تأثرت بخروج الخبراء السوفيت الذين حملوا معهم جزءاً كبيراً من السلاح الدفاعى المتطور".

ومع بداية عام ١٩٧٣ تزايدت درجة نشاط الأجهزة المصرية المسئولة عن تسريب الأنباء إلى الصحافة العالمية – بل وإلى عملاء المخابرات الأجنبية وبينها بالتأكيد عملاء المخابرات الإسرائيلية – وكان محور الأنباء التى تم تسريبها يتحدث عن عدم وجود أية مقدرة حقيقية لمصر على القتال وأن مايذكره السيد الرئيس دوماً عن حتمية المعركة ليس إلا من قبيل الاستهلاك المحلى.

ومن قلب القاهرة سمح لجيم هوجلاند مراسل الواشنطن بوست الأمريكية أن يبعث لصحيفته بتقرير في ٢٦ مارس ١٩٧٣ ليقول فيه: "إن فشل شبكة الرادار المصرية في كشف طائرة الركاب الليبية عندما حلقت فوق منطقة عسكرية مغلقة في الجانب المصري من القناة قبل تسللها إلى سيناء يظهر أنه مازالت هناك نقاط ضعف كثيرة في نظام الدفاعات الجوية المصري على الرغم من عودة مئات من الخبراء السوفيت إلى مصر في الشهور الستة الأخيرة وإعادتهم جزءاً مهماً من تجهيزات الرادار ووحدات الصواريخ المتحركة التي أخذوها معهم عندما غادروا مصر".

ومضى مراسل الواشنطن بوست في تقريره الذي بعث به إلى القاهرة: "إنه علم في القاهرة أنه خلال شهر نوفمبر ١٩٧٢ اقتربت طائرتان إسرائيليتان نفاثتان إلى مسافة ٥٠ كيلو متراً في القاهرة دون أن ينجح المصريون في إطلاق صواريخ باتجاههما وقد أطلق صاروخ واحد فقط بعد أن استدارت الطائرتان وعادت إلى الجانب الشرقي من قناة السويس، ومنذ أن ترك السوفيت مصر لم تجر مناورات فرق أساسية وأصبحت صيانة العتاد في الجيش أسوأ مما كانت ويوضح ضعف الجهاز المصري لمستمر أن تجدد الحرب سيكون بمثابة انتحار أكثر مما كان في الماضي".

وعندما كانت إسرائيل في حيرة من أمرها في محاولة تفسير واقتناع بعض القوات والمعدات المصرية صوب جبهة قناة السويس، في إطار ما أطلقت عليه مصر وقتها باستعدادات لإجراء مناورة تحت اسم "صلاح الدين" سمحت مصر لمراسل صحيفة اللوموند الفرنسية في القاهرة أن يبعث لصحيفته بتقرير عشية الحرب في سبتمبر ١٩٧٣ يقول فيه "إن عدداً كبيراً من ٥٠٠ إلى ٦٠٠ ألف جندي مصري المعسكرين في جبهة قناة السويس ليسوا جنوداً مقاتلين ولاتتوافر فيهم القدرة على القتال ولم يستطع الجنود الشباب المثقفون الذين جندوا مؤخراً في مصر السيطرة على العتاد السوفيتي المعقد".

وعندما كانت إسرائيل تعيش جو المأساة والحزن والكآبة بعد صدمة الهزيمة ومرارة المفاجأة وقف موشي ديان في نوفمبر ١٩٧٣ ليخطب في ضباط الجيش

الإسرائيلي الذين ذاقوا ويلات الحرب ورأوا بأعينهم كم كلفتهم من أرواح ومعدات ليقول لهم : لم يكن أحد يتوقع حتى صباح يوم السبت أن تنشب الحرب في ذلك اليوم ولذا لم تبدأ تعبئة الاحتياط قبل ذلك، وحتى صباح ٦ أكتوبر لم أفكر أنا شخصياً في أن الحرب ستقع.

وبعد ذلك بأيام وقف ديان في اجتماع الحكومة الإسرائيلية يقول لم أسمع من أي شخص هنا أن الحرب ستندلع في هذا اليوم".

مؤكداً بذلك صحة المقولة بأنهم : "رأوا ولكنهم لم يفهموا".

وكان ذلك بالفعل أبلغ اعتراف من جانب قادة الأسطورة عن عدم استطاعة فهم ماجرى وكان ذلك بدوره شهادة حق يستحقها العقل المصري الذي أدار ببراعة أخطر خطة خداع في التاريخ بنفس درجة الكفاءة التي خطط بها لاجتياز أصعب مانع مائي في التاريخ وهزم بها أشرس عدو واجهه الإنسان العربي على طول التاريخ.

حكاية المظروف المغلق وساعة الصفر

ولأن الحقائق لا تموت ولا تتبدل لغة لو أرقاماً بمرور الأيام والسنين فقد رأيت أن أستعيد معكم بعضاً من ذكريات هذه الأيام الخالدة والتي كنت قد سجلت بعضها في كتابين صدرا لي وباسمي عامي ٧٤ و ٧٥ تحت عنوان "حرب أكتوبر من غرفة العمليات" و "قصة الثغرة في الدفرسوار .. رواية الحرب من غرفة العمليات".

في الفصل الخامس من الكتاب الأول وتحت عنوان "المظروف المغلق وساعة الصفر" جاء مايلي وبالحرف الواحد:

"في صباح يوم ٦ أكتوبر كانت الأمور تمضي بصورة طبيعية في القاهرة على الرغم من أن صحف القاهرة نشرت في عناوينها الرئيسية أنباء التوتر المتزايد على خطوط المواجهة حيث كان الانطباع السائد لدى رجل الشارع في مصر أن مصدر التوتر هو الخشية من انتقام إسرائيل للعملية الفدائية في النمسا".

هكذا كانت الرؤية الظاهرية لرجل الشارع المصرى فى القاهرة مجرد توتر على الجبهة تحسباً لاحتمال قيام إسرائيل بعمل عدوانى ولكن الحقيقة كانت غير ذلك تماماً فمنذ الصباح الباكر استيقظ جميع القادة العسكريين بعد إغفاءة قصيرة لم تمتد لأكثر من ساعة وهرع كل إلى موقعه فى المركز الذى يقع تحت الأرض ويتم الوصول إليه عبر سلسلة من بوابات الحديد والصلب تفصل بين سلسلة من الممرات والدهاليز والسلالم.." والمركز يتصدره قاعة كبيرة أضواؤها باهرة ألوانها بالخرائط الحية.. والخرائط ليست ألواناً فقط ولكنها حركة متدفقة وحول القاعة مجموعات تمثل قيادات وأفرع القوات المسلحة كلها. كل مجموعة وراءها خرائطها وأمامها أدوات اتصالها بكل الجهات. وصدر القاعة يعلو بمنصة لهيئة القيادة العامة وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة ورئيس الأركان ورئيس هيئة العمليات، وفى مواجهة المنصة وعلى الحائط المقابل

مجموعة الخرائط الرئيسية التى تمثل الموقف العام مرسومة على مسطحات من زجاج بعرض القاعة كلها ــ الموقف فى البر ــ الموقف فى البحر ــ الموقف فى الجو ــ الوضع على الجبهة السورية ــ أجهزة الاتصال تدق والتليفون والتلكس أصوات فى مناقشات سريعة.. لمسات ملونة تضاف على الخرائط المرسومة فوق مسطحات الزجاج وفقاً لتغيرات الموقف دقيقة بدقيقة وبأمانة مطلقة كل ما فى القاعة مصرى مائة فى المائة فى هذه اللحظة .. الأشخاص .. الأدوات...

والأفكار .. والأمانى .. والأحلام

وعندما وصل الرئيس السادات إلى القاعة فى الساعة الواحدة والربع من بعد الظهر واتخذ مكانه على صدر المنصة الرئيسية كانت الحركة قد بدأت تدب فى موقع آخر قريب حيث يوجد مكتب المتحدث العسكرى المصرى الذى كان لى شرف المشاركة فى إنشائه والعمل به قبل وأثناء حرب أكتوبر تحت قيادة اللواء عز الدين مختار الذى أصبح فيما بعد أميناً عاماً لرئاسة الجمهورية فقد فتحت إحدى الخزائن وأخرج مظروفاً مغلقاً.. وكان المظروف يحتوى على صيغة البيانين الأول والثانى وكان المظروف

يحتوى أيضاً على تعليمات بإذاعة البيان الأول بعد ٥ دقائق من ساعة الصفر أى يتم إذاعته فى الثانية وعشر دقائق علـى أن يذاع البيـان الثـانى بعد ٢٠ دقيقة من ساعة الصفر أى فى الساعة الثانية وخمس وعشرين دقيقة، ولقد كان البيان الأول يقول: "قـام العدو فى الساعة الواحدة والنصف بعد ظهر اليوم بمهاجمة قواتنا بمنطقتـى الزعفرانـة والسخنة بخليج السويس بواسطة عدة تشكيلات من قواتـه الجويـة عندمـا كـانت بعـض من زوارقه البحرية تقترب من الساحل الغربى لخليـج السـويس، وتتولـى قواتنـا حاليـاً التصدى للقوات المغيرة وكان نص البيان الثانى كمـا يلـى: "رداً علـى العـدوان الغـادر الذى قام به العدو ضد قواتنا فى كل من مصر وسوريا تقوم حالياً بعض من تشكيلاتنا الجوية بقصف قواعد العدو وأهدافه العسكرية فى "الأراضـى المحتلة".. ويقيناً فلقد كـان هذان البيانان بمثابة آخر لمسات الإعداد والخداع للحرب التى بدأت حقيقة فـى الثانيـة وخمس دقائق لتبدأ معها البيانات العسكرية المصرية الحقيقية ويتصدرها استهلال باسم الله الرحمن الرحيم.

أما فى إسرائيل فلقد كان القلق قد ارتاب زعماءها قبل ذلك الصباح بأربع وعشرين ساعة وجلس هؤلاء الزعماء فى حيرة من أمرهم بغير قدرة علـى اتخـاذ أى قـرار أو تفسير لما جرى ففى صباح يوم الجمعة ٥ أكتوبر أصدر دافيد اليعازر رئيس الأركـان الإسرائيلى قراراً بوضـع القـوات الإسـرائيلية فـى أقصـى درجـات الاسـتعداد وألغـى الإجازات وأعلمهم أنه من المحتمل أن يتم استدعاء الاحتياطى، ولكـن مافعلـه أليعـازر لم يكن يحوى جديداً فقد كانت القوات الإسرائيلية بالفعل فى حالة طوارئ طيلة الأيـام التسعة السابقة منذ أن أعلن ديان تحذيره بشأن مايجرى فى الجولان وكل ما استجد فى تعليمات أليعازر هو استدعاء كبار ضباط الاحتياطى، وبينمـا كـانت القيـادة العسكرية الإسـرائيلية "زاحـال" تتخبـط فـى تصرفاتهـا كـانت الحكومـة الإسـرائيلية هـى الأخـرى عاجزة تماماً عن فهم ما يجرى.

ففى المساء من نفس اليـوم "الجمعـة" عشية الحـرب عقدت جولدا مـائير اجتماعـاً مغلقاً لوزارة "المطبخ" التى تدبر شئون إسرائيل وحضر الاجتماع كل من إيجـال ألـون

نائب رئيسة الوزراء وموشي ديان وزير الدفاع وإسرائيل جاليلي وزير الدولة وأكبر المستشارين المقربين لجولدا مائير وبعد أن بدأ الاجتماع انضم إليهم حاييم بارليف ودافيد أليعازر.. وانفض الاجتماع دون أن يتمكن القادة الإسرائيليون من استخلاص نتيجة مؤكدة من خلال الشواهد المتجمعة لديهم سواء تلك التي جمعتها المخابرات الإسرائيلية أو المخابرات الأمريكية، ولقد كانت خدعة مايو ١٩٧٣ ماثلة في أذهان المجتمعين ومن ثم فقد لقيت فكرة دعوة الاحتياطي التي طرحها أليعازر تحفظاً شبه إجماعي بل إنه عرض اقتراحه بدعوة الاحتياطي بتحفظ بالغ ولقد أوضح ديان هذا الموقف في تصريح له في ٦ أكتوبر ١٩٧٣ بعد انتهاء الحرب حيث قال بالحرف الواحد "عندما اجتمعنا يوم الجمعة لم يكن يعتقد أحد بيننا أن الحرب ستنشب.. إنني لم أكن وحدي الذي أعتقد بذلك ولكني لم أسمع أحد يقول أن الحرب على وشك أن تندلع.

ولقد كان ما قاله ديان بالفعل صحيحاً إذ أن كل ما طلبه أليعازر هو أن تتخذ بعض الإجراءات الاحتياطية ولم يعترض أحد على ما طلبه ولكن ما شغل مائير ووزراءها المقربين في هذه الليلة هو محاولة تفسير عملية ترحيل عائلات الخبراء السوفيت في مصر وسوريا في الليلة السابقة ومدى ما يمكن أن تطرحه من آثار سلبية على العلاقات المصرية السوفيتية حيث لم يتصور أحد منهم أن الأمر مجرد خدعة من جانب مصر وسوريا.

وربما يكون مفيداً أن أورد هذه الواقعة المهمة التي كنت طرفاً أساسياً فيها .. ففي مساء يوم الخميس ٤ أكتوبر طلب مني اللواء عز الدين مختار المتحدث العسكري الرسمي أن أكتب رداً عاجلاً للنشر في الأهرام "عدد الجمعة ٥ أكتوبر" باسم المحرر العسكري للأهرام لنفي ماورد في تصريحات دافيد أليعازر رئيس الأركان الإسرائيلي عن وجود نوايا مصرية للهجوم وقدرة إسرائيل بذراعها الطويلة على إجهاض هذه النوايا وتلقين مصر دوراً قاسيا وأسرعت بإعداد الرد الذي وافق عليه المشير "أحمد إسماعيل"علي وتوجهت به إلى الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام الذي وافق على نشره في الصفحة الأولى وتنازل لأول مرة عن المحرر العسكري للأهرام

ليمنحه لي بعد أن رفض الرقيب العسكري نزول الأهرام للسوق بعد طبع أكثر من ٥ آلاف نسخة لأن الرد كان بأسمي فقط ومجرداً من صفحة المحرر العسكري للأهرام التي كانت ضرورية لتأكيد مصداقية الرد والخداع .. ولإزالة الآثار السلبية التي كانت قد نجمت عن خطأ غير مقصود وقعت فيه وكالة أنباء الشرق الأوسط المصرية عندما وزعت خبراً عن رفع درجة الاستعداد وكان من المفترض أن يكون توزيعها محدوداً على كبار المسئولين فقط ولكن أحد المسئولين بالوكالة أطلق الخبر الخطير إلى كل أنحاء الدنيا عن غير قصد !

ولم يكد تمضي عدة ساعات على مغادرة الوزراء لمنزل جولدا مائير وخلودهم للنوم والراحة حتى تبددت كل هذه الغشاوة التي طمست أعينهم وشلت تفكيرهم ففي الساعة الرابعة من صباح يوم السبت التقطت أجهزة التصنت الأمريكية والإسرائيلية معاً ما يشير شكلاً لا يقبل الجدل إلى استعدادات مصر الفعلية للحرب وأوقظ ديان وأليعازر من نومهما ودعيا لاجتماع طارئ في قيادة الجيش الإسرائيلي وانتهى الاجتماع في الثانية صباحاً وكانت النتيجة التي تم التوصل إليها أن الحرب واقعة لامحالة ولكن متى؟ هذا هو السؤال الذي عجزوا عن الإجابة عنه وكانت تقديراتهم أن الطلقة الأولى لن تتم قبل ٤٨ ساعة.

وخرج ديان وأليعازر من اجتماع قيادة الجيش الإسرائيلي إلى منزل جولدا مائير ليبلغاها بالنتيجة التي تم التوصل إليها واقتراح أليعازر أن يقوم الطيران الإسرائيلي بتوجيه ضربة جوية خاطفة فجر الأحد ولكن ديان ومائير عارضا الفكرة تماماً كان رفضهما قائماً على أساس "أن الضربة الجوية الخاطفة في عام ١٩٦٧ أخذت الطيران المصري على غرة بينما الطائرات المصرية نائمة فوق مدرجات مطاراتها العارية أما الآن فإن هذه الضربة الجوية سوف تكون ضربة فاشلة ضررها أكثر من نفعها إذ أنها يمكن أن تهزم إسرائيل منذ اللحظة الأولى لبداية الحرب إذا ضاع كل طيرانها أن الضربة الجوية الإسرائيلية ستكون هذه المرة ضد عدو مستعد تماماً تحميه شبكة صواريخ رهيبة وإن أقصى ما يمكن أن تحققه مثل هذه الضربة المغامرة هي خلخلة

الاستعدادات المصرية وتأجيلها بضعة ساعات لكن الخسائر الإسرائيلية سوف تكون عالية ورهيبة وربما جاءت مهينة".

وبعد أن أوضحت جولدا مائير لديان وأليعازر وجهة نظرها حول استحالة نجاح ضربة الإجهاض الجوية الإسرائيلية دخل إلى جولدا مائير من يهمس في أذانها بأن "كينيث كيتنج" السفير الأمريكي على الباب وأنه يطلب مقابلة رئيسة الوزراء لأمر عاجل، وقبل أن تجيب مائير على محدثها وتعطي إذناً للسفير الأمريكي بالقدوم أعطت جولدا مائير لديان وأليعازر موافقة مكتوبة على تعبئة الاحتياطي الإسرائيلي فوراً.

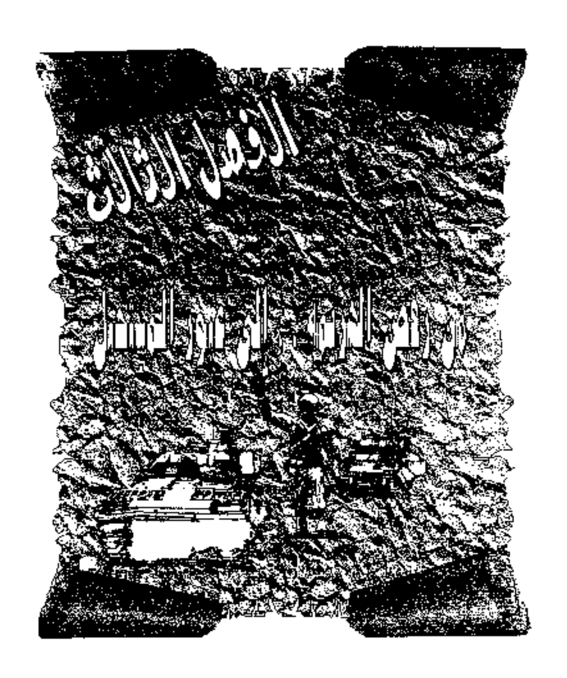
وعندما دخل السفير الأمريكي على جولدا مائير وجدها تتثاءب دليلاً على أنها لم تنم نوماً كافياً هذه الليلة ومن ثم فقد بادرها كيتنج قائلاً: معذرة ياسيدتي وأنا كذلك قطعت الطريق من بيتي إلى هنا أتثاءب فإنهم في واشنطن ـــ في ضوء رؤية واقعية لميزان القوى في المنطقة يرون إذا أحجمت إسرائيل عن توجيه أية ضربة خاطفة ومن ثم تتيح للعرب أن يكونوا البادئين بالعدوان فحينئذ سوف تكون لدى إسرائيل الذريعة التي افتقدتها طوال السنوات الماضية لتحطيم القوة العسكرية العربية مرة أخرى ثم أن ذلك سوف يساعد الولايات المتحدة على أن تقدم لإسرائيل كل ما تحتاج إليه من عون دون حرج "واستطرد السفير الأمريكي قائلاً: "سيدتي رئيسة الوزراء .. بالله عليك أليس ذلك بالضبط ما تقدرينه وتعتقدينه؟!"، وردت مائير بنبرة واثقة قائلة: "أجل ياسفير أعظم وأقوى صديق لنا ولكن معي رسالة أريد إبلاغها للعرب وفي رأيي أن الدكتور هنري كيسنجر يحسن صنعاً لو تفضل مشكوراً بإبلاغ محتواها لهم وطمأنتهم بأن إسرائيل لا تشرع في توجيه أية ضربة ولذلك فلا يجب أن يقلقوا.."

وحمل السفير الأمريكي الرسالة من جولدا مائير وخرج لتوه لكي يبرق لحكومته بنتيجة اجتماعه مع رئيسة وزراء إسرائيل، ونظراً لفرق التوقيت بين الشرق الأوسط وأمريكا فلقد كان الصباح المبكر من يوم السبت ٦ أكتوبر يوافق تماماً منتصف ليلة الجمعة ٥ أكتوبر في واشنطن وهكذا فإن الرسالة وصلت إلى واشنطن بينما كيسنجر نائم عندما أيقظوه لم يكن مكترثاً تماماً بالمرة فقد قرأ قبل نومه تقريراً أخيراً من

البنتاجون الأمريكي يستبعد فيه نشوب الحرب ومن ثم فقد أصدر تعليماته بإبلاغ محتوى الرسالة الإسرائيلية إلى السفراء العرب وعاد إلى فراشه مرة أخرى بينما كانت شمس الصباح الساطعة تغطي كل أرجاء جزيرة سيناء التي عبر إليها في المساء مجموعة من رجال الكوماندوز المصريين ونجحوا في العودة إلى قواعدهم غرب القناة قبل بزوغ أول ضوء بعد أن أتموا مهمتهم بنجاح ... تلك المهمة التي كانت بمثابة الحلقة الأخيرة في سلسلة الاستعدادات المصرية الفعلية لبدء الحرب فقد نجح رجال الكوماندوز في قطع الخراطيم الموصلة بمواسير اللهب وصب خرسانة مسلحة في الأنابيب التي توصل بين مستودعات البترول في خط بارليف والخراطيم الموجهة للقناة والتي كانت تنوي إسرائيل من خلالها أن تحيل القناة إلى كتلة من اللهب والجحيم عند أية محاولة مصرية للعبور.

وعندما اكتشفت إسرائيل عند الظهر ماجرى لمواسير لهبها دفعت أحد المهندسين لمحاولة إصلاحها كانت الشرارة قد انطلقت والحرب قد بدأت ووقع المهندس الإسرائيلي أول أسير في يد موجات العبور المصرية الأولى التي بدأت أعظم ملاحم الحرب العسكرية في العصر الحديث وهذه حكاية أخرى.

ولكن الجذور الحقيقية لنصر أكتوبر تعود إلى ماقبل ذلك بكثير.. إلى ماقبل أكثر من سنوات .. إلى يوم ١١ يونيو ١٩٦٧ اليوم الذي بدأت فيه الخطوة الأولى لإعادة بناء القوات المسلحة المصرية على أسس سليمة وفي دروس للهزيمة المريرة التي لم يكن لرجال القوات المسلحة أي ذنب فيها ؟


الفصل الثالث

الجذور والدروس والنتائج !

كانت جراح الهزيمة القاسية عام ١٩٦٧ مازالت تستنزف الدماء والمشاعر على حد سواء ! وكانت حالة اللاسلم واللاحرب قد فرضت نفسها على الموقف وبدت وكأنها الأمر الواقع الذى لا فكاك منه!

وكان حائط الخوف والإشفاق من مخاطر المجهول إذا تمت المجازفة بعبور القناة أو اقتحام خط بارليف واردة في الحساب !

وكان هناك شبه إجماع بين معظم الخبراء العسكريين في العالم بأن عملية العبور شبه مستحيلة إلا إذا قامر المصريون بعشرات الألوف من الضحايا !

وسط هذا الظلام الدامس واليأس الخانق اتخذت مصر قرار الحرب في أكتوبر ١٩٧٣ وصنع المقاتل المصرى ملحمة شجاعة وتضحية. وتم العبور المستحيل فكان أكبر مفاجأة إستراتيجية وتكتيكية في العصر الحديث.. وسقطت كل الحوائط دفعة واحدة .. سقط حائط الخوف وسقط حائط بارليف .. وسقط حائط اليأس .. وتغير الأمر الواقع.

فهل كان ذلك الذى جرى يوم ٦ أكتوبر ٧٣ مجرد صدفة أو ضربة حظ أم أنه كان نتاج عمل وجهد خارق استمر على مدى ٦ سنوات منذ ١١ يونيو ١٩٦٧ وحتى ٦ أكتوبر ١٩٧٣.

إن الإجابة على مثل هذا السؤال يمكن أن تقودنا إلى سؤال آخر هو : إذا كانت دقة التخطيط وبراعة الإعداد وحسن الحشد وروعة الأداء هى عناصر النصر العظيم، فلماذا لا نستعيدها هذه الأيام في معركة إعادة البناء الداخلى للوطن وهى معركة لا تقل أهمية وشرفاً عن معركة أكتوبر الخالدة.

وإذا حللنا جذور ودوافع وملابسات ماحدث في أكتوبر ١٩٧٣ بصدق وموضوعية فإننا نقول أن الشعب المصرى بأسره عندما خرج برفض الهزيمة في ٩ ، ١٠ يونيو ١٩٦٧، كان ذلك يضع اللبنة الأولى لذلك اليوم العظيم.

كان رفض الهزيمة بهذا الإصرار والتحدى من جانب الشعب رغم أن سماءنا المكشوفة وأسلحتنا محطمة بمثابة التفويض الذى مكن القيادة السياسية من أن تخطو بشجاعة فى عملية إعادة بناء القوات المسلحة من الصفر تقريباً وعلى أسس علمية سليمة.

وكان صمود شعب مصر وإصراره على رفض الاستسلام هو الذى مكن الأصدقاء والأشقاء من أداء دورهم المطلوب، كل على قدر طاقته ـ إسهاماً فى إنجاز عملية إعادة البناء العسكرى المنهار فى أقصى فترة ممكنة!

وجاءت معركة رأس العش فى أول يوليو ١٩٦٧ أى بعد عشرين يوماً على قرار وقف إطلاق النار لتثبت أن الصمود والتمسك بالأرض وحسن استخدام النيران من جانب قوة صغيرة من رجال الصاعقة المصريين هو النموذج الذى ينبغى أن يحتذى به من الآن فصاعداً رداً على استفزازات الإسرائيليين ومحاولاتهم توسيع خطوط وقف إطلاق النار، فضلاً عن أن هذه المعركة الصغيرة أثبتت عدم تأثير نيران الدبابات على الأفراد المحصنين فى الأرض تحصيناً جيداً، وأن قنابل الطائرات مثل قنابل المدفعية لا تؤثر إلا على فرد واحد أو اثنين فى حالة سقوطها مباشرة عليهما. كما ثبت أن الجندى الذى يملك روحاً معنوية عالية ويتمركز فى موقعه بعناد يستطيع أن يكسب معركته الدفاعية وأن يحدث خسائر كبيرة فى العدو المهاجم .. وكانت هذه كلها عوامل غائبة فى يونيو ١٩٦٧.

ثم كانت المفاجأة المذهلة يوم ١٤ يوليو ١٩٦٧ عندما انطلقت فوق سماء القناة ١٠ طائرات من طراز ميج ١٧ تساندها ١٠ طائرات أخرى على استعداد للدخول فى معركة جوية مع طائرات الميراج الإسرائيلية التى كانت تمارس استطلاعاً يومياً فوق الجبهة ونشبت المعركة وأصيبت طائرتان إسرائيليتان وتكرر الأمر فى اليوم التالى؛ وكانت النتيجة أن قواتنا الجوية نجحت فى أول صراع جوى بعد معركة يونيو ١٩٦٧ أن تستعيد ثقتها بنفسها وفى أسلحتها وأن تبدأ دورها بالاقتدار فى حماية مهمة تشكيلاتنا البرية.

ثم جاء الحدث الكبير في ٢١ أكتوبر عام ١٩٦٧ عندما تصدت لنشات الصواريخ المصرية في منطقة بورسعيد البحرية للمدمرة الإسرائيلية إيلات فأغرقتها وعلى ظهورها ٢٥٠ فرداً بحرياً إسرائيلياً، لتحدث القوات البحرية المصرية بهذه المعركة إنقلاباً في المفاهيم العسكرية العالمية مؤذنة بدخولنا عصر لنشات الصواريخ فقد كانت هذه أول مرة في تاريخ المعارك البحرية يستخدم فيها الصاروخ من لنش صغير ضد سفينة حربية كبيرة، مما أدى إلى إعادة نظر شاملة في الأفكار السائدة في معاهدة العلوم العسكرية على مستوى العالم.

وأوضحت هذه المعارك الثلاث ـ رأس العش في أول يوليو والاشتباك الجوي فوق القناة يومي ١٤،١٥ يوليو وإغراق المدمرة إيلات في ٢١ أكتوبر ١٩٦٧ ـ أن هدف الصمود العسكري قد أصبح واقعاً ملموساً في البر والجو والبحر.

وكان هذا الصمود هو المدخل لبدء مرحلة جديدة هي مرحلة التصدي والتعرض لأي عدوان اعتباراً من مارس ١٩٦٨، وبلغت هذه المرحلة ذروتها في التحول لأعمال الدفاع النشط من خلال اقتحام النقطة القوية في الدفرسوار في أكتوبر ١٩٦٨ ورغم أن هذه الإغارة لم تنجح في الحصول على وثائق أو أسرى ورغم تكبدنا لبعض الخسائر إلا أن هذه الإغارة على موقع حصين ليلاً وفي هدوء أحدث ذعراً في صفوف القوات الإسرائيلية وأعطت قواتنا الثقة في إمكانية العبور بقوات كبيرة والقيام بأعمال قتال مؤثرة.

وكان بدء عمليات الإغارة ضد النقط القوية بمثابة بدء مرحلة جديدة أطلق عليها حرب الاستنزاف التي شهدت معارك لاتنسى مثل معركة لسان بورتوفيق ومعركة الجزيرة الخضراء، ثم عملية الزعفرانة ورادار خليج السويس في إطار الرد الإسرائيلي، ثم عملية جنوب البلاح ثم معركة شدوان، وصاحَبَ كل هذه المعارك تزايد ملحوظ في حجم العمليات الجوية الإسرائيلية ضد قواتنا بشكل عام، وضد أضخم عمل عسكري إنشائي لبناء حائط الصواريخ الذي اكتمل بناؤه تماماً يوم ٣٠ يونيو

١٩٧٠مؤذناً ببدء مرحلة جديدة من مراحل المواجهة لم تعد تملك فيها إسرائيل ميزة التفوق الجوى المطلقة التى كانت تتمتع بها منذ نهاية حرب يونيو ١٩٦٧.

وهنا لابد من وقفة قبل أن نواصل استطراد ومراجعة الجذور الحقيقية لليوم المجيد فى السادس من أكتوبر ١٩٧٣.

لقد كان اكتمال بناء حائط الصواريخ المصرية هو العامل الرئيسى وراء قرار جمال عبدالناصر بقبول المبادرة الأمريكية للحل السلمى فى يوليو ١٩٧٠ والتوقيع على اتفاق وقف النار لمدة ثلاثة شهور اعتباراً من ليلة ٨ أغسطس ١٩٧٠. ثم انتهت فترة الشهور الثلاثة فى ٨ أكتوبر ١٩٧٠ بينما كان جمال عبدالناصر فى ذمة الله.

وكان قبول مصر فى هذا الوقت بالمبادرة الأمريكية هو نقطة البداية الحقيقية للتحرك على طريق الحل السلمى من أرضية الشعور بالقدرة على التصدى والمجابهة والاقتراب من القدرة على الدخول فى مرحلة المواجهة.

ورغم أن هذه المبادرة لم يكتب لها النجاح ولم تحقق شيئاً ملموساً سوى تكريس وقف إطلاق النار إلا أن اندلاع الشرارة فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ غيّر كثيراً من الموازين والمفاهيم، وأعاد من جديد إحياء مناخ التوجه نحو السلام من أرضية أكثر قوة وأكثر منعة من أرضية القبول بالمبادرة الأمريكية لأن حرب أكتوبر لم تثبت فقط القدرة على التصدى والمجابهة وإنما أثبتت القدرة على الانتصار.

وإذن فإن حرب أكتوبر ١٩٧٣ وما صنعته من عزة وكرامة هى التى مكنت من إعادة إحياء جهود السلام والوصول فى النهاية إلى اتفاقيتى كامب ديفيد، اللتين تمثلان استكمالاً لجهود تفاوضية بدأت عام ١٩٧٠ مع اختلاف الأسلوب واختلاف الظرف واختلاف الموازين.

طريق السلام إذن - لكى لايواصل أحد المزايدة عليه - بدأ فى عهد عبدالناصر بقبول المبادرة الأمريكية بعد استكمال حائط الصواريخ، وأنجزه أنور السادات بقراره التاريخى فى أكتوبر ١٩٧٣ ومبادرته الجريئة بزيارة القدس فى نوفمبر ١٩٧٧ والتى

أدت في النهاية إلى توقيع اتفاقيات السلام واستردت مصر بموجبها سيناء، ولم يكن هناك في ظني أو ظن أي وطني أن لنا وراء الحشد والإعداد والصمود والتصدي والعبور والحرب غير استردادها.

ونعود مرة أخرى إلى سياق الأحداث بترتيبها الزمني والموضوعي ونقول أن حائط الصواريخ الذي اكتمل بناؤه في ٣٠ يونيو ١٩٧٠، وشجع مصر لأول مرة منذ عام ١٩٦٧ على القبول علناً وصراحة بالسير في طريق الحل حتى لو كان حلاً أمريكياً، لم يكن سوى ملحمة عظيمة من ملاحم بطولة وتضحية الإنسان المصري ولثبات قدرته وعزيمته على تخطي الصعاب مهما كانت ؟

لقد بنت مصر حائط الصواريخ الرهيب في أقل من عام تحت ظروف بالغة الصعوبة والتعقيد. ولقد تمّ البناء تحت القصف الجوي المركز للطيران الإسرائيلي الذي كان يمرح في سماء مصر بحرية منذ يوليو ١٩٦٩ بعد أن نجح في فتح ثغرة واسعة في وسط الدفاع الجوي ما بين بورسعيد شمالاً والإسماعيلية جنوباً، وأصبح في استطاعته أن يعبر بطيراته خلال هذه الثغرة إلى قلب الدلتا، ليتمكن بعد ذلك من تكثيف غاراته في العمق ويدمر دفاعنا الجوي ويوجه غاراته على الأهداف المدنية.

وكانت الفترة من يناير ١٩٧٠ وحتى ٣٠ يونيو من نفس العام التي شهدت بناء هذا الحائط الرهيب هي الدليل الحي الصادق على معدن صمود الشعب المصري، وهي المدخل الصحيح للتفكير الجاد في القبول بإمكانية العمل من خلال خطة متكاملة لتحدي نظرية الأمن الإسرائيلي في مسرح العمليات، كما أنها كانت المدخل الصحيح للتفكير الواقعي في التحرك على طريق السلام من أرضية الإحساس باستعادة الثقة وتجاوز وطأة الهزيمة.

وبداية التفكير الجاد في تحدي نظرية الأمن الإسرائيلي من مسرح العمليات بدأ العقل المصري يعمل ليل نهار لكي يقهر المستحيل ويتغلب على الصعاب ويحقق النجاح المنشود للعملية الهجومية الواسعة التي زلزلت العالم يوم السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣.

وكانت مشاكل العبور على امتداد مواجهة شاسعة ما بين القنطرة شمالاً وحتى بورتوفيق جنوباً عبر مانع مائي فريد تحتاج إلى خيال فريد من نوعه يتجاوز الحلول التقليدية ويرتقي إلى مستوى الحدث ويوظف الإمكانيات المتاحة في خدمة الهدف المطلوب بأقل قدر ممكن من الخسائر والتكاليف.

ولكي نقدر حجم الإنجاز الضخم لعقل وجهد وتضحية الإنسان المصري ينبغي أن نستعيد مرة أخرى شريط الذكريات لنرى صورة التحديات التي كانت ماثلة أمامنا، وعظمة الإصرار التي قهرت هذا التحدي وذلك المستحيل.

نحن أمام مانع مائي صناعي عرضه يتراوح ما بين ١٨٠ إلى ٢٠٠ متر له أجناب حادة الميل يكسوها دبش وحجارة مما يجعل من الصعب على أية دبابة برمائية أن تعبره.

ونحن أمام سد ترابي على الضفة الشرقية للقناة يبلغ ارتفاعه نحو ٢٠ متراً ويستحيل على أية مركبة برمائية أن تعبر من غرب القناة إلى شرقها إلا بعد إزالة هذا السد.

وعلى امتداد الساتر الترابي أقيم خط بارليف الذي يضم ٣٥ نقطة قوية تتراوح المسافة بين كل منها ما بين كيلو متر إلى ٥ كيلو مترات حسب أهمية المواجهة. وهذه النقطة تم دفنها في الأرض وتقوية سقوفها لتتحمل قصف المدفعية الثقيلة كما أحيطت بحقول ألغام وأسلاك كثيفة وزودت بمزاغل تستطيع أن تغطي سطح القناة بنيران كثيفة.

وفوق هذا وذاك كان لدى الإسرائيليين سلاح للنيران المشتعلة التي جهزوها لإحراق كل من يحاول عبور القناة من خلال مستودعات ضخمة أوصلوا أنابيبها إلى سطح الماء.

وجاء السادس من أكتوبر وإذا بكل هذه المشاكل والصعاب التي دفعت أعظم الخبراء العسكريين في العالم إلى الاعتقاد باستحالة العبور تتهاوى كأوراق الخريف

أمام جسارة المقاتل المصرى الذى نجح فى فتح الثغرات فى الساتر الترابى باستخدام أسلوب التجريف بالمياه، والعبور بالموجات الأولى فى قوارب من المطاط بـأفراد من المشاة تؤمنهم مظلة جوية سبقتهم فى توجيه الضربة الأولى لقواعد ومراكز القيادة الإسرائيلية فى سيناء محدثة الشلل والارتباك المطلوب، ثم بناء الكبارى لعبور الدبابات بينما طلائع المهندسين تزيل حقول الألغام وكتائب الصاعقة تسد مواسير اللهب وتضرب خلف الخطوط تحت غلالة كثيفة ومتصلة من نيران المدفعية.. ولم تكن قد مضت ٢٤ ساعة حتى كان خط بارليف الرهيب قد سقط فى أيدينا ورفرفت أعلام مصر فوق الضفة الشرقية وتمركزت فرق مشاة مصرية برؤوس كبارى تراوح عمقها بين ٨ و ١٠ كيلو مترات.

لقد كانت بحق سيمفونية رائعة اشترك فيها ١٠٠ ألف مقاتل كان لكل واحد منهم دوره، وكانت دليلاً حياً على قدرة الإنجاز، إذا تم التخطيط الجيد والإعداد الكافى والتجهيز النفسى والمعنوى واتخاذ القرار الصحيح فى الوقت الصحيح تحت مظلة المفاجأة واستخدام أساليب الخداع التعبوى والتكتيكى والاستراتيجى.

ويبقى أن أقول : إن حرب أكتوبر كشفت لنا عن كثير من أسباب القوة التى نهملها أحياناً عن جهل أو عن جهالة.

كانت حرب أكتوبر إثباتاً لمصداقية الوجود العربى كأمة واحدة تستطيع أن تصنع المعجزات إذا اتحدت إرادتها.

وكانت حرب أكتوبر تأكيداً لمصداقية الرصيد الضخم لإمكانيات العمل العربى الموحد إذا أحسن استخدام وتوظيف هذه الإمكانيات بنفس درجة استخدام سلاح البترول.

وكانت حرب أكتوبر سبيلاً لإثبات قدرة الإنسان المصرى والإنسان العربى على صنع المستحيل بدءاً من شجاعة اتخاذ القرار ومروراً بعظمة التجهيز والحشد والإعداد ووصولاً إلى روعة الأداء والتضحية.

وكانت جذور حرب أكتوبر حزناً وألماً مكتوماً في الصدور بسبب هزيمة لم يكن المقاتل المصرى مسئولاً عنهـا وكـان مخزون الحزن والألم مخروجـاً بحب الأرض والوطن هو قوة الضغط التى تراكمت على مدى ٦ سنوات .. وجاءت لحظة التفجير المناسبة يوم السادس من أكتوبر لتزيح كل البخار المكتوم والمتراكم.

بالحرب استردت مصر ثقتها بنفسها واستردت اعتبارها أمام العالم وأمام أمتها.

وبالحرب حققت مصر هدفها فى تحرير أرضها واستعادة حقوقها مـن خـلال سـلام عادل تأمل أن تحققه أيضاً لأشقائها العرب.

ولم تكن الحرب هدفاً لمجرد الحرب .. ولكن عظمتها أنها كانت حرباً من أجل السلام !

ولابد أن نذكر بكل الإجلال والعرفان رجال قواتنا المسلحة الذين أدركوا منذ الوهلة الأولى أن ما أخذ بالقوة لن يسترد بغير القـوة. وإننـا إذا لـم نبدأ نحـن بالقتـال لتحريـر ترابنا الوطنى فإن إسـرائيل سـوف تبدأ هـى بالقتال لتكريس احتلالهـا وتحويل حالـة اللاسلم واللاحرب إلى سلام الأمر الواقع.

لابد أن نذكر دور قادة القوات المسلحة الذين تتابعوا علـى حمـل المسـئولية منـذ ١٠ يونيو ١٩٦٧ وحتى ٦ أكتوبر ١٩٧٣ وإليهم يرجـع الفضـل فـى اسـتعادة المقـاتلين لثقتهم في أنفسهم وثقتهم فـى أسلحتهم. ولنذكر هنـا قول المشير أحمد إسـماعيل ـ رحمة الله ـ "أن المقاتل إذا لم يكن واثقـاً مـن نفسـه فلن يحميه أى سـلاح وإذا كـان واثقاً فإن أى سلاح فى يده يحميه".

لم يكن الطريق على القتال مجرد نزهة وإنما كان تدريباً كثيفاً تدفقت خلاله بحور من العرق وبعض قطرات الدم. لأن التدريب كان على ساحات شبيهة بساحة المواجهة المنتظرة. وبواسطة أسلحة القتال الحقيقية وعلى سبيل المثال فإن تدريبات العبور التـى جرت فى منطقة الخطاطبة جرى التجهيز لها لكى تكـون مماثلـة تمامـاً لعملية العبور الحقيقية سواء من ناحية قوة تيار المياه إلى عمق المجرى أو ارتفاع الساتر الترابى.

كان العقل المصري في أوجه تألقه وكانت البدائل تتوالى لصنع ابتكارات جديدة لا تخطر على بال أحد من أجل تذليل كل مصاعب العبور. سواء فيما يتعلق بنوعية الكباري والقوارب المطاطية أو مايتعلق بالمشكلة العويصة للساتر الترابي والتي كان بعض الخبراء الأجانب قد أشاروا باستحالة التغلب عليها بغير اللجوء إلى القنبلة الذرية.

كان العقل المصري هو الذي توصل إلى سحر المضخات المائية القادرة على فتح الثغرات في الساتر الترابي والتي استحالت أمام كل أنواع المدفعية والمفرقعات.

في ذكرى أكتوبر المجيدة لابد أن نستعيد مع أنفسنا بعض ملامح الصورة الرائعة لملحمة العبور، والتي بدأت بالفعل قبل ١٨ ساعة من ساعة الصفر نفسها.

مساء ٥ أكتوبر تسللت دوريات الاستطلاع لكي تلقي نظرة أخيرة على مسرح العمليات ولتتعرف على قرب ما استجد من استحكامات عند النقط الحصينة المنتشرة على طول خط بارليف بامتداد القناة كلها.. وجاءت تقارير هذه الدوريات تؤكد صدق المعلومات المتوافرة لدى جهاز المخابرات الحربية والاستطلاع.

في الثانية و ٥ دقائق قطع راديو القاهرة إرساله ليذيع البيان الأول عن الحرب مشيراً إلى قيام طائرات العدو بقصف مواقعنا، بينما الحقيقة أننا نحن الذين كنا قد بدأنا العملية الكبرى في هذه اللحظة .. أكثر من ألفي مدفع ثقيل بدأت قصفها لمواقع العدو عندما عبرت سماء القناة مائتان وثماني طائرات تشكل قوام القوة الجوية المكلفة بالضربة الجوية الأولى.

وفي ذات اللحظة كان أكثر من ثمانية آلاف مقاتل قد بدءوا النزول إلى مياه القناة واعتلاء القوارب المطاطية والتحرك تحت لهيب النيران نحو الشاطئ الشرقي للقناة والتحرك تحت لهيب النيران بالمقاومة الرهيبة من جانب الإسرائيليين داخل النقط الحصينة.

ثم بدأت عمليات نصب الكباري بواسطة سلاح المهندسين الذى استشهد نائب مديره اللواء أحمد حمدى فى الساعات الأولى من الحرب.

وبينما كانت الدبابات تعبر على الكباري متجهة نحو رمال سيناء بعد أن تم فتح الثغرات في الساتر الترابي كانت القوات البحرية المصرية تنطلق من قواعدها فى البحر الأبيض المتوسط وفى البحر الأحمر لضرب الأهداف الإسرائيلية المحددة "بدر" في حين تولت طائرات الهليوكوبتر أصعب المهام في إنزال القوات الخاصة من رجال الصاعقة في عمق سيناء وخلف الخطوط الأمامية للإسرائيليين لنسف خطوط الإمداد وعرقلة الهجمات المضادة. وإبلاغ مركز العمليات الرئيسي بأية تحركات فى العمق وعندما انتصف ظهر يوم الأحد ٧ أكتوبر عام ١٩٧٣ كان العبور قد أصبح حقيقة لاتقبل الشك، وكانت القوات المسلحة المصرية قد استطاعت بعمل بطولي مجيد أن تؤكد وجودها على امتداد الشاطئ الشرقي لقناة السويس بـــ٥ فرق كاملة تولت على الفور ودون إبطاء مهمة تدمير خط بارليف والنقط الحصينة المتناثرة على امتداده.

ولم يكن يوم العبور يعنى استخراج شهادة ميلاد جديدة لأمتنا العربية فحسب، وإنما كان أيضاً بمثابة بداية الإفاقة من لحظة الغيبوبة التي دامت نحو ٦ سنوات و ٤ شهور وصدقنا خلالها خرافات عديدة تحت وطأة الإحساس المهين بالهزيمة في يونيو ١٩٦٧.

كان العبور إعلاناً واضحاً وصريحاً بسقوط خرافة الجندي الإسرائيلي الذى لايقهر وبروز الحقيقة التاريخية التي طمستها الهزيمة وهي أن الجندي المصرى يعتبر من أشجع جنود العالم وأكثرهم جسارة وصلابة وصبراً وقدرة على قهر المستحيل.

وكان العبور تأكيداً لأهمية الإعداد والتخطيط تحت أقصـى درجات السرية بعكس ماحدث عام ١٩٦٧ عندما توجهنا إلى ساحة القتال دون إعداد أو تخطيط أو تمويه أو خداع على المستويين التكتيكي والاستراتيجي .

ولكن الأهم من ذلك كله أن هذا النجاح المذهل في تنفيذ عملية العبور هو الذى مهد الأجواء للعمل السياسى الجاد من أجل حل أزمة الشرق الأوسط.

ومهما اختلفت الآراء في الوسائل والأساليب التي جرى إتباعها لاستثمار نتائج حرب أكتوبر، إلا أن الحقيقة التي لايمكن أن تكون محل خلاف من أحد هي أن العبور كان خطاً فاصلاً بين تاريخيين.

لقد انتهى الجمود وزالت حالة اللاسلم واللاحرب المقيضة. واستعاد العرب احترامهم أمام العالم كقوة تقدر على الحركة وتستطيع القتال وتملك إرادة الانتصار.. وسقطت إلى الأبد حجة إسرائيل الواهية حول الحدود الآمنة.

في ذكرى أكتوبر لابد أن نستعيد مع أنفسنا بعض ملامح الإعداد والتخطيط الدقيق فربما نستطيع أن نستلهم روح أكتوبر في الإعداد والتخطيط الدقيق المطلوب لعديد من مشاكلنا التي تتضاءل في حجمها أمام حجم التحدي الكبير الذي كنا نواجهه قبل حرب أكتوبر.

إن اختيار يوم السادس من أكتوبر العاشر من رمضان لم يكن عملاً عشوائياً وإنما كان علماً ودراسة شملت حسابات فلكية ودراسات بحرية واعتبارات نفسية.

كان علماء الفلك مطالبين بتحديد أفضل ليلة يبدأ فيها القمر نموه مع قدوم الظلام ثم يغيب في آخر الليل.

وكان علماء البحار المتخصصون في دراسة التيارات المائية مطالبين بحساب أفضل أيام السنة التي تصل فيها سرعة التيار إلى الدرجة التي تتناسب وإمكانية التجديف بالقوارب المطاطية إلى الشرق في أسرع وقت ممكن.

ثم كانت مهمة خبراء الخداع التكتيكي والاستراتيجي في تضليل العدو بعيداً عن ذلك اليوم الذي أجمعت عليه دراسات علوم الفلك والبحار والنفس وهو يوم السادس من أكتوبر العاشر من رمضان الموافق ليوم ذكرى لأول معركة في الإسلام وهي معركة بدر الكبرى.

وأستشهد هنا بما قاله الجنرال الإسرائيلي ناركيس نائب القائد العام للجبهة الجنوبية (سيناء) في ثالث أيام الحرب: "لابد أن نشهد للمصريين بحسن تخطيطهم .. لقد كانت

خطتهم دقيقة وكان تنفيذهم لها أكثر دقة.. لقد حاولنا بكل جهدنا عرقلة عملية العبور وصدها بالقوة وردها على أعقابها .. لكننا ما كدنا نتمثل ماحدث إلا وقد تحققت لهم نتائجه .. كأننا أغمضنا عيوننا وفتحناها فإذا هم قد انتقلوا تحت النار من غرب القناة إلى شرقها وفاجئونا صباح يوم السابع من أكتوبر بخمس فرق كاملة أمامنا على الشاطئ الشرقي لقناة السويس".

واستشهد أيضاً بما قاله قائد الجبهة الجنوبية للجنرال جونين : "لقد كانوا يتقدمون موجات بعد موجات .. كنا نطلق النار عليهم ويتقدمون .. كنا نحيل ما حولهم جحيماً ويتقدمون .. كان لون القناة قانياً بلون الدم وهم يتقدمون".

أى إعجاز هذا الذى جعل المتغطرسين من قادة إسرائيل المفتونين بنصرهم عام ١٩٦٧ يعترفون – اضطراراً – بعظمة التخطيط وجسارة التنفيذ ..

كانوا يعيشون وهم الجيش الذى لايمكن أن يتعرض لهزيمة مهما كانت الظروف، والقادر على الصمود مهما كانت التحديات لأنه أقوى من كل الجيوش العربية مجتمعة ولديه القدرة على هزيمتها واحد بعد واحد.

وكانوا يعيشون وهم القدرة على استمرار امتلاك زمام المبادرة والقدرة على نقل مسرح العمليات إلى الأرض العربية المحيطة بإسرائيل.

ولكن فوجئوا بما لم يكن فى حسبانهم على الإطلاق !

فوجئت إسرائيل بهجوم على طول خط المواجهة فكانت الحيرة والعجز عن تحديد مكان الضربة المضادة التى اعتادت توجيهها لإجهاض أى هجوم عربى ضدها.

وفوجئت إسرائيل بنوعية المقاتل المصرى وجسارة الاندفاع فى عملية العبور وسط النار والتقدم نحو المواقع الحصينة لاقتحامها بالجسد قبل السلاح.

وفوجئت إسرائيل بمارد جديد يتمثل فى القوات الجوية التى استطاعت فى ضربتها الأولى أن تجعل من سيناء منطقة معزولة تماماً عن إسرائيل لايعرف أحد فى قيادة

الجيش الإسرائيلي في "تساهال" ماذا يدور فيها على مدى الساعات الخامسة التي تمت خلالها عملية العبور.

وكان ذلك يشكل في مجموعه أقسى وأصعب مفاجأة تعرضت لها إسرائيل في تاريخها وأدت إلى تلاشي واجهة الغرور التي كانت تتباهى بها أمام العالم وأن تطلب العون والنجدة من أمريكا حتى لاتواجه خطر الفضيحة من الهزيمة الكاملة.

وكان ذلك هو الذي غير مسار الحرب وقتها ! وإن لم يمس نتائجها الأساسية والحاسمة التي تحققت مع عملية العبور لصالح انتصارنا.

لقد أزلنا الهزيمة وسحبنا منهم ادعاء النصر !

وكنا نحن الذين تقدمنا واقتحمنا وكانوا هم الذين تقهقروا وتراجعوا !

في ذكرى أكتوبر لابد أن نستعيد مع أنفسنا بعض ملامح التضامن العربي الذي أعاد لنا احترام العالم ووضعنا - يومها - في مصاف القوى الدولية الكبرى.

وهذا التضامن العربي لم ينشأ - يومها - من فراغ وإنما كان نتاج استراتيجية واضحة المعالم محددة الأهداف.

كان هناك تنسيق وتخطيط سياسي وعسكري مشترك بين مصر وسوريا على أعلى المستويات وعلى أكبر قدر من السرية والكتمان.

وكان هناك تنسيق سياسي مسبق مع معظم الدول العربية وفي مقدمتها الدول البترولية التي لم تتردد لحظة عن استخدام سلاح البترول عندما حان الوقت الملائم لاستخدامه.

وإذا استثنينا بعض المواقف العربية غير المسئولة - إبان حرب أكتوبر - فإننا نكتشف على الفور أننا كنا - يومها - أمة على مستوى المسئولية وعلى مستوى التحدي فقد غاب الشك وحل محله ثقة مطلقة في الأهداف والوسائل التي ستقوم بها الطليعة المسلحة في مصر وسوريا واختفت أزمة عدم التصديق التي كانت بين النتائج السلبية لهزيمة يونيو ١٩٦٧.

وعندما دارت عجلة الحرب وظهرت ملامح المعجزة وتأكدت حقيقة العبور لم يسمع أحد في الأمة العربية صوتاً لأحد من المزايدين الذين يتكلمون ولايفعلون ويتفلسفون فيما لايعرفون.

ومن قلب هذه الأرضية العربية المتماسكة بدأ دوران عجلة الحل السياسة في إطار مفاهيم ومعتقدات جديدة كان محتماً على إسرائيل أن تقبل بها وأن ترضخ !

وعلى مدى ١٦ عاماً متصلة واصلت مصر جني ثمار حرب أكتوبر، والتي كان آخرها استعادة طابا.

لم يكن انسحاب إسرائيل في إطار اتفاقيتي فك الاشتباك إلا تعبيراً عن موازين القوى التي أحدثتها حرب أكتوبر.

ولم يكن انسحاب إسرائيل من سيناء في إطار اتفاقية السلام إلا تعبيراً عن إدراك إسرائيل للثمن الباهظ الذي دفعته في حرب أكتوبر.

ولم يكن القبول ـ طواعية ـ بقرار التحكيم بشأن طابا إلا تعبيراً عن الرغبة في عدم السماح بتكرار الزلزال الرهيب الذي هز أرجاء إسرائيل كلها من أجل شريط ضيق من الأرض أكدت كل الوثائق والمستندات التاريخية عدم أحقيتهم فيه.

وقد كان بالإمكان أن تجني الأطراف العربية الأخرى ثماراً مماثلة للثمار التي جنتها مصر بفضل حرب أكتوبر.

ولكن ملابسات كثيرة وتناقضات عديدة وقصوراً يتحمل مسئوليته الجميع أدت إلى انفراط العقد العربي ١٠ سنوات متصلة تقريباً كانت نتيجة مريرة على الجميع بغير استثناء، ولا أريد ذكرها لكي لا أنكأ جراحاً قديمة نحن في غنى عنها الآن !

وأحسب أننا اليوم قد نجحنا في تصحيح ما وقع من أخطاء، وبدأنا من جديد مسيرة عمل وتضامن مشترك بعودة مصر إلى موقعها الطبيعي.

لقد انطفأت نيران حرب الخليج وخرج العراق منها سالماً منتصراً !

وبدأت تظهر في الأفق إمكانات ــ ولو ضئيلة ــ لنجاح الجهد العربي في احتواء الأزمة اللبنانية.

ومازالت تتواصل ــ للعام الثاني على التوالي ــ أعمال البطولة والفداء من شعب الانتفاضة الذي ينبغي أن يحصل على كل أنواع الدعم والتأييد من العالم العربي.

ولست أبالغ إذا قلت أن الانتفاضة هي السلوك العربي الوحيد ــ منذ عام ١٩٧٣ وحتى الآن ــ الذي يجسد روح أكتوبر تجسيداً عملياً.

وعلينا أن نحمي الانتفاضة وشعبها من الانكسار لكي تتواصل قدرتهم على قبول المخاطر وتقديم التضحيات.

ولنتذكر جيداً أن السلام لاتصنعه النيات الحسنة وحدها.

وقد حصلت مصر على أرضها وسلامها بدماء شهدائها في ٦ أكتوبر !

وسوف يحصل الفلسطينيون على الأرض والسلام بدماء شهداء الانتفاضة ولكن بشرط أن يتواصل العمل دون يأس أو ملل.

سيناء مصرية كاملة :

مع حلول صباح يوم الاثنين ٨ أكتوبر بدأت الحرب تأخذ شكلاً جديداً وأبعاداً جديدة إذ لم يعد هناك أدنى شك في السيطرة المصرية على الشاطئ الشرقي للقناة ونجاح القوات المصرية في تثبيت رءوس الشواطئ المتقدمة إلى عمق وصل في بعض القطاعات إلى ١٢ كيلو متراً.

وضماناً لاستمرار تملك زمام المبادأة فقد انطلقت في السادسة و ٥ دقائق صباحاً مجموعة كبيرة من الطائرات المصرية هاجمت المواقع الإسرائيلية في عمق سيناء استهدفت في هجومها مطاري المليز وبيرثمادا حيث تمكنت من تدمير جميع الممرات والملاجئ وميسات الضباط وعنابر الجنود وتحول المطاران إلى كومة من الرماد المحترق واضطرت إسرائيل ازاء عنف الهجوم إلى الاعتراف بنتائجه وإعلان إغلاق المطارين تماماً.

وعندما كانت الطائرات المصرية فوق مطاري المليز وبيرتمادا كل ما عليهما من طائرات ومعدات كانت مجموعة أخرى من الطائرات المصرية تقصف بعنف بالغ وبتركيز شديد مركز القيادة والتوجيه والشوشرة والإعاقة في أم مرجم وأم خشيب اللذين كان الإسرائيليون يحاولون بشتى الوسائل إعادة تشغيلها بعد الضربة الجوية الأولى في الحرب، وقد صادف توقيت الهجوم المصري على أم مرجم وأم خشيب أن جموعاً كبيرة من المهندسين والفنيين والعمال الإسرائيليين كانوا قد بدءوا يتوهم محاولة الإصلاح وتشغيل هذين المركزين فقتل معظمهم وجرح البعض الآخر وظل أم مرجم وأم خشيب معطلين تماماً حتى إقرار وقف إطلاق النار وانتهاء الحرب.

وقد حاولت الطائرات الإسرائيلية التصدي للطائرات المصرية في طريق عودتها ودارت معركة جوية خسر الإسرائيليون فيها عدداً من الطائرات وعادت جميع الطائرات المصرية إلى قواعدها سالمة عدا ٤ طائرات، وكانت هذه أكبر طلعة جوية منذ طلعة العبور الأولى.

ولم يكن قرار استثمار امتلاك زمام المبادأة الذي اتخذته القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية في ثالث أيام الحرب مقصوراً على النشاط الجوي فقط وإنما شمل كذلك بداية أول هجوم بري منظم للقوات المصرية شرق القناة لاكتساب مزيد من الأراضي ولانتخاب أفضل مواقع لرءوس الكباري التي سوف يتم تثبيت تقدم القوات المصرية عندها في الوقفة التعبوية.

ولهذا فمنذ السادسة صباح يوم الاثنين "٨ أكتوبر" بدأ هجوم مصري واسع على محورين رئيسيين أولهما في اتجاه المحور الأوسط وقامت به قوات الفرقة ١٦ مشاة بقيادة اللواء عبد رب النبي حافظ بينما تولت الفرقة السابعة مشاة بقيادة اللواء أحمد بدوي مهمة تأمين الجانب الأيمن لهجوم المحور الثاني باتجاه متلا وتولت الفرقة الثانية مشاة بقيادة اللواء حسن أبو سعده تأمين الجانب الأيسر لهجوم المحور الأوسط.

وقد استطاع الهجوم المصري على هذين المحورين أن يزيد من ارتباك القيادة الإسرائيلية التي كانت لاتزال حائرة في تفسير أهداف اتجاهات الهجوم المصري رغم

مرور ثلاثة أيام على بدء القتال، وخلال تقدم الفرقة ١٩ مشاة في اتجاه متلا دخلت في معارك عنيفة مع مفارز القوات الإسرائيلية التي تم دفعُها لمشاغلة القوات المصرية ومحاولة وقف تقدمها وإجبارهـا إما على التقهقر خلفاً أو الانحراف يميناً أو يساراً للوقوع في كمائن حقول ألغام الدبابات التي أقامتها القوات الإسرائيلية، وهو نفس الأسلوب الذي اتبعته القوات الإسرائيلية في مواجهة الهجوم المصري على المحور الأوسط، ولكن دون جدوى فقد فشلت محاولة إيقاف التقدم المصري على المحورين وخسرت إسرائيل في هذه المعارك ٤٨ دبابة، ١٩ عربة مصفحة، ٤٥ أسيراً، مئات من القتلى والجرحى.

ومن المؤكد أن نتائج هذه المعارك الضارية في سيناء كان يتم إبلاغها أولاً بأول إلى رئاسة الأركان الإسرائيلية في "تساهال" وهو ماساعد على زيادة حدة عدم الاتزان في تفكير القيادة العسكرية الإسرائيلية وانعكس ذلك بوضوح على قراراتها القتالية التي اتسمت في معظم الأحيان بالتهور والاقتراب من مرحلة اليأس الكامل.

فعند الظهر قام تشكيل من الطائرات الإسرائيلية قوامه ٧٦ طائرة بمحاولة يائسة لاختراق شبكة الدفاع الجوي المصري في القطاع الشمالي مستغلاً طبيعة الكثافة المحدودة للصواريخ المصرية في منطقة بورسعيد، ولم تمكث الطائرات الإسرائيلية في السماء المصرية سوى ٣ دقائق فقط خسرت خلالها ٢٦ طائرة فانتوم وسكاي هوك و ٥ طائرات هليكوبتر كانت مخصصة لنجدة الطيارين الذين سقطوا فوق مياه البحر الأبيض المتوسط بالإضافة إلى ٤ طيارين آخرين وقعوا أسرى في أيدي القوات المصرية.

ولقد كان أهم عوامل النجاح في هذه المعارك الجوية القصيرة أن القيادة المصرية فاجأت الطيران الإسرائيلي للمرة الثانية بما لم يكن في حسبانه إطلاقاً وهو ذلك التنسيق الدقيق بين تشكيلات الصواريخ والتشكيلات الجوية المصرية بدقة انضباط تصل إلى جزء من الثانية، فعندما كانت الطائرات الإسرائيلية تتأكد من خلو السماء من طائرات مصرية وتأخذ أوضاع القصف ضد شبكات الصواريخ كانت تفاجأ قبل

أن تطلق نيرانها بأن الطائرات المصرية قد ركبتها، وفي هذه الحالة إما أن تتمكن الطائرات المصرية من إسقاط الطائرات الإسرائيلية وتدميرها أو أن تدفعها للهرب لتدخل في منطقة قتل أخرى للصواريخ المصرية التي تكون غير مقيدة في هذه الحالة.

ومرة أخرى فقد كانت نتائج هذه المعركة الجوية دافعاً لمزيد من التهور والقلق داخل القيادة العسكرية الإسرائيلية فبعد غروب شمس يوم الثالث للحرب دفعت إسرائيل بعدد من الطائرات قامت بقصف المباني والمنشآت المدنية في بورسعيد بعنف وتركيز شديدين أسفر عن سقوط عدد كبير من الضحايا المدنيين.

وكان ذلك من وجهة نظر القيادة السياسية المصرية يعني أن الحرب بدأت تأخذ أبعاداً جديدة حتى ولو كان ماحدث فوق بورسعيد مجرد علامة من علامات اليأس في إسرائيل.

وأذكر الآن كيف أمر الرئيس السادات مركز قيادة عمليات القوات المسلحة بإصدار تحذير فوري لإسرائيل، وعلى الفور قطعت الإذاعة المصرية برامجها في العاشرة مساء "٨ أكتوبر" لتذيع البيان العسكري رقم "١٧" الذي تضمن التحذير المطلوب.

وقد جاء ذلك الإعلان عن هذا التطور الخطير في مسار الحرب من جانب إسرائيل بعد ٥٠ دقيقة من إعلان مصر عن رفع العلم المصري فوق مدينة القنطرة شرق التي نجحت قوات الفرقة ١٨ مشاة بقيادة اللواء فؤاد عزيز غالي وفي تحريرها بعد عمليات قتالية واسعة من بيت إلى بيت ومن شارع إلى شارع، وقدم المواطنون المصريون فيها مساعدة فعالة للقوات المصرية منذ بدء الهجوم على المدينة وحصارها وحتى إتمام تحريرها، وكان من بين ما أسفرت عنه عملية تحرير القنطرة شرق هو استسلام مجموعة من الجنود الإسرائيليين رفعوا الأعلام البيضاء بعد أن وجهت لهم قوات الحصار المصرية إنذاراً بالتسليم أو تدمير مبنى المحافظة عليهم حيث كانوا يحتمون به. وفضلاً عن ذلك فإن تحرير القنطرة كان يعني سقوط آخر وأهم جيوب المقاومة الإسرائيلية الفعلية على الشاطئ الشرقي للقناة.

وبانقضاء اليوم الثالث للحرب كانت الصورة قاتمة تماماً في إسرائيل حيث عجزت قواتها عن وقف التقدم المصري في سيناء واضطرت إلى الإعلان رسمياً أنها قد انسحبت من مواقعها الحصينة على طول القناة إلى خط دفاع جديد تم إعداده في مواجهة ثلاثة من رءوس الجسور المصرية الرئيسية، ومن الغريب أن هذا الإعلان الرسمي الإسرائيلي جاء بعد ساعات قليلة من بيان المتحدث العسكري الإسرائيلي أعلن فيه تمكين القوات الإسرائيلية من احتواء الهجوم المصري وتطويق قواته !

وإزاء هذا الانهيار الإسرائيلي في جبهة سيناء بدأ في واشنطن نشاط أمريكي محموم لوقف الكارثة، واستخدم الرئيس نيكسون الخط الأحمر الساخن في اتصال تليفوني مع ليونيد بريجنيف سكرتير عام الحزب الشيوعي السوفيتي يطلب تأييد الجهود الأمريكية لوقف القتال، وفي نفس اللحظة كان المندوب الأمريكي في مجلس الأمن الذي انعقد في جلسة طارئة يطرح طلباً غريباً يدعو فيه إلى وقف القتال فوراً وعودة القوات المتحاربة إلى خطوط ٦ أكتوبر، ونسي المندوب الأمريكي أو تناسى موقف زميله السابق أرثر جولدبرج خلال حرب يونيو ١٩٦٧ عندما عارض باسم الولايات المتحدة اتجاهاً عاماً في مجلس الأمن يدعو إلى وقف القتال وعودة القوات المتحاربة إلى خطوط يونيو ١٩٦٧.

لقد كان موقفاً أمريكياً غريباً أوضح أن الأمريكيين كانوا حتى هذه اللحظة يعيشون وَهْم القوة والتفوق الإسرائيلي، وأعتقد أنهم بدأوا في إعادة حساباتهم من جديد من صباح اليوم الرابع للحرب حيث كان موعد انتهاء المهلة التي طلبتها إسرائيل لتحطيم القوة العسكرية العربية.. غير أن ماحدث في اليوم الرابع جاء على عكس ماقدرت إسرائيل وماصدقت أمريكا !

خلال الأيام الأولى لحرب أكتوبر كان إحساس عارم قد سيطر على القادة الإسرائيليين بأن وجود الدولة الإسرائيلية قد أصبح في خطر حقيقي وساعد على تعميق ذلك الإحساس أن إسرائيل عاشت وضعاً حرجاً في الجبهة السياسية أيضاً منذ نشوب الحرب وحتى اليوم فإسرائيل معزولة تماماً تقريباً في الساحة الدولية ومعتمدة

بصورة مطلقة على حسن نية الولايات المتحدة الأمريكية ومعظم الدول الإفريقية قطعت علاقاتها بها وحكومات دول أوروبا الغربية التي تخلت عن تحيزها التقليدي لإسرائيل وبدأت حواراً إيجابياً مع العرب.

انهار خط الدفاع السياسي لدولة إسرائيل بقوة عندما سقط خط بارليف في سيناء وترك سقوط الخط السياسي إسرائيل مكشوفة وعارية بعد أن انفضحت سياستها وكان الإفلاس السياسي لحكومة إسرائيل ساحقاً ومطلقاً ومأساوياً !

ولهذا فإن إسرائيل عندما واجهت خطر الزوال بفعل الهجوم العربي الكاسح وواجهت محنة العزلة الحقيقية في الساحة الدولية بعد انكشاف حقيقة نواياها وأهدافها لم يكن لها من سبيل للنجاة من المصير الذي يتربص بها سوى النجدة الأمريكية السريعة من السلاح عبر جسر جوي كان ينقل المعدات إلى أرض القتال ذاتها، وأيضاً فإن الولايات المتحدة هي التي شكلت لإسرائيل حائط الصد والحماية في مواجهة العزلة الدبلوماسية الدولية.

في يوم السبت ٦ أكتوبر الساعة ٩,١٥ صباحاً "بتوقيت نيويورك" دق جرس التليفون في غرفة وزير الخارجية الإسرائيلي في فندق "بلازا" بنيويورك وكان هنري كيسنجر على الخط للمرة الثالثة ذلك الصباح.

قال كيسنجر : "سيد إيبان تلقيت في هذه اللحظة نبأ من المخابرات المركزية الأمريكية أن معارك تدور في منطقة قناة السويس إنني أفترض أنكم لستم البادئين".

أجاب إيبان : " أمل أنه لم يكن هناك أي عمل غير مسئول وكما قلت لك سابقاً لم يكن في نيتنا بدء حرب وقائية وسأفحص الأمر وأخبرك حالاً " وقد أدى جواب أبا إيبان المرتبك في اليوم الأول للحرب إلى عدم تفهم استمر بضع ساعات واعتقد الأمريكيون طوال ذلك الوقت أن إسرائيل هي التي بدأت الحرب.

وكانت المفاجأة بالنسبة لأبا أيبان أيضاً تامة فقد سمع وزير الخارجية الإسرائيلي أول مرة قبل ساعتين ونصف فقط بأنه من المتوقع أن تندلع حرب في الشرق الأوسط

وفي ذلك الصباح من يوم الغفران وفي الساعة ٦,٠٠ دق جرس التليفون في غرفة ايتان بن تسور مستشار وزير الخارجية الذى كان يرافقه في رحلته إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة وكان صوت المتحدث رجل القنصلية الإسرائيلية في نيويورك يرتجف وهو يقول :

"وصلت برقية مذعورة جداً للوزير. إننا نرسلها إليكم فوراً" وكانت البرقية موقعة من الوزير الإسرائيلي جاليلي وقد قرأها بن تسور بصورة سريعة ثم سارع إلى البحث عن وزير الخارجية. وجاء في البرقية أن أنباء وثيقة تشير إلى خطر قيام مصر وسوريا بهجوم منسق على إسرائيل مع حلول المساء مساء يوم السبت وطلب من أبا إيبان الاتصال فوراً بهنري كيسنجر وزير الخارجية وإبلاغه بمضمون الخبر وطلب منه التوسط لدى المصريين ليمنعهم عن القيام بعمل عسكري.

حاول بن تسور الاتصال بأبا إيبان هاتفياً من داخل الفندق، بإبلاغه بمضمون البرقية بيد أن أبا إيبان الذى أراد أن يقضي صباح يوم الغفران في سريره كان قد قطع التليفون وراح يغط في نوم عميق وبعد أن دق بن تسور على الباب وهو يائس خلال ربع الساعة استيقظ أبا إيبان وخرج لمعرفة مايجري وقال آبا إيبان بعد أن أنهى قراءة البرقية "أطلب لي كيسنجر بصورة مستعجلة، وحتى لحظة استلام البرقية لم يعرف آبا إيبان الذى غادر إسرائيل يوم ٢٧ سبتمبر أن هناك خطر اندلاع الحرب ولم يعرف أيضاً أن وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية تلقت قبل ذلك بيومين أى يوم الخميس تقويماً من عناصر الاستخبارات الإسرائيلية جاء فيه أن من غير المتوقع أن تنشب حرب في الشرق الأوسط، وفي مساء اليوم السابق يوم الجمعة ٥ أكتوبر وصلت إلى آبا إيبان رسالة من إسرائيل طلب فيها إليه الاجتماع بكيسنجر لتسليمه مظروفاً يحتوى على مادة مهمة وصلت من إسرائيل وآبا إيبان الذى لم يكلف حتى نفسه باطلاعه على محتوى المظروف ـ أعلن فوراً أنه لايستطيع مقابلة كيسنجر لأنه حدد مقابلات خلال تلك الساعة مع عدد من وزراء الخارجية الذين يحضرون الجمعية

العامة للأمم المتحدة ولم ير آبا إيبان الحريص على قضايا المراسم سبباً لإلغاء المقابلات.

ولذا تم الاتفاق على نقل المظروف المستعجل مباشرة إلى مكتب كيسنجر في واشنطن لكي يرسل من هناك إليه في نيويورك.

وكان المظروف ـ الذي لم يعرفه آبا إيبان محتوياته ـ يتضمن تحليلاً جديداً للموقف تم فيه الإعراب عن التحفظ حيال الجزم السابق المشترك بين المخابرات الأمريكية والمخابرات الإسرائيلية بأن العرب لن يبدءوا الحرب، وجاء في المظروف الذي نقل إلى كيسنجر بعد ذلك أنه على الرغم من التأهب الدفاعي للقوات المصرية والسورية هناك إمكان لبدء العرب للقتال لكن هذا المظروف لم يصل إلى وجهته في اليوم نفسه "الجمعة" على الرغم من جميع الجهود فقد سلم إلى كيسنجر في صباح اليوم التالي فقط مع مادة خلفية أعدتها له المخابرات الأمريكية ووزارة الخارجية، وعندما أيقظوه من نومه في نيويورك سلموه أيضاً البرقية التي وصلت في تلك الأثناء من تل أبيب من سفير الولايات المتحدة (كينث كيتنج) وقد بعث السفير في برقيته تقريراً عن اجتماعه بجولدا مائير رئيسة الحكومة الذي عقد في مكتبها في تل أبيب في صباح يوم الحرب وقد أبلغته في هذه المناسبة أنه بناء على أنباء موثوق بها وصلت إلى حكومة إسرائيل سيبدأ المصريون والسوريون الحرب هذا المساء وكما يبدو في الساعة السادسة بعد الظهر وطلبت جولدا مائير من السفير الأمريكي أن ينقل ذلك فوراً إلى البيت الأبيض.

سأل السفير: "هل تريدون توجيه ضربة وقائية قبل أن يهاجموكم؟".

قالت مائير: "كلا كلا في أي حال من الأحوال أرجو أن توضح ذلك للسيد كسينجر".

وبعد أن اطّلع كيسنجر على تقرير سفيره في إسرائيل تلقى مكالمة تليفونية من آبا إيبان طلب فيها منه التدخل لدى المصريين والسوريين لثنيهم عن بدء الحرب بيد أن كيسنجر كان لايزال غير مقتنع بأن العرب هم الذين سيبدأون القتال وقد اعتمد على

تقرير قدم إليه ـ ثبت في وقت لاحق فقط أنه عملية تضليل ناجحة ـ وبموجبه أن الروس ينقلون مستشاريهم من سوريا ومصر خوفاً من أن تكون إسرائيل هي البادئة بالهجوم، وبعد جهود كثيرة استطاع كيسنجر أن يتصل تليفونياً بمحمد حسن الزيات وزير الخارجية المصري الذي كان في نيويورك لحضور اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة وقال له الوزير المصري أنه لايعرف شيئاً عما يجري وأنه سيتقصى الأمر وطلب كيسنجر من الزيات إبلاغ مصر بأن إسرائيل حصلت على خطط التأهب لهجوم مصري وأنه يطلب من مصر الامتناع عن القيام بعمل عسكري، وبعد حديثه مع الوزير المصري أجرى كيسنجر بين الساعة ٧ والساعة ٨ صباحاً عدة محادثات تليفونية مع الرئيس نيكسون الذي كان موجوداً في ذلك الوقت في منزله في كي بيسكين في فلوريدا وقد أبلغ الرئيس أن الوضع في الشرق الأوسط على حافة الانفجار وأنه يحاول التأكد مما إذا كان الروس متدخلين في هذا الأمر بصورة فعالة، وقد أمر نيكسون بإقامة فريق عمل خاص على الفور يتكون من ممثلي وزراء الخارجية والبنتاجون ووكالة المخابرات المركزية ورؤساء أركان حرب القوات المسلحة، وقد بدأ هذا الفريق يعمل منذ صباح يوم السبت برئاسة كيسنجر وأقيمت في البيت الأبيض في فلوريدا أيضاً قيادة طوارئ خاصة يرأسها الجنرال ألكسندر هيج الذي كان على اتصال دائم مع هنري كيسنجر.

في التاسعة صباحاً " ٣ بعد الظهر بتوقيت إسرائيل" تلقى كيسنجر خبراً من وكالة المخابرات المركزية يفيد أن المعارك على امتداد قناة السويس قد بدأت وأن الطائرات المصرية تهاجم المراكز الإسرائيلية في سيناء، وبما أنه بحسب التقارير الإسرائيلية كان المصريون سيهاجمون في السادسة بعد الظهر تولد لدى كيسنجر انطباع بأن مايجري عملية وقائية إسرائيلية جاءت لكي تسبق الهجوم المصري.

عندما علم كيسنجر بنشوب المعارك اجتمع بأبا إيبان في نيويورك ثم طار بعد ذلك على الفور إلى واشنطن لكي يترأس فريق العمل ومن واشنطن تحدث كيسنجر مرة أخرى تليفونياً عن تقدير إسرائيل للوضع العسكري وسأل كيسنجر : "كم يوماً

تحتاجون لكي تتغلبون على هذا الوضع؟" وقد قيل في الجواب بعد التشاور مع جولدا مائير تليفونياً في تل أبيب: "أن الحرب ستنتهي خلال مدة تتراوح بين أربعة أو خمسة أيام" ولم يفاجأ كيسنجر فقد اتفق هذا الكلام مع تقرير البنتاجون الذي قدمه منذ صباح يوم الحرب الأدميرال توملس مورير رئيس أركان القوات المسلحة إلى فريق العمل الخاص كما أن البرقيات الأولى التي وصلت إلى آبا إيبان وزير الخارجية من الوزير إسرائيل جاليلي تحدثت عن صد الهجوم وعن دخول القوات الإسرائيلية بسرعة إلى أقصى درجات التأهب وكانت البرقيات من إسرائيل متفائلة وخلال يومين لم تتبلور لدى ممثلي إسرائيل في الولايات المتحدة الصورة الواضحة عن الوضع وفقط خلال المحادثات التي أجراها آبا إيبان مع أبراهام كدرون مدير عام وزير الخارجية سمعت للمرة الأولى إشارات إلى أن الوضع في الجبهات أصعب وأخطر كثيراً مما عكست التقارير الرسمية.

في يوم الأحد ٧ أكتوبر زار مردخاي شتيف الوزير المفوض الإسرائيلي وزارة الخارجية الأمريكية واجتمع بجوزيف سيسكو نائب وزير الخارجية وطلب الاطلاع على الاستنتاجات التي توصل إليها فريق العمل الأمريكي وأوضح بصورة قاطعة ومحددة أن إسرائيل ستكون بحاجة إلى إمدادات متواصلة من المعدات العسكرية في أقرب وقت كما أن سمحا دينتيز السفير الإسرائيلي أثار مشكلة تزويد إسرائيل بالمعدات والأسلحة خلال محادثاته الأولى مع كيسنجر بعد عودته من تل أبيب مباشرة في الليلة ذاتها.

وقبل مساء يوم الاثنين ٨ أكتوبر اجتمع فريق العمل الأمريكي في جلسة أخرى وبدأت التقارير من ساحة القتال هذه المرة مريرة من الناحية الإسرائيلية وقد اتضح لأول مرة أن المصريين استطاعوا السيطرة على جميع التحصينات على امتداد القناة وأن السوريين احتلوا هضبة الجولان بأسرها تقريباً وسمعت للمرة الأولى شكوك حول صحة وصدق البيانات الإسرائيلية بشأن نجاح الجيش الإسرائيلي في صد الهجوم وفي ضوء أزمة الثقة في التقارير طلب فريق العمل من عناصر المخابرات الأمريكية

زيادة يقظتها وتزويده بأقصى قدر من المعلومات عن الوضع في ساحة القتال من المصادر الذاتية.

في يوم الثلاثاء ٩ أكتوبر توجه السفير الإسرائيلي مرة أخرى بطلب إلى كيسنجر بتزويد إسرائيل بالأسلحة والإمدادات العسكرية حاول كيسنجر طمأنة السفير بقوله له أنه تحدث عن المشكلة مع الرئيس نيكسون الذي أصدر تعليمات إلى البنتاجون لتنظيم شحنات فورية من المعدات إلى إسرائيل.

وفي الاجتماعات التي عقدها السفير الإسرائيلي مع كيسنجر بحث بالإضافة إلى قضية الإمدادات موضوع وقف القتال أيضاً وعلى حد قول السفير توافق إسرائيل على وقف القتال شرط أن تعود القوات إلى خطوط السادس من أكتوبر كما كانت قبل نشوب المعارك بيد أن الوضع تغير فجأة برمته يوم الثلاثاء ٩ أكتوبر عند الظهر وهذا أكثر أسرار الحرب خفية فقد وصلت إلى السفارة في واشنطن برقية مذعورة من إسرائيل طلب فيها من آبا إيبان وزير الخارجية وسمحا دينتيز السفير العمل على وقف القتال فوراً دون أية شروط من جانب إسرائيل، وقد ساد الذهول في السفارة خصوصاً أن برقية مذعورة أخرى وصلت بعد وقت قصير تطلب من السفارة العمل بصورة مستعجلة للحصول على إمدادات فورية من قذائف الدبابات.

عاد فريق العمل وعقد اجتماعاً آخر برئاسة كسينجر وقد وضعت أمام الأعضاء قائمة بخسائر إسرائيل البشرية وخسائرها في المعدات كانت الصورة مؤلمة وقد أبدى أحد المشتركين في الفريق ملاحظة قال فيها : "تحطمت أسطورة إسرائيل التي لاتقهر" وقال آخر: "من المؤسف أن يحدث ذلك".

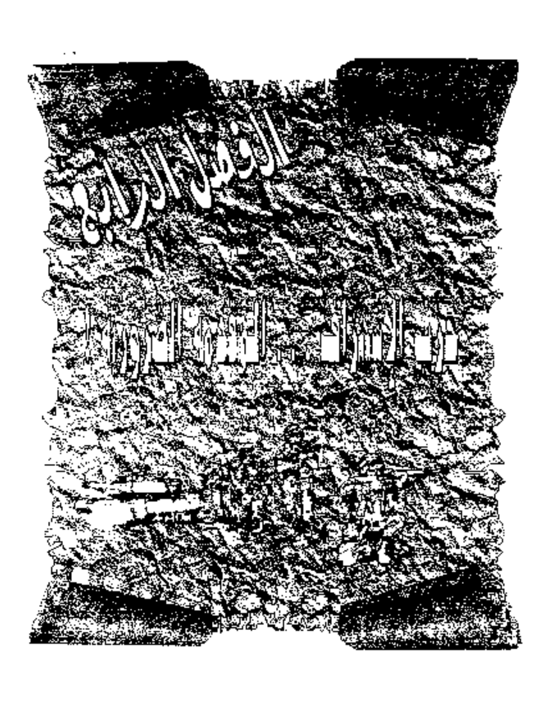
اتصل كيسنجر تليفونياً بالسفير الإسرائيلي وسأله: "هل حصلتم على جميع المعدات التي تحتاجونها" وأضاف: "أصدر الرئيس تعليماته بتزويدكم بكل مايلزم".

وفي يوم الخميس ١١ أكتوبر عندما أصبح الوضع في إسرائيل من ناحية المعدات القتالية حرجاً اتصلت رئيسة الحكومة جولدا مائير تليفونياً بالرئيس نيكسون وطلبت

تدخله شخصياً في هذا الأمر وأصرت على أن يقوم نيكسون بنفسه بالسعي لحل المشكلة التي لايوجد أخطر منها بالنسبة إلى إسرائيل في هذا الوقت.

وفي يوم الخميس ذاته أصدر الرئيس نيكسون أمراً إلى البنتاجون بتزويد إسرائيل بالإمدادات بطائرة النقل العسكرية الأمريكية فوراً.

اجتمع كيسنجر مع آبا إيبان وقد طرح كيسنجر قضية وقف إطلاق النار بينما كان آبا إيبان يطلب بتزويد إسرائيل بالطائرات وقال كيسنجر أن الولايات المتحدة ستحترم التزاماتها نحو إسرائيل ولكن نظراً إلى أن المعارك تستمر خلافاً لما كان متوقعاً، على إسرائيل أن توافق مبدئياً على وقف القتال مقابل تجديد مواردها العسكرية التي نضبت وفي أعقاب اجتماع كيسنجر مع آبا إيبان أصدر الرئيس نيكسون قراراً بتزويد إسرائيل بطائرات الفانتوم أيضاً وكذلك معدات حديثة في قطار جوى، وفي اليوم التالي ١٤ أكتوبر هبطت في إسرائيل أول طائرة "جلاكس" حملت معها معدات عسكرية ثقيلة ومنذ ذلك الوقت فصاعداً بدأ القطار الجوى الذى لم تعرف إسرائيل مثيلاً له في تاريخها.


الفصل الرابع

عندما خرجت جماهير الشعب المصرى فى التاسع والعاشر من يونيو ١٩٦٧ لم يكن مطلبها الوحيد هو أن يبقى جمال عبدالناصر فى موقعه وإنما كان يحركها ويدفعها إحساس عارم برفض الهزيمة ورفض الاستسلام وكان كل دروس التاريخ .. قديمة وحديثة كانت ماثلة فى أذهان هذه الجماهير فلعلهم تذكروا أن بريطانيا وجدت نفسها عام ١٩٣٩ وقد بدأ حلفاؤها يتساقطون تحت وطأة ألمانيا النازية ورغم ذلك لم تستسلم وقال زعيمها تشرشل كلمته المشهور آنذاك "أننا نمثل فى هذه الأوقات القوقعة التى فقدت صدفتها وأصبحت حساسة ولابد أن نتروى .. ولابد أن ننكمش ولابد أن نربى الصدفة كما تعمل القواقع التى تفقد صدفتها وتفقد درعها".

وأحسبهم تذكروا كذلك أنه من الحرب العالمية الثانية ـ نفسها تراجعت الولايات المتحدة أمام اليابان فى بيرل هاربور وأنه فى نفس الحرب العالمية الثانية ـ تراجع الاتحاد السوفيتى أمام الغزو النازى حتى أبواب موسكو ـ لكن النتائج التى تمخضت عنها هذه الحرب العظمى كانت ماثلة فى أذهان الجماهير التى خرجت فى التاسع والعاشر من يونيو.. كانت هذه الجماهير تعلم أن النصر فى النهاية لم يكتب لألمانيا أو اليابان اللتين حققتا انتصارات باهرة فى أول الحرب وإنما النصر تحقق فى النهاية لمن كانت لديهم القوة على الصبر والصمت وإعادة بناء القوة التى ضاعت أو تحطمت.

إن الذين سيؤرخون هذه الفترة الحالكة من تاريخ الشعب المصرى سوف يبرزون بغير جدال كل ما أحاط بظروف تلك الساعات الرهيبة من أيام التاسع والعاشر من يونيو باعتبارها منطلقاً إلى نقطة تحول خطيرة وبين علامات الضوء وخيوط النور التى انطلقت من روح هذه الأمة وإرادتها.

ولكى تكتمل الصورة لمن سيؤرخون فى هذه الفترة من تاريخ النضال الصعب والشاق لابد أنهم سيتعرفون على أبعاد الصورة كما كانت فى الواقع غداة النكسة ولسوف يصابون بالذهول ـ بطبيعة الحال ـ حين تتضح لهم معالمها.

هذه هي الصورة في أعقاب النكسة :

لم يكن هناك ما يبعث على التفاؤل أو الأمل ـ غير روح هذا الشعب العظيم وأصالته ..

فقد كانت الحقائق العلمية المادية الملموسة تقول :

١) أن خسائر القوات المسلحة في معداتها العسكرية تجاوزت ٨٠٪ من حجم المعدات.

٢) أن القوات المصرية المسلحة باتت من تأثير الصدمة وروع الهزيمة مبعثرة ومشتتة وشبه تائهة.

٣) أن المحصلة العامة للقوات المسلحة لاتعطى في النهاية قوة قادرة سواء على الدفاع أو الهجوم.

٤) أن العدو الإسرائيلي نجح في احتلال رقعة كبيرة من أرض الوطن "شبه جزيرة سيناء كلها" وأن قواته تتركز على امتداد الضفة الشرقية لقناة السويس.

٥) أن الضفة الغربية لقناة السويس والتي لا يفصلها عن الضفة الشرقية "حيث يتركز العدو" سوى عشرات من الأمتار لايوجد عليها خط دفاع مصري حقيقي.

٦) أن السماء المصرية تكاد أن تكون مفتوحة تماماً حيث لانملك أية طائرات نستطيع بها مواجهة طيران العدو إذا حاول الاعتداء على المدن المصرية.

٧) أن الطريق من السويس إلى القاهرة مفتوح بدون أدنى مقاومة.

٨) أن الكل في ذهول .. متأثر بالصدمة من هول المفاجأة التي نجمت عن الهزيمة العسكرية السريعة للقوات المسلحة.

وعلى الرغم من هذه الصورة القاتمة فإن حركة الجماهير المصرية في ٩ ، ١٠ يونيو كانت مصدر إلهام ومبعث قوة منحت القيادة السياسية المصرية مزيداً من الإيمان بالنفس وبسلامة الخط الثوري والنضالي. وكانت هذه الحركة الجماهيرية بمثابة الخط الفاصل بين الظلام الذي أطبق على الوطن والنور الذي أمسكت الجماهير

ـ يومئذ ـ بطرفه ـ وأثبتت جماهير الشعب المصري بهذا الموقف الرائع أن رقعة من أرض الوطن قد تسقط تحت أيدي العدو ولكن لم تسقط أي رقعة من إرادته وليست قابلة للسقوط تحت أي احتلال.

ويمكن القول أن الاستجابة الثورية من جانب القيادة السياسية لمطالب الجماهير كانت القوة نقطة البداية إذا اعتبرنا حركة الجماهير بمثابة نقطة التحول .. ففي اليوم التالي مباشرة لهبة الجماهير في يوم ١١ يونيو صدرت قرارات إعادة تنظيم أجهزة القيادة العامة للقوات المسلحة بما يحقق هدف الشعب في استرداد كرامته .. ولم تكن هذه القرارات تعني مطلقاً تغيير القيادات فقط وإنما كان التغيير يمتد إلى أبعد من ذلك كثيراً وأعمق .. كانت هذه القرارات بالفعل نقطة بداية للعمل الرائع المجيد الذي نفذته قواتنا المسلحة بعد أكثر من ٦ سنوات من هذا التاريخ في ٦ أكتوبر.

كانت هذه القرارات تعني رفض الحلول الوسط ومواجهة كل المشاكل بالطريقة الصحية التي يجب أن تواجه بها الأمور حتى لاتتكرر المأساة وكان لابد من إعادة البناء العسكري بصورة كاملة وكان لابد أن يتم ذلك في ظل عقبات كثيرة يصل بعضها إلى حد الإعجاز. ففضلاً عن مشكلة إعادة التنظيم نفسها فإن هناك مشاكل أخرى معقدة مثل إعادة التسليح وإعادة البناء المعنوي وتطوير وسائل وأسس التدريب. ثم إن الظروف القاسية التي كانت عجلة البناء تتحرك تحتها جعلت من عملية البناء أشبه بالمعجزة فلقد كانت القوات المسلحة تحت تهديد العدو وفي مواجهة نيران حرب نفسية ملتهبة.

عودة الثقة :

ولقد كان من الطبيعي أن يستغل العدو النصر السريع بمزيد من العنف العسكري والضغط المعنوي لكي يعرقل عملية إعادة البناء العسكري ولكي يتعرف باستمرار على مدى استعداد قواتنا بعد الانتهاء من مرحلة إعادة التنظيم .. ولعل ذلك هو التفسير المقبول لتلك السلسلة المتصلة من المعارك التي وقعت على طول الجبهة غداة

حرب الأيام الستة وأهمها من وجهة النظر العسكرية المصرية معركة رأس العش الشهيرة في يوليو ١٩٦٧ ومعركة إغراق المدمرة الإسرائيلية إيلات في أكتوبر ١٩٦٧ أيضاً إذا أن أهمية هاتين المعركتين لاتتمثلان في قيمة ما لحق بالعدو من خسائر خلالهما ولكن الأهمية في النتائج الهامة التي حققتها هذه المعارك والتي جاءت على عكس ماكان يخطط العدو ويتمنى ..

- فقد أكدت القدرة على الصمود في الدفاع عن الخطر المخيف.
- وساهمت في إعادة الثقة لأفراد القوات المسلحة بأنفسهم.
- وأعادت ثقة الشعب بقواته المسلحة.
- وأثبتت أن الحرب النفسية التي واجهها أفراد القوات المسلحة قد باءت بالفشل.
- وأزالت الرهبة المفتعلة التي حاول العدو أن يشيعها عن قوته وأسلحته.
- واكتسبت القوات المصرية خبرة قتالية فضلاً عن تفهم أسلوب العدو في الحرب بطريقة واقعية.
- وأظهرت الروح القتالية للأفراد والقدرة على مواجهة العدو والعمل على ردعه وأن الروح القتالية مستمرة.
- وأثبتت القدرة على مواجهة أي احتمالات جديدة.
- وأكدت نجاح خطوات البناء العسكري وأثبتت أنه يتم بصورة سليمة وعلى أساس علمي.

ومع عودة الثقة أصبح المناخ ملائماً لوضع خطة إعادة البناء العسكري الجديد موضع التنفيذ حيث كان الأمر يتطلب مصارحة مع النفس بغير حدود وكان واضحاً في خطة إعادة البناء العسكري ضرورة الاستفادة الكاملة من الدروس المستفادة من معارك عام ١٩٦٧ خصوصاً تلك المتعلقة بنقاط الضعف والقصور من جانبنا..

وكانت أولى الدراسات العسكرية الجادة عن هذه الدروس قد ذكرت في معرض تقديمها لتحليل أسباب النكسة أن العدو الذي هاجمنا في ١٩٦٧ هو نفس العدو الذي

هاجمنا من قبل – عام ١٩٥٦ وعام ١٩٤٨ ولانقول أن هذا أسهل وأيسر لدراسته موضوعياً أو استخلاص الدروس المستفادة من معاركه معنا إنما نقول أن هذا أول صعوبة مما لو اختلف الوضع ولذه إذا حاولنا أن نتبين الدروس المستخلصة من عمليات ١٩٦٧ نجد أنها لاتختلف عنها عام ١٩٥٦ – أو عام ١٩٤٨.

الصمود والدفاع الوقائي وحرب الاستنزاف

كانت الدروس المستفادة من حرب ١٩٦٧ ذات شقين أحدهما يختص بالعدو والأخر يختص بقواتنا ..

وفيما يتعلق بالعدو فلقد كانت أهم الدروس المستفادة وتصريحاته لإخفاء نواياه :

أ – أن العدو يجيد الخداع والتضليل في تصرفاته وتصريحاته لإخفاء نواياه.

ب – أن العدو أكد بالدليل القاطع قولاً وعملاً أن نواياه توسعية وأن معركة ١٩٦٧ لم تكن – على حد زعمه – دفاعاً عن النفس ضد عمليات الفدائيين العرب.

جـ – أن العدو يهتم اهتماماً شديداً بالحرب النفسية قبل وأثناء وبعد المعركة العسكرية.

د – أن العدو يعتبر الروح المعنوية هدفاً إستراتيجياً يسعى إلى تحقيقه والمحافظة عليه بكافة الطرق، والتي قد تصل إلى حد القيام بعمليات خاصة لذلك.

هـ – أن العدو يهتم كثيراً بزيادة عدد مؤيديه من الرأي العام العالمي برغم عدم مشروعية مخططاته، وأنه يستخدم في ذلك كافة الوسائل الدبلوماسية ويجند أعداداً كبيرة من الكتاب والصحفيين والفنانين العالميين لهذا الغرض مستعيناً في ذلك بمخطط إعلامي علمي ومدروس يخدم أهدافه ويدافع عن بطلانها.

و – أن التفوق العسكري الإسرائيلي في معركة يونيو ١٩٦٧ أساسه التخطيط الجيد للمعركة والتدريب عليها وليس ناتجاً عن قدرة خارقة أو أساليب قتالية جديدة أو مستحدثة وأن العدو في معاركه السابقة معنا كان يتفادى دائماً المواجهة المباشرة مع قواتنا.

وفيما يتعلق بالعدو فقد كانت أهم الدروس المستفادة ما يلي :

- أن كل خطوة نخطوها وكل عمل نقوم عليه يجب أن يكون مبنياً على أساس سليم ومدروس وبناء على تخطيط سابق ومنظم.
- أن التدريب المعنوى جزء لا يتجزأ من التدريب العسكرى للأفراد وكلاهما ضرورى لرفع الكفاءة القتالية للقوات.
- أن التربية الروحية ضرورية إلى جانب التربية المادية ـ وتسبقها ـ لبناء عقيدة سليمة من أجلها وعلى أساسها يضحي ويبذل الفرد جهداً ومالاً ودماً.
- أن القوات المسلحة لها مهمة واحدة فقط وهي التدريب والاستعداد وقت السلم والقتال وتحقيق النصر وقت الحرب.
- أن العبرة ليست بالسلاح وإنما بالرجال الذين يحملون هذا السلاح وأن العبرة ليست بالعدد والعدة وإنما بالكفاءة والقدرة والإخلاص والجدية في التدريب.
- أنه من المحتم أن تتم دراسة العدو ـ استعداداً لملاقاته ـ دراسة موضوعية لتكتيكاته وأساليبه الدفاعية والنفسية وطبيعة حركته في المعركة.
- أنه من المحتم الاهتمام بأبسط المعلومات عن العدو ودراستها والاهتمام حتى بأبسط المعلومات عن قواتنا والمحافظة على سريتها وعدم إذاعتها.
- أنه من الضرورى الاهتمام بوسائل الدعاية والإعلام ووضع خطة متكاملة على خدمة أهدافنا السياسية والاقتصادية والعسكرية والعمل على كسب مزيد من الرأى العام العالمي إلى جانب القضية العربية.
- أنه من الضرورى ومن المحتم أن يوضع الرجل المناسب في المكان المناسب.
- أنه من الضرورى حشد كل من القوى الوطنية والقومية سياسياً واقتصادياً وعسكرياً حشداً فعلياً للوقوف أمام الأخطار المحدقة بالوطن.
- أن الحرب أثبتت أن أكثر من أربعة أخماس قواتنا لم تشترك فعلياً في القتال وأن قواتنا المسلحة أثبتت قدرتها في المواقف التي أتيحت لها فرصة القتال المصرى

على قهر العدو إذا واجهت ظروفاً طبيعية ومتكافئة للتدليل على ذلك الإشارة إلى معركة اللواء ١٤ مدرع في منطقة جبل لبني ومعركة اللواء ١١ مشاة في العريش.

- أن الحرب ليست مجرد سلاح ضد سلاح وإنما الحرب إرادة ضد إرادة وأن النصر يتحقق للطرف الذي يستطيع في النهاية أن يفرض إرادته على عدوه.

مرحلة الردع والدفاع الوقائي:

ومع عودة الثقة بنتائج الاشتباكات المحدودة ووضوح الرؤية بتحديد الدروس المستفادة من النكسة رأت القيادة المصرية أن أفضل مناخ لإعادة البناء العسكري في هذه المرحلة ـ هو أن يتم تحت نيران المدافع وزئيرها واعتباراً من ٨ سبتمبر ١٩٦٨ بدأت القوات المسلحة المصرية مرحلة جديدة هي مرحلة الردع بعد أن يتم بنجاح اجتياز مرحلة الصمود خلال الفترة من ١٠ يونيو ١٩٦٧ إلى ٨ سبتمبر ١٩٦٨.

وكان من أبرز ملامح مرحلة الردع أنها تميزت بالقدرة على الضرب بشدة على يد العدو في حالة اعتدائه على قواتنا المسلحة أو السكان المدنيين في منطقة القناة، كما تميزت هذه المرحلة أيضاً بإعلان قواتنا المسلحة صراحة أنها ستقوم بتنفيذ سياسة الدفاع الوقائي تلك السياسة التي تعني أننا سنقوم بتكمير مواقع مدفعية العدو وأسلحته الضاربة إذا ماشعرنا بأنه يستعد لعمل عدواني على المواقع العسكرية أو المدن الآمنة.

إن معركة المواقع الشهيرة في ٨ سبتمبر ١٩٦٨ تستحق أن نقف عندها قليلاً ذلك أنها كانت أول معركة بعد عام ١٩٦٧ تشمل كل قطاعات الجبهة المصرية فلقد بدأ القتال في الساعة الرابعة والربع من بعد الظهر عندما بدأ العدو في إطلاق نيران مدفعيته على مدينة السويس مستهدفاً المباني والمنشآت المدنية. ولكن القيادة المصرية الميدانية ـ كان اللواء أحمد إسماعيل على وقتها قائد الجبهة ـ قررت أن ترد على العدوان بضرب مركز وشامل ليس في قطاع العريش وحده وإنما على طول امتداد الجبهة.

وقد أسفرت هذه المعركة عن خسائر فادحة للعدو في الأفراد والمعدات ولكنها أسفرت كذلك عن عديد من الحقائق والدلالات أهمها مايلي:

١) أن العدو كما اتضح من بياناته عن المعركة .. قد قَبِلَ وقف إطلاق النار بعد ساعة وخمس وثلاثين دقيقة من نشوب القتال ولكن القيادة المصرية لم ترد على هذا الطلب إلا بعد أكثر من ساعة وحين ردت فقد وضعت لأول مرة شروطاً لوقف إطلاق النار.

٢) أن خسائر العدو كانت فادحة فقد أسكتت معظم وحدات مدفعية الخط التكتيكي الأول له. كذلك لحقت به خسائر كبيرة على عمق بعيد في خطوط جبهته، وكان من أبرز ظواهر المعركة تدمير ١٤ دبابة للعدو وكانت على طرف اللسان أمام بور توفيق، وكان جنود هذه الدبابات قد هجروها إلى المخابئ أمام تركيز النيران فدمرت هذه الدبابات تدميراً كاملاً ومن المؤكد أنه لولا خسائر العدو الفادحة لما كان هو البادئ بطلب وقف إطلاق النار.

٣) أن القيادة العامة المصرية وضعت شرطين لقبولها وقف إطلاق النار هما:

أ- أن يمتنع العدو عن أي دعم خلف النطاق التكتيكي ولو حدثت أي تحولات من هذا النوع فإن القوات المصرية سوف تفتح النار عليه.

ب- أن القيادة أوضحت أنها سوف تباشر أعمال الدفاع الوقائي ضد القوات المعتدية التي توجه نيرانها إلى المناطق المأهولة بالسكان.

٤) أن الخسائر على الجانب المصري كانت كلها خسائر طفيفة في الأرواح وذلك بسبب الكفاءة المتزايدة للدفاع المدني.

ويبدو أن العدو لم يرتدع تماماً بما أسفرت عنه حركة المدافع وبدأ يجرب أسلوباً جديداً للاستفزاز مستغلاً فيه أسطورة التفوق الجوي الذي صنعته نكسة ١٩٦٧ حيث لم يكن العدو يدرك أن القيادة المصرية قررت أن ترد على استفزازه وتحديه في الوقت والمكان الملائمين، ولقد حان الوقت بالفعل في الثانية من بعد ظهر الأربعاء

٢٣ أكتوبر ١٩٦٨ عندما اخترقت المجال الجوى المصرى لأربع طائرات إسرائيلية من طراز ميراج من جهة الشمال ثم انحرفت غرباً لتتدخل فوق المجال الجوى للإسماعيلية فتصدت لها الطائرات المصرية المقاتلة واتخذت الزوايا المناسبة بحيث أصبحت فوق طائرات العدو وخلفها وبينما اتخذت الطائرات الإسرائيلية تشكيلاً ثنائياً: اثنتان إلى أعلى وفى الخلف واثنتان إلى أسفل فى المقدمة وفى اللحظة المناسبة صوبت إحدى طائراتنا. قذيفة أشعلت النار فى إحدى طائرات العدو وهى الطائرة التى قفز منها قائدها بالمظلة ونجح فى الهبوط على الضفة الشرقية وبعد لحظات انفجرت طائرته فى الجو وتناثرت أجزاؤها وفى ثوان صوب أحد طيارينا نيرانه تجاه طائرة أخرى فأشعل فيها النار وانفجرت على الفور وبمجرد انفجار هاتين الطائرتين هربت الطائرتان الباقيتان، وعندئذ دفع العدو بعدد آخر من طائراته إلى سماء المعركة فتصدت لها مجموعة أخرى من طائراتنا المقاتلة وأصابت طائرتين انفجرت إحداهما على الفور وقد انتهت المعركة بعد أن استغرق الاشتباك بالنسبة لبعض طائراتنا ٦ دقائق وامتد إلى ٨ دقائق مع البعض الآخر.

واضطر العدو أن يعترف بسقوط إحدى طائراته فقط ـ تلك التى سقط حطامها على الضفة الغربية للقناة ـ وكان الاعتراف من جانبه ـ بصرف النظر عن الحقيقة ـ هو مؤشر لبداية القناعة لدى العدو باهتزاز أسطورة التفوق النوعى كما كان لهذه المعركة أثرها البالغ فى استعادة الطيارين المصريين لثقتهم بأنفسهم.

حرب الاستنزاف

وأدركت إسرائيل أن مصر جادة تماماً فى سياسة الدفاع الوقائى وأن ذلك يكلفها خسائر فى الأفراد أقوى من احتمالها ومن ثم بدأت فى عملية الساتر الرملى على امتداد القناة كلها وخلف الساتر الرملى بدأت فى إنشاء خط التحصينات الرهيب الذى اصطلح على تسميته باسم خط بارليف نسبة إلى حاييم بارليف رئيس الأركان الإسرائيلى آنذاك، وقد نجح العدو فى إتمام هذا الخط تحت ظل الحماية الجوية،

وقررت القيادة المصرية أن تبدأ في ضوء هذه المتغيرات الجديدة مرحلة جديدة من العمل العسكري الأكثر فاعلية ونشاطاً ووضعت فى اعتبارها ضرورة تدمير هذا الخط الدفاعي وإحداث أكبر قدر ممكن من الخسائر في أفراد العدو وكسر حائط الخوف والرهبة عبر القناة. وقد دخلت الخطة الجديدة موضع التنفيذ اعتباراً من ٨ مارس ١٩٦٩. حيث بدأت المدفعية المصرية قصفاً شديداً ومتواصلاً بصورة يومية ضد مواقع العدو فى خط بارليف، وفي نفس الوقت بدأت سلسلة من العمليات المصرية ليلاً ونهاراً داخل مواقع العدو وبلغت حد العبور والاقتحام بأكثر سرية، ولم تفلح غارات العدو الجوية الكثيفة فى وقف طوفان الاستنزاف المصري لقواته.

وفى ظل هذه العمليات المجيدة وتحت لهيب نيرانها بدأت مراحل العمل داخل وخلف خطوط العدو إلى الحد الذى يمكن القول فيه –بغير مبالغة– أنه منذ بداية حرب الاستنزاف وحتى نشوب حرب أكتوبر فإن أرض سيناء الطاهرة لم تخل قط من رجال الاستطلاع المصريين العاملين خلف خطوط العدو وإن كانت نسبتهم قد انخفضت –وذلك أمر طبيعي– خلال فترة وقف إطلاق النار السابقة على حرب أكتوبر وكانت مهمة دوريات الاستطلاع المصرية تتجاوز أكثر من مجرد الملاحظة وجمع المعلومات كان عليها أن تنصب الكمائن وأن تحصل على الأسرى كمصدر من مصادر المعلومات التى كانت قواتنا بحاجة ماسة إليها فى هذه الفترة. وقد وقع أول أسير إسرائيلي بعد حرب ١٩٦٧ هو النقيب دان أفيدان شمعون فى يد قواتنا يوم ١٤ ديسمبر ١٩٦٩ –بواسطة كمين نهارى فى منطقة سرابيوم أسفر عن تدمير عربة جيب وقتل جنديين. الكمائن النهارية تتوالى وبدأ الأسرى الإسرائيليون يقعون فى أيدى رجال الاستطلاع تباعاً.

ولم يكن تجميع المعلومات أو الحصول على أسرى –كمصدر خصب للمعلومات– هدف هذه الكمائن والدوريات كما أسلفت وإنما كانت هناك مهمة أخرى كان هؤلاء الرجال أن يستخلصوا مع قياداتهم الدروس المستفادة من قتالهم مع العدو.. تلك الدروس التى كانت موضع اعتبار عند وضع خطة عمليات ٦ أكتوبر.

رأينا كيف كانت حرب الاستنزاف التي كانت بمثابة التجسيد الحي لإرادة الرفض المصري للهزيمة وإثبات القدرة على تحدى العدوان ودخول المرحلة الهامة والضرورية للتهيئة القتالية والمعنوية لقواتنا لكي تكون جاهزة لتلبية نداء الواجب عندما تحين ساعة الصفر.

كانت كمائن حرب الاستنزاف قد زودت القيادة العسكرية المصرية بعدد من الدروس المستفادة والتي منها أهمها :

١) أن العدو لايضع في اعتباره إمكان مهاجمته نهاراً ومن ثم فقد تحققت المفاجأة أكثر من مرة بمهاجمته في وضح النهار لأنه لا يعتبر أبداً.

٢) لقد ثبت أن العدو لايتمكن من إبداء أية مقاومة تذكر عندما يفاجأ بالهجوم ورغم تدخل احتياطاته ضد معظم الكمائن والإغارات إلا أن دوريات الاستطلاع المصرية تمكنت من تنفيذ مهمتها بالسرعة والدقة المطلوبة ومنع الاحتياطي من التدخل تحت ظلال مظلة التأمين المصرية بالقصف المدفعي.

٣) أن العوامل الرئيسية في نجاح كمائن وإغارات دوريات الاستطلاع تعود أساساً إلى السرية الكاملة والدقة في التخطيط وحسن الانتخاب لمنطقة الكمين وإحداث الكمين وإحداث المفاجأة بوسائل الخداع، والسيطرة الكاملة على أعمال الكمائن بواسطة القيادات الميدانية المتخصصة وأهم من ذلك كله هو الاستطلاع المسبق الجيد للهدف والتسليح.

٤) أن الوسيلة الوحيدة لتحطيم خط بارليف هي الاقتحام المباشر بواسطة أفراد المشاة. ومع تزايد درجة الثقة لدى المقاتل المصري في العبور والاقتحام ومواجهة العدو داخل دشم وملاجئ خط بارليف كان بناء القوات الجوية يسير هو الآخر بسرعة مطردة وإزاء النجاح الذي حققته سلسلة العمليات المصرية الخاصة لجأ العدو إلى توسيع نطاق رده وبدأ منذ ديسمبر ١٩٦٩ في محاولة ضرب العمق المصري وكان ذلك إيذاناً ببدء أروع ملحمة من ملاحم الإعداد المصري

لحرب أكتوبر "ملحمة بناء شبكة الصواريخ المضادة للطائرات" التى أثبتت وجودها تماماً في أسبوع تساقط ـ لتبدأ مرحلة جديدة وهامة لنقل استعدادات وتدريبات القوات من مجرد العمليات المحدودة إلى التجهيز للعملية الإستراتيجية المشتركة فقد كانت القوائم قد نجحت في تكوين صنفقتها.

وكان ذلك هو المدخل لنضوج حتمية اتخاذ القرار بالحرب عند صانع القرار المصرى ..

عندما اتخذ الرئيس السادات قراره النهائي بالحرب قبل نهاية عام ١٩٧٢ لم يكن يعني بهذا القرار التاريخي مجرد هزيمة العدو على أرض القتال أو دفعه للتراجع والانسحاب وإنما كان يستهدف أساساً أن يذيق إسرائيل لأول مرة منذ إنشائها ـ طعم الهزيمة الاستراتيجية ـ إذ أن النتائج التى يمكن أن تترتب على مثل هذه الهزيمة الاستراتيجية سوف تكون لها آثار بعيدة المدى أكبر بكثير من حدود التراجع والانسحاب التى يمكن إرغام العدو بالقوة العسكرية إلى بلوغها مسرح العمليات.

ولقد كان أمام الرئيس السادات عندما اتخذ قراره التاريخي مجموعة من الدراسات ـ سواء تلك التى أعدتها الأجهزة المصرية المختصة أو تلك التى أعدها الرئيس بنفسه ـ وكان من بينها على وجه التأكيد ـ بالإضافة إلى طبيعة ميزان القوى العسكرى بين العرب وإسرائيل واحتمال الموقف السياسي الدولي عندما تحين ساعة الصفر وطبوغرافية مسرح العمليات ـ دراسة خاصة عن الاستراتيجية الإسرائيلية التى تستهدف مصر هزيمتها وتفريغها من أى مضمون حقيقى لها.

من معركة رأس العش فى يوليو ١٩٦٧ إلى إسبوع تساقط الفانتوم في يوليو ١٩٧٠

ومن هذا المنطلق أخذت الخيط لمحاولة لست أعتقد أنها تاريخ للحرب ولاهى شهادة عنها بقدر ماهي إسهام في ذكر بعض جوانب للعمل البطولى الرائع الذى قام به الإنسان المصرى لعبور سلسة من الحواجز والمواقع المستعصية وكان أسهلها وأخفها ـ من وجهة نظرى ـ هو ما حدث يوم ٦ أكتوبر بعبور قناة السويس لأن عبور

السادس من أكتوبر لم يكن سوى مرحلة متقدمة من مراحل عبور أخرى سبقته ومهدت له ومن بينها على سبيل المثال :

١) أنه في أحلك ساعات المحنة وأشدها إيلاماً للنفس والمشاعر خرجت جماهير الشعب المصري مع جماهير الأمة العربية في ٩ ، ١٠ يونيو لتقيم جسراً متيناً عبرت عليه الأمة من شبح السقوط إلى أمل الصمود.

٢) أنه لم تكن مضت أسابيع قليلة حتى كانت قوات الجيش المصري ـ الذي فقد أكثر من ٨٠٪ من معداته ـ قد استعادت توازنها واستطاعت الطائرات المصرية أن تدك مواقع العدو في سيناء ثم ما لبثت قوات الصاعقة أن نجحت في أن تقيم لنفسها موطئ قدم على الضفة الشرقية للقناة بعد معركة مجيدة من رأس العش عبر بها الإنسان المصري من أمل الصمود إلى واقع الصمود.

٣) أنه بينما كان العدو لا يزال في نشوة النصر وغرور القوة خرجت زوارق طوربيد البحرية المصرية إلى عرض البحر المتوسط عند الشاطئ الشمالي لبورسعيد لتغرق أكبر مدمرات العدو البحرية ولتسجيل أول معركة بحرية في التاريخ تدور بالصواريخ، ولتغير من كل حسابات الاستراتيجية البحرية ولتسهم في عبور الأمة العربية من واقع الصمود إلى إمكانيات الرفض والتحدي.

٤) أنه بعد مضي ١٥ شهراً فقط وبالتحديد في يوم ٨ سبتمبر ١٩٦٨ فتحت المدافع المصرية نيرانها الكثيفة على امتداد الجبهة كلها وأمطرت المواقع الإسرائيلية بأطنان من القنابل المدمرة وأحدثت في صفوف العدو أكبر خسائر شهدها منذ معارك يونيو ١٩٦٧، وكانت هذه هي المرة الأولى منذ يونيو ١٩٦٧ التي تملك فيها القوات المصرية زمام المبادأة سواء في اختيار توقيت الضربة أو قبول توقف وقف إطلاق النار. وكان ذلك يعني أن خطة إعادة بناء القوات المسلحة قد مضت بأسرع مما كان متوقعاً للعبور من إمكانية الرفض والتحدي إلى القدرة على الردع والتصدي.

٥) أنه بعد ستة أشهر فقط من بدء مرحلة الردع والتصدى كانت القوات المصرية قد وثبت وثبة رائعة في فترة زمنية قياسية حيث اكتملت لديها كل مقومات القدرة على تدمير تحصينات واستحكامات العدو التى أقامها على طول قناة السويس المسماة باسم خط بارليف وفق خطة استنزاف مؤثر عبرت بالجيش المصرى من القدرة على الردع والتصدي إلى واجب الاستنزاف والإزعاج الدموى.

٦) أنه في ظل خطة الاستنزاف والإزعاج الدموى المصرى ــ التي بدأت يوم ٨ مارس ١٩٦٩ واستمرت حتى وقف إطلاق النار الأول في ٨ أغسطس ١٩٧٠ ــ توالت عمليات العبور المصرية إلى الضفة الشرقية للقناة، وابتداء من مستوى الفصيلة وبلوغاً إلى مستوى الكتيبة محققة بذلك عبوراً مجيداً من مجرد الاستنزاف والإزعاج الدموى إلى كسر حاجز الرهبة والخوف عند المقاتل المصرى الذى اكتشف في كل مراحل العبور أن الالتحام مع العدو يسقط أسطورة التفوق الإسرائيلي ويلغيها.

٧) أن العدو عندما بدأ يفقد اتزانه من شدة ضربات الاستنزاف المصرية وقرر أن ينقل المعركة بعيداً عن ميدان المواجهة بضرب العمق المصرى لم ينجح إلا في تأكيد مدى التلاحم والتماسك في الجبهة الداخلية المصرية وتمسكها بقيادتها السياسية وبثقتها الكاملة في قواتها المسلحة. فضلاً عن أنه دفع مصر إلى تعزيز مطالبها لتدعيم نظام دفاعها الجوى لمواجهة تسلل الطائرات الإسرائيلية على ارتفاع منخفض وكانت الزيارة السرية التي قام بها جمال عبدالناصر لموسكو وما أعقبها من إقامة أضخم شبكة للصواريخ، وبإتمام هذه الصفقة عبر الجيش المصرى من نقطة كسر حاجز الخوف والرهبة إلى بدء وضع اللبنة الأولى في عملية الإعداد للمواجهة الشاملة المنتظرة بتأمين العبور المصرى.

٨) أنه بمجرد اكتمال بناء شبكة الصواريخ المصرية لحماية العمق المصرى لم تجرؤ طائرة إسرائيلية على محاولة اختراق العمق المصرى بعد ١٨ إبريل ١٩٧٠ وعاد العدو ليركز كل ضرباته الجوية ضد القوات المصرية في الجبهة

وكان لابد من مواجهة ذلك التحدى بتحد مماثل فى دفع كتائب من صواريخ سام ٣ إلى الجبهة وعندما كان شهر يونيو ١٩٧٠ يقترب من نهايته كان قد بدأ أسبوع تساقط أسطورة الفانتوم على الجبهة المصرية ليعبر الجيش المصرى من مرحلة تأمين العمق والجبهة الداخلية إلى بداية مرحلة تأمين كل قوات الجبهة المصرية وتغطيتها بمظلة واقية من الصواريخ.

٩) أنه عندما اضطرت إسرائيل إلى قبول وقف إطلاق النار بعد أزمة تساقط الفانتوم ـ وفقاً لترتيبات المبادرة الأمريكية لمدة ٣ أشهر تبدأ من ٨ أغسطس وتنتهى فى ٥ نوفمبر ١٩٧٠ ـ استغلت القوات المصرية فرصة السكون على الجبهة ولم تعبأ بالتهديدات والاحتجاجات الإسرائيلية ودفعت إلى قرب قناة السويس مجموعة من كتائب الصواريخ التى كفلت تأميناً شاملاً على امتداد الجبهة وردعت كل محاولة إسرائيلية لانتهاك وقف إطلاق النار .. وباكتمال زراعة غابة الصواريخ المصرية كانت مصر قد نجحت ليس فقط فى شل وإضعاف العدو من ميزة المبادأة فى الجو وإنما حرمانه تماماً من هذه الميزة حيث كان مدى الصواريخ المصرية يغطى ٢٠ كيلو متراً من قناة السويس.

١٠) أنه بعد رحيل عبدالناصر وتولى الرئيس أنور السادات زمام السلطة بدأت تتهدد مصر مخاطر فتنة تودى بأهم عناصر صمودها وذلك بسبب مطامع ومغامرات بعض مراكز القوى المصرية، وقد بذل الرئيس السادات جهداً فوق طاقة البشر لكى يجنب القوات المسلحة مخاطر الانزلاق إلى لعبة صراعات القوى الداخلية ونجح فى أن يحسم الأمر تماماً بحركة التصحيح فى ١٤ ، ١٥ مايو لتستأنف القوات المصرية المسلحة مراحل عملية البناء الشامل فى مناخ نقى ليس لمجرد العودة لمرحلة الاشتباك والردع والاستنزاف وإنما لمواجهة شاملة وكاملة، وكان ذلك عبوراً من مخاطر الفتنة والانقسام إلى بداية العمل فى صمت وصبر لمرحلة ـ قد تقصر وقد تطول ـ ولكنها لابد أن تنهى الأسطورة ولابد من هز نظرية الأمن الإسرائيلية (وكان ذلك هو العبور العاشر) الذى شمل من بين ما شمل

خططاً للتحرك السياسي الدعائي وخططاً للخداع والتضليل التكتيكي والاستراتيجي وخططاً للتنسيق والحشد العربي، وظهرت ثماره بوضوح يوم ٦ أكتوبر عندما بدأ العبور المصري على امتداد قناة السويس.

ومن الواضح أن الذي مهد لكل ماحدث في ٦ أكتوبر لم يكن مجرد المفاجأة وحدها وإنما كان الإنسان العربي عامة والمصري على وجه الخصوص .. كان الإنسان هو رافض الهزيمة هو الذي قدم الدم طواعية ثمناً للصمود والردع والاستنزاف .. وكان الإنسان هو الذي قبل طواعية أن يهجر مدنه الثلاث في منطقة القناة ليعيش حياة الشظف والحرمان، ثم إن الإنسان هو الذي خطط لكل مراحل العبور السابقة وكان صمام الأمن وراء نجاحها مرحلة وراء مرحلة. وفيما يتعلق بالمفاجأة وأثرها فقد كانت هي الأخرى من صنع الإنسان والعقل المصري ووليدة تخطيطه وتفكيره وجهده.

إن جماهير الشعب المصري عندما خرجت في التاسع والعشرين من يونيو ١٩٦٧ لم يكن مطلبها الوحيد هو أن يبقى عبدالناصر في موقعه وإنما كان يحركها ويدفعها إحساس عارم برفض الهزيمة ورفض الاستسلام.

كأن كل دروس التاريخ .. قديمة وحديثة كانت ماثلة في أذهان الجماهير فلعلهم تذكروا أن بريطانيا وجدت نفسها عام ١٩٣٩ وقد بدأ حلفاؤها يتساقطون تحت وطأة ألمانيا النازية ورغم ذلك لم تستسلم وقال زعيمها تشرشل كلمته المشهورة آنذاك "إننا نمثل في هذه الأوقات القوقعة التي فقدت صدفتها وأصبحت حساسة ولابد أن نتزوى .. ولابد أن تنكمش ولابد أن نربي الصدفة كما تعمل القواقع التي تفقد صدفتها وتفتقد درعها".

وأحسبهم تذكروا كذلك أنه من الحرب العالمية الثانية ـ نفسها ـ تراجعت الولايات المتحدة أمام اليابان في بيرل هاربور وأنه في نفس الحرب العالمية الثانية ـ تراجع الاتحاد السوفيتي أمام الغزو النازي حتى أبواب موسكو ـ لكن النتائج التي خرجت في التاسع والعاشر من يونيو.. كانت في أذهان الجماهير التي تعلم أن النصر في النهاية

لم يكتب لألمانيا أو اليابان اللتين حققتا انتصارات باهرة في أول الحرب وإنما النصر تحقق في النهاية لمن كانت لديهم القوة على الصبر والصمت وإعادة بناء القوة التى ضاعت أو تحطمت.

إن الذين سيؤرخون هذه الفترة من تاريخ الشعب المصرى سوف يبرزون بغير جدال كل ما أحاط بظروف تلك الساعات الرهيبة من أيام التاسع والعاشر من يونيو باعتبارها منطلقاً إلى نقطة تحول خطيرة وبين علامات الضوء وخيوط النور التى انطلقت من روح هذه الأمة وإرادتها.

ولكي تكتمل الصورة لمن سيؤرخون هذه الفترة من تاريخ النضال الصعب والشاق لابد أنهم سيتعرفون على أبعاد الصورة كما كانت فى الواقع غداة النكسة ولسوف يصابون بالذهول ـ بطبيعة الحال ـ حين تتضح لهم معالمها.

لم يكن هناك ما يبعث على التفاؤل أو الأمل ــ غير روح هذا الشعب العظيم وأصالته .. فقد كانت الحقائق العلمية المادية الملموسة تقول:

- إن خسائر القوات المسلحة في معداتها العسكرية تجاوزت ٨٠٪ من حجم المعدات.
- إن القوات المصرية المسلحة باتت من تأثير الصدمة وروع الهزيمة مبعثرة ومشتتة وشبه تائهة.
- إن المحصلة العامة للقوات المسلحة لا تعطى فى النهاية قوة قادرة سواء على الدفاع أو الهجوم.
- إن العدو الإسرائيلى نجح فى احتلال رقعة كبيرة من أرض الوطن "شبه جزيرة سيناء كلها" وإن قواته تتركز على امتداد الضفة الشرقية لقناة السويس.
- إن الضفة الغربية لقناة السويس والتى لا يفصلها عن الضفة الشرقية "حيث يتركز العدو" سوى عشرات من الأمتار لا يوجد عليها خط دفاع مصرى حقيقى.

- إن السماء المصرية تكاد أن تكون مفتوحة تماماً حيث لاتملك أية طائرات نستطيع بها مراجعة طيران العدو إذا حاول الاعتداء على المدن المصرية.
- إن الطريق من السويس إلى القاهرة مفتوح بدون أدنى مقاومة.
- إن الكل في ذهول .. متأثراً بالصدمة من هول المفاجأة التي نجمت من الهزيمة العسكرية السريعة للقوات المسلحة.

وعلى الرغم من هذه الصورة القاتمة فإن حركة الجماهير المصرية في ٩ و ١٠ يونيو كانت مصدر إلهام ومبعث قوة منحت القيادة السياسية المصرية مزيداً من الإيمان والثقة بالنفس.. وكانت هذه الحركة الجماهيرية بمثابة الخط الفاصل بين الظلام الذي أطبق على الوطن والنور الذي أمسكت الجماهير – يومئذ – بطرفه – وأثبتت جماهير الشعب المصري بهذا الموقف الرائع أن رقعة من أرض الوطن قد تسقط تحت أيدي العدو ولكن لم تسقط أية رقعة من إرادته وليست قابلة للسقوط تحت أي احتلال.

وكان ذلك أكبر مدعاة وأعظم مصدر للإلهام وخير دافع للتغييرات وإعادة البناء!

ويمكن القول بأن الاستجابة الفورية من جانب القيادة السياسية لمطالب الجماهير كانت بمثابة نقط البداية إذا اعتبرنا أن حركة الجماهير بمثابة نقطة التحول .. ففي اليوم التالي مباشرة لهبّة الجماهير في يوم ١١ يونيو صدرت قرارات إعادة تنظيم أجهزة القيادة العامة للقوات المسلحة بما يحقق هدف الشعب في استرداد كرامته .. ولم تكن هذه القرارات تعني مطلقاً تغيير القيادات فقط وإنما كان التغيير يمتد إلى بداية مهدت للعمل الرائع المجيد الذي نفذته قواتنا المسلحة بعد أكثر من ٦ سنوات من هذا التاريخ في ٦ أكتوبر.

كانت هذه القرارات تعني رفض الحلول الوسط ومواجهة كل المشاكل بالطريقة الصعبة التي يجب أن تواجه بها الأمور حتى لا تتكرر المأساة وكان لابد من إعادة البناء العسكري بصورة كاملة وكان لابد أن يتم ذلك في ظل عقبات كثيرة يصل

بعضها إلى حد الإعجاز فضـلاً عن مشكلة إعادة التنظيم نفسها فإن هناك مشاكل أخرى معقدة مثل إعادة التسليح وإعادة البناء المعنوى وتطوير وسائل وأسس التدريب.. ثم إن الظروف القاسية التى كانت عجلة البناء تتحرك تحتها جعلت عملية البناء أشبه بالمعجزة فلقد كانت القوات المسلحة تحت تهديد العدو وفي مواجهة نيران حرب نفسية ملتهبة.

ولقد كان من الطبيعي أن يستغل العدو النصر السريع بمزيد من العنف العسكري والضغط المعنوي لكي يعرقل عملية إعادة البناء العسكري ولكي يتعرف باستمرار على مدى استعداد قواتنا بعد الانتهاء من مرحلة إعادة التنظيم .. ولعل ذلك هو التفسير المقبول لتلك السلسلة المتصلة من المعارك التى وقعت على طول الجبهة غداة حرب الأيام الستة وأهمها من وجهة النظر العسكرية المصرية معركة رأس العش الشهيرة في يوليو ١٩٦٧ ومعركة إغراق المدمرة الإسرائيلية إيلات في أكتوبر ١٩٦٧ أيضاً إذ أن أهمية هاتين المعركتين لا تتمثل فى قيمة مالحق بالعدو من خسائر خلالهما ولكن الأهمية فى النتائج الهامة التى حققتها هذه المعارك والتي جاءت على عكس ماكان يخطط العدو ويتمنى.

فقد أكدت القدرة على الصمود فى للدفاع في وجه الخطر المخيف. وساهمت فى إعادة الثقة لأفراد القوات المسلحة بأنفسهم وإعادة ثقة الشعب بقواته المسلحة كما هزت ثقة العدو بنفسه فى النصر المؤقت الذى أحرزه. وأثبتت أن الحرب النفسية التى واجهها أفراد القوات المسلحة قد باءت بالفشل وأزالت الرهبة المفتعلة التى حاول العدو أن يشيعها عن قوته وأسلحته.

كما اكتسبت القوات المصرية خبرة قتالية فضلاً عن تفهم أسلوب العدو فى الحرب بطريقة واقعية. وأظهرت الروح القتالية للأفراد والقدرة على مواجهة العدو والعمل على ردعه وأن الروح القتالية مستمرة.

وأثبتت القدرة على مواجهة أى احتمالات جديدة، وأكدت نجاح خطوات البناء العسكرى وأثبتت أنه يتم بصورة سليمة وعلى أسس علمي.

ومع عودة الثقة أصبح المناخ ملائماً لوضع خطة إعادة البناء العسكري الجديد موضع التنفيذ حيث كان الأمر يتطلب مصارحة مع النفس بغير حدود وكان واضحاً في خطة إعادة البناء العسكري ضرورة الاستفادة الكاملة من الدروس المستفادة من معارك عام ١٩٦٧ خصوصاً تلك المتعلقة بنقاط الضعف والقصور من جانبنا.

وكانت أولى الدراسات العسكرية الجادة من هذه الدروس قد ذكرت في معرض تقديمها لتحليل أسباب النكسة أن العدو الذي هاجمنا في ١٩٦٧ هو نفس العدو الذي هاجمنا من قبل عام ١٩٥٦ وعام ١٩٤٨ ولانقول أن هذا أسهل وأيسر لدراسته موضوعياً أو استخلاص الدروس المستفادة من معاركه معنا إنما نقول أن هذا أول صعوبة مما لو اختلف الوضع وأنه إذا حاولنا أن نتبين الدروس المستخلصة من عمليات ١٩٦٧ نجد أنها لا تختلف عنها عام ١٩٥٦ أو عام ١٩٤٨.

وفيما يتعلق بالدروس المستفادة من حرب ١٩٦٧ فإنها ذات شقين أحدهما يختص بالعدو والآخر يختص بقواتنا.

وفيما يتعلق بالعدو فلقد كانت أهم الدروس المستفادة مايلي :

أ) أن العدو يجيد الخداع والتضليل في تصرفاته وتصريحاته لإخفاء نواياه.

ب) أن العدو أكد بالدليل القاطع قولاً وعملاً أن نواياه توسعية وأن معركة ١٩٦٧ لم تكن – على حد زعمه – دفاعاً عن النفس ضد عمليات الفدائيين العرب.

ت) أن العدو يهتم اهتماماً شديداً بالحرب النفسية قبل وأثناء وبعد المعركة العسكرية مستعيناً في ذلك بجميع وسائل وطرق الإقناع التي قد تصل إلى استخدام القوة.

ث) أن العدو يعتبر الروح المعنوية هدفاً استراتيجياً يسعى إلى تحقيقه والمحافظة عليه بجميع الطرق والتي قد تصل إلى حد القيام بعمليات خاصة لذلك.

ج) أن العدو يهتم كثيراً بزيادة عدد مؤيديه من الرأي العام العالمي برغم عدم مشروعية مخططاته وأنه يستخدم في ذلك جميع الوسائل الدبلوماسية ويجند

أعداداً كبيرة من الكتاب والصحفيين والفنانين العالميين لهذا الغرض مستعيناً في ذلك بمخطط إعلامي ومدروس يخدم أهدافه ويدافع عن بطلانها.

ح) أن التفوق العسكري الإسرائيلي في معركة يونيو ١٩٦٧ أساسه التخطيط الجيد للمعركة والتدريب عليها وليس ناتجاً عن قدرة خارقة وأساليب قتالية جديدة أو مستحدثة وأن العدو في معاركه السابقة معنا كان يتفادى دائماً المواجهة المباشرة مع قواتنا.

أما فيما يتعلق بقواتنا فلقد كانت أهم الدروس المستفادة منها مايلي :

- أن كل خطوة نخطوها وكل عمل نقوم عليه يجب أن يكون مبنياً على أساس سليم ومدروس وبناء على تخطيط سابق ومنظم.
- أن التدريب المعنوي جزء لا يتجزأ من التدريب العسكري للأفراد وكلاهما ضروري لرفع الكفاءة القتالية للقوات.
- أن التربية الروحية ضرورية إلى جانب التربية المادية ـ وتسبقها ـ لبناء عقيدة سليمة من أجلها وعلى أساسها يضحي ويبذل الفرد جهداً ومالاً ودماً.
- أن القوات المسلحة لها مهمة واحدة فقط وهي التدريب والاستعداد وقت السلم والقتال وتحقيق النصر وقت الحرب.
- أن العبرة ليست بالسلاح وإنما بالرجال الذين يحملون السلاح وأن العبرة ليست بالعدد وإنما بالكفاءة والقدرة والإخلاص والجدية في التدريب.
- أنه من المحتم أن تتم دراسة العدو ـ استعداداً لملاقاته ـ دراسة موضوعية لتكتيكاته وأساليبه الدفاعية والنفسية وطبيعة حركته في المعركة.
- أنه من المحتم الاهتمام بأبسط المعلومات عن العدو ودراستها والاهتمام حتى بأبسط المعلومات عن قواتنا والمحافظة على سريتها وعدم إذاعتها.

- أنه من الضروري الاهتمام بوسائل الدعاية والإعلام ووضع خطة متكاملة من أجل خدمة أهدافنا السياسية والاقتصادية والعسكرية والعمل على كسب مزيد من الرأى العام العالمى إلى جانب القضية العربية.
- أنه من الضروري ومن المحتم أن يوضع الرجل المناسب فى المكان المناسب.
- أنه من الضروري حشد كل القوى الوطنية والقومية سياسياً واقتصادياً وعسكرياً حشداً فعلياً للوقوف أمام الأخطار المحدقة بالوطن.
- أن الحرب أثبتت أن أكثر من أربعة أخماس قواتنا لم تشترك فعلياً فى القتال وأن قواتنا المسلحة أثبتت قدرتها فى المواقف التى أتيحت لها فرصة القتال وجهاً لوجه مع العدو الإسرائيلي، كما أثبتت هذه المواقف قدرة المقاتل المصري على قهر العدو إذا واجه ظروفاً طبيعية ومتكافئة، للتدليل على ذلك الإشارة إلى معركة اللواء ١٤ مدرع فى منطقة جبل لبنى ومعركة اللواء ١١ مشاة فى العريش.
- أن الحرب ليست مجرد سلاح وإنما الحرب إرادة ضد إرادة وأن النصر يتحقق للطرف الذى يستطيع فى النهاية أن يفرض إرادته على عدوه.

ومع عودة الثقة بنتائج الاشتباكات المحدودة ووضوح الرؤية بتحديد الدروس المستفادة من النكسة رأت القيادة المصرية أن أفضل مناخ لإعادة البناء العسكرى فى هذه المرحلة، هو أن يتم تحت نيران المدافع وزئيرها واعتباراً من ٨ سبتمبر ١٩٦٨ بدأت القوات المسلحة المصرية مرحلة جديدة هى مرحلة الردع بعد أن تم بنجاح اجتياز مرحلة الصمود خلال الفترة من ١٠ يونيو ١٩٦٧ إلى ٨ سبتمبر ١٩٦٨.

وكان أبرز ملامح مرحلة الردع أنها تميزت بالقدرة على الضرب بشدة على يد العدو فى حالة اعتدائه على قواتنا المسلحة أو السكان المدنيين فى منطقة القناة. كما تميزت هذه المرحلة أيضاً بإعلان قواتنا المسلحة صراحة أنها ستقوم بتنفيذ سياسة

الدفاع الوقائي تلك السياسة التي تعني أننا سنقوم بتدمير مواقع مدفعية العدو وأسلحته الضاربة إذا ما شعرنا بأنه يستعد لعمل عدواني على المواقع العسكرية أو المدن الآمنة.

إن معركة المدافع الشهيرة في ٨ سبتمبر ١٩٦٨ تستحق أن نقف عندها قليلاً. ذلك أنها كانت أول معركة بعد عام ١٩٦٧ تشمل كل قطاعات الجبهة المصرية فلقد بدأ القتال في الساعة الرابعة من بعد الظهر عندما بدأ العدو في إطلاق نيران مدفعيته على مدينة السويس مستهدفاً المباني والمنشآت المدنية ولكن القيادة المصرية، الميدانية ـ كان اللواء أحمد إسماعيل في وقتها قائد الجبهة ـ قررت أن ترد العدوان بضرب مركز وشامل ليس في قطاع العريش وحده وإنما على طول امتداد الجبهة.

وقد أسفرت هذه المعركة عن خسائر فادحة للعدو في الأفراد والمعدات ولكنها أسفرت كذلك عن عديد من الحقائق والدلالات أهمها مايلي :

١) أن العدو كما اتضح من بياناته عن المعركة .. قد قبل وقف إطلاق النار بعد ساعة وخمس وثلاثين دقيقة من نشوب القتال ولكن القيادة المصرية لم ترد على هذا الطلب إلا بعد أكثر من ساعة وحين ردت فقد وضعت لأول مرة شروطاً لوقف إطلاق النار.

٢) أن خسائر العدو كانت فادحة فقد أسكتت معظم وحدات مدفعية الخط التكتيكي الأول له، كذلك لحقت به خسائر كبيرة على عمق بعيد في خطوط جبهته وكان من ابرز ظواهر المعركة تدمير ١٤ دبابة للعدو وكانت على طرف اللسان أمام بور توفيق، وكان جنود هذه الدبابات قد هجروها إلى المخابئ، أمام تركيز النيران فدمرت هذه الدبابات تدميراً كاملاً ومن المؤكد أنه لولا خسائر العدو الفادحة لما كان هو البادئ بطلب وقف إطلاق النار

٣) أن القيادة العامة المصرية وضعت شرطين لقبول إطلاق النار هما: أن يمتنع العدو عن أي دعم خلف النطاق التكتيكي ولو حدث أي تحرك من هذا النوع فإن

القوات المصرية سوف تفتح النار عليه كما أن القيادة أوضحت أنها سوف تباشر أعمال الدفاع الوقائي ضد القوات المعتدية التى توجه نيرانها إلى المناطق المأهولة بالسكان.

٤) أن الخسائر على الجانب المصرى كانت كلها خسائر طفيفة في الأرواح وذلك بسبب الكفاءة المتزايدة للدفاع المدنى .

ويبدو أن العدو لم يرتدع تماماً بما أسفرت عنه حركة المدافع وبدأ يجرب أسلوباً جديداً للاستفزاز مستغلاً فيه أسطورة التفوق الجوى الذى صنعته نكسة ١٩٦٧ حيث لم يكن العدو يدرك أن القيادة المصرية قررت أن ترد على استفزازه وتحديه في الوقت والمكان الملائمين.

ولقد حان الوقت بالفعل في الثانية من بعد ظهر الأربعاء ٢٣ أكتوبر ١٩٦٨ عندما اخترقت المجال الجوى المصرى أربع طائرات إسرائيلية من طراز ميراج من جهة الشمال ثم انحرفت غرباً لتدخل فوق المجال الجوى للإسماعيلية فتصدت لها الطائرات المصرية المقاتلة واتخذت الزاويا المناسبة بحيث أصبحت فوق طائرات العدو وخلفها بينما اتخذت الطائرات الإسرائيلية تشكيلاً ثنائياً : (اثنتان إلى أعلى وفى الخلف واثنتان إلى أسفل إلى المقدمة) وفى اللحظة المناسبة صوبت إحدى طائراتنا قذيفة أشعلت النار في إحدى طائرات العدو وهى الطائرة التي قفز منها قائدها بالمظلة ونجح في الهبوط على الضفة الشرقية وبعد لحظات انفجرت طائرته في الجو وتناثرت أجزاؤها وفي ثوان صوب أحد طيارينا نيرانه تجاه طائرة أخرى فأشعل فيها النار وانفجرت على الفور وبمجرد انفجار هاتين الطائرتين هربت الطائرتان الباقيتان.

وعندئذ دفع العدو بعدد آخر من طائراته إلى سماء المعركة فتصدت لها مجموعة أخرى من طائراتنا المقاتلة وأصابت طائرتين انفجرت إحداهما على الفور وقد انتهت المعركة بعد أن استغرق الاشتباك بالنسبة لبعض طائراتنا ٦ دقائق وامتد إلى ٨ دقائق مع البعض الآخر.

واضطر العدو أن يعترف بسقوط إحدى طائراته فقط ـ تلك التى سقط حطامها على الضفة الغربية للقناة ـ وكان الاعتراف من جانبه بصرف النظر عن إخفاء الحقيقة ـ وهو مؤشر لبداية القناعة لدى العدو باهتزاز أسطورة التفوق النوعى، كما كان لهذه المعركة أثرها البالغ فى استعادة الطيارين المصريين لثقتهم بأنفسهم.

وأدركت إسرائيل أن مصر جادة تماماً فى سياسة الدفاع الوقائى وأن ذلك يكلفها خسائر فى الأفراد أقوى من احتمالها ومن ثم بدأت فى عملية الساتر الرملى على امتداد القناة كلها وخلف الساتر الرملى بدأت فى إنشاء خط التحصينات الرهيب الذى اصطلح على تسميته باسم خط بارليف نسبة إلى حاييم بارليف رئيس الأركان الإسرائيلى آنذاك.

وقد نجح العدو فى إتمام هذا الخط تحت ظل الحماية الجوية، وقررت القيادة المصرية أن تبدأ ـ فى ضوء هذه المتغيرات الجديدة ـ مرحلة من العمل العسكرى الأكثر فاعلية ونشاطاً ووضعت فى اعتبارها ضرورة تدمير هذا الخط الدفاعى وإحداث أكبر قدر ممكن من الخسائر فى أفراد العدو وكسر حائط الخوف والرهبة عبر القناة.

وقد دخلت الخطة الجديدة موضع التنفيذ اعتباراً من ٨ مارس ١٩٦٩ حيث بدأت المدفعية المصرية قصفاً شديداً ومتواصلاً بصورة يومية ضد مواقع العدو فى خط بارليف، وفى نفس الوقت بدأت سلسلة من العمليات الانتحارية ليلاً ونهاراً داخل مواقع العدو وبلغت حد العبور والاقتحام بأكثر من سرية، ولم تفلح غارات العدو الجوية المكثفة فى وقف طوفان الاستنزاف المصرى لقواته.

وفى ظل هذه العمليات المجيدة وتحت لهيب نيرانها بدأت مراحل العمل داخل وخلف خطوط العدو إلى الحد الذى يمكن القول فيه ـ بغير مبالغة ـ أنه منذ بداية حرب الاستنزاف وحتى نشوب حرب أكتوبر فإن أرض سيناء الطاهرة لم تخل قط من رجال الاستطلاع المصريين العاملين خلف خطوط العدو وإن كانت نسبتهم قد انخفضت ـ وذلك أمر طبيعى ـ خلال فترة وقف إطلاق النار السابقة على حرب

أكتوبر وكانت مهمة دوريات الاستطلاع المصرية تتجاوز أكثر من مجرد الملاحظة وجمع المعلومات، كان عليها أن تنصب الكمائن وأن تحصل على الأسرى كمصدر من مصادر المعلومات التي كانت قواتنا بحاجة ماسة إليها في هذه الفترة.

وقد وقع أول أسير إسرائيلي بعد حرب ١٩٦٧ وهو النقيب دان أفيدان شمعون في يد قواتنا يوم ١٤ ديسمبر ١٩٦٩ ـ بواسطة كمين نهاري في منطقة سرابيوم أسفر عن تدمير عربة جيب وقتل جنديين.. الكمائن النهارية تتوالى وبدأ الأسرى الإسرائيليون يقعون في أيدي رجال الاستطلاع تباعاً.

ولم يكن تجميع المعلومات أو الحصول على أسرى ـ كمصدر خصب للمعلومات ـ هدف هذه الكمائن والدوريات كما أسلفت، وإنما كانت هناك مهمة أخرى كان على هؤلاء الرجال أن يستخلصوا مع قياداتهم الدروس المستفادة من قتالهم مع العدو.. تلك الدروس التي كانت موضع اعتبار عند وضع خطة عمليات ٦ أكتوبر فقد أوضحت كمائن إغارات حرب الاستنزاف عديداً من الدروس المستفادة أهمها :

١) أن العدو لايضع في اعتباره إمكان مهاجمته نهاراً ومن ثم فقد تحققت المفاجأة أكثر من مرة بمهاجمته في وضح النهار لأنه لايعتبر أبداً.

٢) لقد ثبت أن العدو لايتمكن من إبداء أية مقاومة تذكر عندما يفاجأ بالهجوم ورغم تدخل احتياطاته ضد معظم الكمائن والإغارات إلا أن دوريات الاستطلاع المصرية تمكنت من تنفيذ مهمتها بالسرعة والدقة المطلوبتين ومنع الاحتياطي من التدخل تحت ظلال مظلة التأمين المصرية بالقصف المدفعي.

٣) أن العوامل الرئيسية في نجاح كمائن وإغارات دوريات الاستطلاع تعود أساساً إلى السرية الكاملة والدقة في التخطيط وحسن الانتخاب لمنطقة الكمين وإحداث المفاجأة بوسائل الخداع ـ والسيطرة الكاملة على أعمال الكمائن بواسطة القيادات الميدانية المتخصصة وأهم من ذلك كله هو الاستطلاع المسبق الجيد للهدف والتسليح.

٤) أن الوسيلة الوحيدة لتحطيم خط بارليف هى الاقتحام المباشر بواسطة أفراد المشاة.

مع تزايد درجة الثقة لدى المقاتل المصرى فى العبور والاقتحام ومواجهة العدو داخل دشم ملاجئ خط بارليف كان بناء القوات المسلحة يسير هو الآخر بسرعة منذ أن تولى اللواء محمد حسنى مبارك مسئوليته كرئيس للأركان ثم كقائد للقوات الجوية.

وإزاء النجاح الذى حققته سلسلة العمليات المصرية الخاصة لجأ العدو إلى توسيع نطاق رده وبدأ منذ ديسمبر ١٩٦٩ فى محاولة ضرب العمق المصرى وكان ذلك إيذاناً ببدء أروع ملحمة من ملاحم الإعداد المصرى لحرب أكتوبر "ملحمة بناء شبكة الصواريخ المضادة للطائرات، التي أثبتت وجودها تماماً ـ فى أسبوع تساقط الفانتوم ـ لتبدأ مرحلة جديدة وهامة لنقل استعدادات وتدريبات القوات من مجرد العمليات المحدودة إلى التجهيز للعملية الاستراتيجية المشتركة فقد كانت القوقعة قد نجحت في تكوين صدفتها في النهاية !



الفصل الخامس
عبقرية العقل المصرى

وربما يكون ضرورياً أن نطرح هنا بعض تصورات كبار الكتاب الاستراتيجيين العالميين لمفهوم ومعنى الاستراتيجية فالجنرال أندريه بوفر مدير معهد الدراسات الاستراتيجية الفرنسي يقول عنها إن الاستراتيجية هى فن استخدام القوة للوصول إلى أهداف السياسة "والمؤرخ العسكرية البريطاني الشهير ليدل هارت يقول: "إن الاستراتيجية هى فن توزيع واستخدام مختلف الوسائل العسكرية لتحقيق هدف سياسي معين".

وبصرف النظر عن الخلافات اللفظية فى تعريف الاستراتيجية إلا أن هناك اتفاقاً تاماً بين مختلف خبراء الاستراتيجية على وجود استراتيجيات متعددة بينها مثلاً الاستراتيجية السياسية والاستراتيجية الاقتصادية ومجموعة هذه الاستراتيجيات هو ما يعبر عنه باسم الاستراتيجية الشاملة والتى تكون دوماً خاضعة فى تخطيطها وتنفيذها لأعلى مستويات الحكم فى أية دولة.

وهذه الاستراتيجية الشاملة لإسرائيل هى التى كان يقصد الرئيس السادات ـ بقرار الحرب ـ أن يهزمها وأن يهزها هزاً عنيفاً.

إنهم فى إسرائيل بعد ٦ سنوات من معارك ١٩٦٧ قد بدءوا متصورين ـ وهماً ـ فى ظل استمرار حالة اللاسلم واللاحرب أن خطوط استراتيجيتهم تجاه مشكلة الشرق الأوسط باتت محصورة فى عدة نقاط وينبغى على إسرائيل أن تهيئ نفسها لتكريسها والدفاع عنها وهذه النقاط هى :

أولاً : تكريس واقع الاحتلال للأراضى التى تم الاستيلاء عليها فى حرب عام ١٩٦٧ وفرض الوجود اليهودى عليها.

ثانياً : تهيئة المناخ الدولى الرسمى والرأى العام العالمى الشعبى لقبول الأمر الواقع.

ثالثاً : لحماية هدف تكريس الاحتلال وجعله مقبولاً ـ دولياً ـ فإن على إسرائيل ألا تكف عن المطالبة باحتياجات أمن إضافية أخرى واستمرار العمل على الحيلولة دون نمو قوة عسكرية مؤثرة ابتداء من حملات التضليل والتحذير

وبلوغاً إلى إمكان اللجوء للضربة الوقائية لإجهاض أي عمل عسكري محتمل.

رابعاً : ضرورة توفير كل عناصر القوة عسكرياً واقتصادياً وسياسياً ودعائياً على المستويين المحلي والعالمي لتنفيذ خطوط هذه الاستراتيجية المرحلية دون الوصول إلى التزام كامل بحدود للدولة ضماناً لاستمرار مطالب التوسع.

وفي ضوء ذلك فإن إسرائيل يجب أن تظل في حالة استعداد دائم وكامل للحرب ضد العرب وأن تحول دون إمكان نجاح العرب في مفاجأتها أو مباغتتها.

وقد عمدت إسرائيل ـ بمساعدة فعالة من الصهيونية العالمية ـ إلى خلق مبررات هذا التعنت في موقفها من مشكلة الشرق الأوسط وما يترتب عليه من استمرار حالة التوتر في المنطقة بالادعاء بما يلي :

١) أن العرب يرفضون الاعتراف بوجودها ومازالوا مصممين على إبادتها ويرفضون إنهاء حالة الحرب معها.

٢) أن العرب ليسوا على استعداد لقبول حقيقة الوجود الإسرائيلي في شكل حدود ثابتة ومستقرة.

٣) أن الاعتداءات العربية المتكررة على إسرائيل واستمرار اتجاه الدول العربية لخلق بذور العداء ضد إسرائيل بين شعوبها هو الذي يؤكد حاجة إسرائيل المستمرة إلى أراض جديدة تستولي عليها لتأمين وجودها ولإبعاد نطاق خطر الإبادة عن تجمعاتها المكانية.

٤) أن إسرائيل محاطة بالأعداء من كل جانب وليس هناك استقرار في معظم الدول المحيطة بها ومن ثم فهي تخشى دوماً أن توقع اتفاقاً اليوم ثم ينهار غداً بفعل انقلاب أو ثورة تطيح بحكومة الدول العربية الموقعة للاتفاق معها.

٥) أن إسرائيل تعمل على رفع مستوى المعيشة في المناطق التي تحتلها وتساهم في تعميرها دون المساس بالحقوق الأهلية والمهنية لسكانها العرب إلا فيما يتعلق بضرورة الأمن والدفاع الاسرائيلية ... "وما أكثرها !!"

ولقد كان صانع القرار المصري يدرك تماماً أن أبعاد الاستراتيجية العسكرية الإسرائيلية التي تنبثق من استراتيجية العدو الشاملة والتي ينبغي عليه أن يهزمها تتحدد فيما يلي :

أ- أن إسرائيل لا تستطيع شن هجوم عسكري ضد العرب حتى ولو كان في إطار مايسمى بالضربة الوقائية إلا إذا توافرت له ظروف محلية ولقية كتزايد حدة الانقسامات العربية مثلاً وفي ظل مناخ دولي ملائم يسمح لهجومها بأن يكرس نتائجه.

ب- أنه في حالة توافر المناخ المحلي والدولي الملائم للهجوم فإن إسرائيل سوف تحتاج لفترة لاتقل عن أربعة أسابيع لخلق الأزمات وزرع بذور التوتر واختلاق المبررات التي تمهد للضربة الأولى من جانبها.

ج- أن العمل العسكري الإسرائيلي سوف يستلزم ضرورة جمع المعلومات الكافية عن القوات العربية وقدراتها لضمان عدم توجيه ضربة طائشة ـــ لو خابت ـــ سوف تكون نتائجها مدمرة على إسرائيل.

د- أن العمل العسكري الإسرائيلي سوف يتخذ من مسرح العمليات أبعاداً رئيسية ثلاثة هي المفاجأة والسرعة والمغامرة بحيث يتحقق لها في أقصر فترة زمنية هدف الاختراق والتطويق.

هـ- أن إسرائيل لديها القدرة على تحمل حرب طويلة الأمد لأن ذلك يعرض الاقتصاد والوجود الإسرائيلي لمخاطر لا يستطيع احتمالها أو استيعابها.

و- أن الاستراتيجية الإسرائيلية ترى أن الهزيمة لإسرائيل تعني الموت ومن ثم فلا خيار لخبراء الاستراتيجية الإسرائيلية في تخطيطهم إلا بين النصر أو الإبادة.

ز ـ أن إسرائيل ليست لديها القدرة على إلحاق هزيمة كاملة بالعرب ومن ثم فإن معطيات الاستراتيجية الإسرائيلية تقوم على أساس كسب معركة وراء معركة.

حـ ـ أن إسرائيل لا تقدر على المغامرة وحدها بشن حرب دون أن تضمن توافر الدعم العسكري والسياسي والأجنبي لها.

ولم تكن معطيات الاستراتيجية العسكرية ـ التي استهدف السادات هزيمتها ـ مجرد مجموعة من المبادئ اعتنقها الصهاينة وزينوها وفق هواهم وإنما جاءت هذه المعطيات كخيار وحيد لابديل عنه في ضوء مجموعة من الظروف التي تحيط بدولتهم المزعومة وهذه الظروف على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر هي :

١) أن إسرائيل لاتملك عمقاً استراتيجياً كافياً يمكنها من حرية الحركة والمناورة ويسمح لها بتبني نظام الدفاعات المتتالية.

٢) أن حجم القوى البشرية الإسرائيلية لا يقارن بحجم القوى البشرية العربية المحيطة بها.

٣) أن إسرائيل لاتستطيع الاحتفاظ بقوة عسكرية ضخمة طوال الوقت وإنما هي تكتفي بقوات عاملة محدودة الحجم بينما قوام الجيش نفسه من الاحتياطيين الذين تجرى تعبئتهم بأقصى سرعة عند الضرورة.

٤) أن القدرات الاقتصادية المحدودة للكيان الصهيوني لاتسمح له بالدخول في حرب طويلة الأمد أو تحمل خسائر فادحة في الأفراد أو إبقاء قوات كبيرة في الخدمة لمدة طويلة.

٥) أن إسرائيل لا تستطيع القتال في أكثر من جبهة واحدة في وقت واحد وإذا واجهت هذا الخطر فإنها تلجأ إلى حشد مجهودها الرئيسي في جبهة واحدة وتكتفي في الجبهات الأخرى بالمشاغلة والدفاع النسبي حتى تتفرغ من الجبهة

الرئيسية وتنتقل لباقي الجبهات تباعاً وتأخذ الجبهة الأكثر تهديداً لعمقها الأولوية في المجهود الرئيسي.

وكان صانع القرار المصري يدرك تماماً أن الهجوم خاصـة الهجوم غير المباشر يعتبر المبدأ الأساسي من مبادئ العسكرية الإسرائيلية وأن إسرائيل تبني جميع خططها وترسم كافة تصوراتها على أساس ذلك وأنها تبذل كل ما فـي وسعها لتحاشي فرض الوضع الدفاعي عليها أما إذا فقدت الحيلـة فـي ذلك فإن عليها أن تنتقل بسرعة من الدفاع إلى الهجوم.

والإسرائيليون يلخصون منطقهم هذا بالقول بأن الهجوم هو خير وسيلة للدفـاع وقد عبر عن ذلك حاييم بارليف رئيس الأركان الإسرائيلي السابق عندما صرح في عام ١٩٦٨ وكان يشغل وقتهـا منصـب رئـيس الأركـان ـ بقولـه : "لننـي مؤمـن بـأن استراتيجيتنا التي تحمل راية الهجوم خير وسيلة للدفاع هي التي ستشكل الحرب القـادة وأن هذا الأمر قد لايحدث في المرحلة الأولى من الحرب وإنني لا أقول بأن نقل الحرب سيكون في السـاعة الأولى ولكنني أقدر تماماً بأن جيش الدفـاع الإسرائيلي سيحارب أرض العدو في المستقبل أيضاً".

وكثيراً .. وكثيراً غير هذا من مفاهيم ومبادئ المذهب العسكري الإسرائيلي التي تشكل درع الاستراتيجية الشاملة لإسرائيل كانت ماثلة في ذهن الرئيس السادات عندما اتخذ قرار الحرب واستهدف به أكبر من مجرد الهزيمة العسكرية لإسرائيل وهو إلحاق الهزيمة الاستراتيجية بقادة الغرور الإسرائيلي.

ولذا فلم تكن خطوط الحركة التي رسمها الرئيس السادات لتكون منطلق عمل للمواجهة الشاملة سوى خطوط ذكية وهادئة وماكرة في مواجهة كل مستويات التحرك الإسرائيلي واستطاعت تلك التحركات الذكية الهادئة والماكرة أن تحقق للسادات ولأمته العربية ما أراد بأن تفرغ الاستراتيجية الإسرائيلية من مضمونها الحقيقي وأن تهزمها وتهزها هزا عنيفا.

ولكن كيف كان ذلك ؟

ماذا قال سعد مأمون لكبير الخبراء السوفيت ؟

خلال الاجتماع التاريخي للمجلس الأعلى للقوات المسلحة في نهاية عام ١٩٧٢ كان الرئيس أنور السادات يدرك تماماً وهو يتخذ قرار الحرب حجم المشاكل العويصة التي ستحتم على راسم الخطة المصرية أن يضعها في اعتباره وأن يعمل على تذليلها ولكنه كان يثق تماماً في أن الفكر المصري سوف يستطيع أن يجتاز كل عقبة وأن يحول مايتصوره الخبراء العالميون مستحيلاً إلى أمر ممكن.

لقد كان على راسم الخطة المصرية بعد أن صدر إليه أمر القائد الأعلى للقوات المسلحة أن يضع في اعتباره كل الاحتمالات المطروحة سواء عن طبيعة تمركز للعدو أو حدود ردود فعله المختلفة وكيفية تضليل العدو وحرمانه من اكتشاف نوايانا مبكراً .. الخ.

وفي البداية كان السؤال المطروح هو .. هل سيكون عملنا في إطار وحجم ما مارسناه من قبل في ظل حرب الاستنزاف أم أنه من الأفضل أن نفكر في تنفيذ عمل أكبر من هذا الإطار ؟

ولقد أجاب المجلس الأعلى للقوات المسلحة على هذا السؤال دون حاجة إلى نقاش طويل، كان هناك إجماع على أن حرب الاستنزاف قد استنفدت أغراضها فضلاً عن أن إسرائيل لن تقبل بممارستنا لاستنزاف حقيقي ضدها ومن ثم فإن الاختيار الوحيد أمام إسرائيل سوف يكون في إطار الرد بضربة قوية مؤثرة تصل إلى حد إجهاض هدف استنزافها فضلاً عما يمكن أن يشكله رد الفعل الإسرائيلي من تأثير على ماتم إنجازه في عملية إعادة بناء القوات المسلحة.

وقد أقر المجلس الأعلى للقوات المسلحة في اجتماع لاحق في ربيع عام ١٩٧٣ حدود العملية العسكرية بأنها عملية حربية هجومية ذات طابع خاص تتم بتنسيق كامل وفي إطار عمل مشترك مع الجبهة السورية.

وبعد تحديد الهدف من العملية بدأت دراسة تفاصيل هذه العملية وكيفية التغلب على المشاكل التي تواجه تنفيذها.

كان مفهوم العملية الحربية الهجومية أن تعبر القوات المصرية قناة السويس وتلك في حد ذاتها مشكلة.

وكان على قوات العبور المصرية أن تواجه بعد ذلك خط التحصينات الرهيب المعروف باسم خط بارليف وذلك أيضاً مشكلة !

وأهم من ذلك كله كانت هناك مشكلة رئيسية هي كيف يمكن أن نخفي نوايانا عن العدو ونحرمه من احتمال اكتشاف هذه النوايا والتمكن من تنفيذ ضربة وقائية تجهض مخططاتنا قبل ساعة الصفر ؟

وفيما يتعلق بالمانع المائي فإن قناة السويس تعتبر مانعاً مائياً فريداً له مواصفات خاصة بسبب الانحدار الكبير لشاطئيها مما يتسبب في إعاقة نزول أو صعود المركبات البرمائية إلا في ظل تجهيزات هندسية خاصة.

وفيما يتعلق بالساتر الترابي فقد كان ارتفاعه يتراوح بين ١٠ إلى ٢٤ متراً ودرجة انحداره على شاطئ القناة مباشرة تجعل من المستحيل على أية مركبة برية أو مائية اعتلاءه أو اجتيازه إلا بعد إزالته تماماً.

أما خط بارليف فإنه عبارة عن مجموعة من النقط القوية الحصينة جرى انتخاب مواقعها على طول القناة وفوق تخطيط مدروس ليسمح لها بإمكان التحكم في جميع الاتجاهات وحرمان أية قوة عبور من تنفيذ مهمتها بفعل درجة نيران كثيفة ومركزة.. هذا فضلاً عن أن خط بارليف جرى منذ عام ١٩٧١ تعزيزه بخزانات للمواد الملتهبة يسع كل واحد منها ما يساوى ٢٠٠ طن من المواد الملتهبة على مسافات متقاربة بحيث يمكن للعدو أن يدفعها فوق سطح الماء ثم يشعلها فيتحول سطح القناة إلى حمم ملتهبة تحرق كل شيء.

وبنظرة عملية مبسطة فلقد كانت صورة الموقف أمام راسم الخطة المصرية تتحدد خطوة بخطوة في شكل مشاكل ينبغي البحث لها عن حلول وعلى سبيل المثال مايلي :

أولاً : أن العدو محصن تماماً في خط بارليف الذى لايمكن بنيران المدفعية لأن نيران المدفعية لا تؤثر فيه.

ثانياً: أنه لايمكن استخدام الطيران المصرى ضد مواقع خط بارليف من الناحية العملية لأن القوات المصرية تتركز على بعد ٢٠٠ متر من هذه المواقع "عرض قناة السويس".

ثالثاً: أنه فضلاً عن انحدار شاطئ القناة ومشاكل المد والجزر فيها واختلاف سرعة التيار من منطقة لأخرى فإن الساتر الترابي المرتفع الحاد الانحدار قد أثبتت كل التجارب استحالة إزالته بواسطة أقوى ضربات المدفعية وأشدها تركيزاً.

رابعاً : أن المجهود الحربي المصرى لا يملك العدد الكافي من طائرات الهليكوبتر التي تسمح باجتياز هذه العقبات ونقل القوات المصرية مباشرة إلى مواقع عملها فوق الضفة الشرقية لقناة السويس.

خامساً : أن الوسيلة الوحيدة لعبور القوات المصرية لقناة السويس تكون بواسطة أفراد المشاة المترجلين.

سادساً : أن أقصى مايستطيع أن يحمله فرد المشاة عند عبور القناة هو بعض أنواع المدافع المضادة للدبابات حتى وزن ٣٥٠ كجم مثل الـ ب-١١ وابتداء بـ "آر. بي. جي٧" مع العلم بأن أقصى مرمى لهذه الأسلحة لا يتجاوز ٦٠٠ متر.

سابعاً : أن وسيلة عبور المشاة للقناة سوف تكون قوارب من المطاط.

ثامناً : أن العدو أنشأ على كل ٢٠٠ متر من الساتر الترابي مربض دبابات لإمكان استخدامها ولا يظهر من هذه الدبابات المخندقة سوى مواسيرها.

تاسعاً: أن تجمع احتياطات دبابات العدو تتركز على أبعاد ٣، ٥، ٨، ١٥كم للقيام بالهجمات المضادة ضد القوات التي تعبر بالتعاون مع الطيران ونيران مدفعيته.

عاشراً: أن كل موقع حصين من مواقع خط بارليف مزود بموارد إشعال يصل حجمها في كل موقع إلى ٣٠٠ طن وأن هذه المواد الملتهبة تستطيع تحويل القناة إلى كتلة من النيران فضلاً عن أن العدو يقدر تماماً أننا سوف نعبر بواسطة قوارب من المطاط.

حادي عشر : أنه في ظل أحسن الظروف فإن الأسلحة الرئيسية لن تستطيع عبور القناة قبل مدة زمنية تتراوح بين ١٢ إلى ٢٤ ساعة وذلك يعني أن أفراد المشاة سوف يتحتم عليهم أن يقاتلوا وحدهم طوال هذه الفترة ضد طيران مدرعات وأفراد العدو. ولقد كان المخطط المصري يتمثل في ذهنه باستمرار آراء الخبراء العالميين الذين يقدرون حجم هذه المسائل ويصلون بها إلى درجة الاستحالة بما في ذلك خبراء الدول الصديقة. وعلى سبيل المثال فإن من بين الروايات التي لم تعد سراً أن أحد كبار الجنرالات السوفيت المبرزين زار الجبهة المصرية في فبراير ١٩٧٣ وتخطى الحد الأمامي للدفاع وشاهد بعينيه مواقع خط بارليف والساتر الترابي الرهيب، وكان يرافقه اللواء سعد مأمون، قائد الجيش الثاني أنذاك، وسأل الجنرال السوفيتي على قائد الجيش المصري قائلاً : "ما هذا الذي على الشاطئ الأخر من القناة ؟ هل فكرتم في كيفية اجتياز هذا الساتر وكم تقدرون من الوقت لاجتيازه ؟ ".

وصمت قائد الجيش الثاني المصري برهة وتذكر أن أسرار التخطيط للحرب القادمة ليست مادة للتداول والنقاش – ولو مع الأصدقاء – ومع ذلك فلقد دارت في ذهن القائد المصري عدة اعتبارات وقرر أن يفاجئ الجنرال السوفيتي بما يذهله فعلى الرغم من أن التخطيط المصري حتى ذلك الوقت كان يقدر أن مثل هذه العملية سوف تستغرق من ٧ إلى ٩ ساعات فإنه بادر الجنرال السوفيتي قائلاً: من ٣ – ٤ ساعات.

وكان القائد المصرى فى هذا يقدم إجابته نموذجاً يجمع بين السرية فى حفظ أسرار التخطيط وبين الخجل في ذكر الرقم الحقيقى وهو من ٧ إلى ٩ ساعات.

ورد الجنرال السوفيتى قائلاً : "إن ذلك مستحيل إن هذه الفترة "٣-٤ ساعات" سوف تكلفكم غالياً إذ كيف سيستطيع أفراد المشاة الحربيين الصمود أمام ضربات الطيران والمدرعات الإسرائيلية واستطرد الجنرال السوفيتى قائلاً : "عزيزى الجنرال مأمون أنكم بهذا تضعون أنفسكم في مأزق حرج فسوف تحاربون كما لو كنتم فى الحرب العالمية الأولى بينما سيحاربكم العدو بأسلوب القرن العشرين وأثارت هذه الردود حفيظة اللواء سعد مأمون فبادر الجنرال السوفيتى. قائلاً : "وهل لديك أنت حل آخر؟" فقال الجنرال السوفيتى : "لا ليس لدينا حل لهذه المشكلة العويصة" ورد اللواء سعد مأمون قائلاً : "الآن دعونا نفكر ونعمل ما فى جهدنا".

وبالقطع لم يصدق الجنرال السوفيتى – آنذاك – أن مصر تقدر أو حتى تفكر فى مواجهة هذا التحدى الرهيب وكان ذلك أيضاً أحد أسباب نجاحنا فى العبور لأنه لا العدو ولا الصديق يتصور أننا نستطيع! إن أسباب النجاح المصرية فى عملية العبور لم تكن وليدة حظ مفاجئ أو بركة حلت كما لم تكن ناشئة عن غباء العدو أو سوء تقديره.

كانت هناك أسباب كثيرة ترجع إلى جدية الإعداد وحذاقة التخطيط منذ اللحظة الأولى كان العاملون في القيادة العامة للقوات المسلحة يداً واحدة وقلباً واحداً وانصب كل الجهد على محاولة حل هذه المشاكل وتذليلها وفى سبيل ذلك كان قادة الجيوش يسألون الجنود آراءهم فى كثير من المشاكل.

كان هناك إجماع فى البداية على أننا كنا – وذلك محتم – سوف نعبر بالمشاة وسوف يمضي وقت طويل قبل أن يتم تعزيزهم بالمدرعات فلابد من توفير أكبر قدر من الحماية لهؤلاء الأفراد.

وكان الحل الوحيد والمطروح بإجماع الكل هو ضرورة توفير العدد الكافي من الصواريخ المضادة للدبابات بحيث يكون أساس الصمود في الفترة الأولى الحاسمة هو روح الرجال العالية وتسليحهم المضاد للدروع. وكان المشير احمد إسماعيل على في كل اجتماع يحاول طمأنتهم إلى أنه سوف يستطيع توفير هذه الاحتياجات لكي يستمر الإعداد بنفس درجة القوة والفاعلية ولكي تظل الروح المعنوية في فترة الإعداد للعمليات في نفس درجتها المرتفعة حماساً وعطاء ولكنه كان في حقيقة الأمر يخفي عنهم تفاصيل مشكلة نشأت مع الاتحاد السوفيتي حول توريد هذه الصواريخ الدفاعية. وليس سراً أن نقول أن جزءاً من الصواريخ المضادة للدبابات وصلت قبل بدء الحرب بأربعة أيام فقط.

وكان لابد للمخطط المصري أن يبحث عن وسيلة مساعدة من الضفة الغربية لتأمين العبور ولإبطال مفعول الساتر الترابي الذي يحجز عن قواتنا في الضفة الغربية من القناة إمكان رؤية ما يجري على الجانب الشرقي من القناة وعلى مدى عشر شهور كاملة من العمل المضني والشاق تم إنشاء مجموعة كبيرة من مصاطب للدبابات على شكل قباب عالية جرى انتخاب أماكنها بدقة وحساب بالغين خلف الساتر الترابي الذي أنشأناه على الشاطئ الغربي للقناة.

وكان على المخطط أن يبحث عن حل لإحدى المشكلات الرئيسية التي سوف تواجه فرد المشاة العابر في الموجات الأولى إذ أن أقصى ما يستطيع حمله من الذخائر لا يكفيه لأكثر من ٤ ساعات. واهتدى العقل المصري إلى حل قد يبدو بدائياً في فكرته لكنه عميقاً في نتائجه وتم تصنيع عربات جر تُعبأ بالذخائر وتُدرَّب أفراد المشاة على حملها على أكتافهم داخل قوارب المطاط وصعود الساتر الترابي بها.

وكان تقدير المخطط المصري يضع في اعتباره أن للعدو مميزات ينبغي حرمانه منها كما أن له عيوباً ينبغي استغلالها واستثمارها كأحسن ما يكون.

لم يكن أحد في القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية يكابر أو يضع رأسه في الرمال وإنما كان الكل يرى ويحسب ويقدر ومن ثم فقد كانت هناك قناعة بأن العدو

متفوق جوياً ومتفوق تكنولوجياً وأنه يعزز ذلك بتدريب دقيق سليم على أحدث الأسس والأساليب العلمية وأنه يعتمد اعتماداً رئيسياً على ضمان نجدات وإمدادات سريعة من الولايات المتحدة الأمريكية.

وكذلك لم يكن أحد في القيادة العامة للقوات المصرية المسلحة يضع العدو في أكبر من حجمه الطبيعي أو يصوره في شكل الغول أو الأسطورة .. كان الرجال القائمون على شئون القوات المسلحة يعرفون تماماً نقاط ضعفه على شكل عدة حقائق لايرقى إليها شك ومن بينها مايلي ـ استناداً إلى تصريحاتً المشير أحمد إسماعيل:-

- أن نتائج حرب ٦٧ جعلت خطوط مواصلاته طويلة ومرهقة ففي الشمال تمتد خطوط مواصلاته عبر الجولان كلها وإلى وراء مدينة القنيطرة وفي الجنوب تمتد خطوط مواصلاته إلى الشاطئ الشرقي لقناة السويس عبر شبه جزيرة سيناء كلها ثم إن خطوط مواصلاته تجاه الجبهة الأردنية تمتد بطول الضفة الغربية لنهر الأردن.
- أن الوضع الاقتصادي الإسرائيلي وظروف التعبئة لأفراد الاحتياطي تحول دون إمكان صمود العدو في مواجهة حرب طويلة وساخنة.
- أن ظروف القوة البشرية الإسرائيلية المحدودة تجعل العدو يراجع نفسه ألف مرة ومرة قبل التضحية بخسائر بشرية كبيرة. وترتيباً على ذلك فقد كان قرار المخطط المصري بأن تكون الضربة كبيرة ومشتركة بحيث تشمل الجبهتين المصرية والسورية في وقت واحد، وكان قرار المخطط المصري بأن يكون الهجوم المصري على طول المواجهة كلها بعرض يصل إلى ١٨٠ كم وليس في أحسن مناطق العبور فقط.

وكان ذلك يعني من وجهة نظر المخطط المصري ـ وقد ثبت بالفعل صحته ـ كما صرح المشير أحمد إسماعيل ـ يساعد على حرمان العدو من أهم ميزاته الاستراتيجية والتكتيكية.

في ذكرى هذه الأيام المجيدة لابد لأجيال جديدة أن تعرف الحقيقة، وأن تدرك أن الطريق إلى القتال لم يكون مجرد نزهة، وإنما كان تدريباً مكثفاً تدفقت فوق ساحاته بحور من العرق مختلطة بقطرات الدم.

كان العقل المصري يواجه أصعب اختيار من أجل وضع التصور الأمثل لمعركة ناجحة في ضوء إمكانياتنا المتاحة، وكانت البدائل تتوالى لصنع ابتكارات جديدة لاتخطر على بال أحد من أجل تذليل الصعاب التي تقف في طريق المهمة المقدسة، وإنجاز هدف العبور الذي كان هناك شبه إجماع بين معظم الخبراء العسكريين في العالم على أنه هدف مستحيل، إلا إذا قامر المصريون بعشرات الألوف.

كانت جراح الهزيمة القاسية عام ١٩٦٧ مازالت تستنزف الدماء والمشاعر على حد سواء .. وكانت حالة اللاسلم واللاحرب قد فرضت نفسها على الموقف وبدت وكأنها الأمر الواقع الذي لافكاك منه!

كان المناخ العام داخلياً وعربياً ودولياً قد فرض حقيقة لايمكن لأحد أن يتجاهلها أو يتهرب منها، وهي أن المعركة لم يعد ممكناً تأخيرها، وأننا إذا تأخرنا عن ذلك فقد لاتتاح لنا الفرصة قبل عشرات السنين !

كانت ضغوط الحرب النفسية ضد شعبنا وضد أمتنا قد بلغت ذروتها إلى الحد الذي قال فيه الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون في مايو ١٩٧٣ : "إنني لا أعرف أن مصر بلد عربي" بينما قال مستشاره لشئون الأمن القومي هنري كيسنجر "إن قضية الشرق الأوسط ليست بين قائمة الأولويات وأن العرب غير قادرين على الاهتمام العالمي بها بعد أن أصبحت أشبه بجثة هامدة".

كانت حالة اللاسلم واللاحرب قد طالت أكثر مما ينبغي، وكان المناخ العام في الداخل والخارج يكاد يوحي بأن مصر ليس بإمكانها أن تقدم على قرار خطير بشن الحرب وكسر وقف إطلاق النار خصوصاً إزاء عدو يتمتع بتفوق عسكري

وتكنولوجي متطور، ويستند إلى دعم وتأييد مطلق من أكبر قوة في العالم وهي الولايات المتحدة الأمريكية التي تلتزم بحماية إسرائيل سياسياً في الأمم المتحدة وعسكرياً في ساحة القتال.

كانت صدمة الهزيمة في يونيو ١٩٦٧ وما أعقبها من جرعات متزايدة من هواة التشفي والانتقام من الشخصية المصرية قد صنعت ما يمكن أن نسميه بحائط الخوف الذي استهدف في البداية هز ثقة الإنسان المصري في نفسه، ثم جرى تعزيز هذا الحائط بتضخيم مقصود في استحالة عبور واجتياز الموانع التي ارتكز بها الإسرائيليون على الشاطئ الشرقي للقناة.

كانت هناك حرب نفسية شرسة صنعت من قناة السويس حاجزاً مائياً يستحيل اجتيازه.. وخلف هذا الحاجز المائي الرهيب يمتد على طول الشاطئ الشرقي للقناة خط من التحصينات أطلق عليه اسم "خط بارليف" يتكون من سلاسل متصلة من المواقع الحصينة التي شيدت على غرار الحصون الشهيرة في الحرب العالمية الثانية مثل خط سيجفريد الألماني وخط ماجينو الفرنسي.

كانت حرب الاستنزاف قد استنفدت كل أهدافها بالنسبة لنا بعد النجاح في تحريك الصواريخ المضادة للطائرات إلى حافة قناة السويس بحسن استثمارنا السياسي لها عندما قبلنا وقف إطلاق النار في إطار مبادرة وليم روجرز وزير الخارجية الأمريكي في يوليو ١٩٧٠ وكان واضحاً لنا أن أية محاولة من جانبنا للعودة إلى حرب الاستنزاف سوف تقابل بهجوم إسرائيلي شامل لايقتصر على مجرد رد الفعل الانتقامي كما كان الحال عليه منذ معركة رأس العش الشهيرة بعد أسابيع قليلة من هزيمة يونيو ١٩٦٧ وحتى أسبوع تساقط طائرات الفانتوم في يونيو ١٩٧٠.

وكان لدى القيادة العسكرية المصرية إدراك كامل لكل عناصر التفوق التي يملكها الإسرائيليون عسكرياً وسياسياً.

وأيضاً كان لدينا إلمام كامل بكل عناصر الضعف التي تعاني منها إسرائيل.

وكانت العبقرية المصرية أمام اختيار بالغ الصعوبة يتمثل في كيفية تهميش عناصر التفوق الإسرائيلي من ناحية واستغلال نقاط الضعف من ناحية أخرى.

باختصار شديد كنا حتى الساعة الثانية وخمس دقائق من بعد ظهر يوم السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣ في وضع أليم بدأ يقترب تدريجياً من مرحلة المهانة إذا استمر العجز وتواصل السكوت.

ولكن إرادة القتال كانت عندنا في القوات المصرية المسلحة أقوى من هذه الموانع. وقد تجلى ذلك بوضوح في الابتكارات التي أفرزتها العقول المصرية في المبادرات الخلاقة التي واجه بها المقاتلون كل الظروف والتحديات الصعبة في ساحة المعركة.

ووسط كل هذا الظلام الدامس واليأس الخانق اتخذت مصر قرار الحرب في أكتوبر عام ١٩٧٣ !

كان القرار قرار أنور السادات .. وهذا سوف يظل مجداً مقيماً يحسب له على مدى التاريخ .. ولكن مسئولية التنفيذ كانت على عاتق رجال أوفياء نذروا أنفسهم لخدمة وطنهم وتحملوا بكل الشجاعة واجب وضع هذا القرار موضع التنفيذ دون أن يتعلل أحدهم بأن هناك نقصاً في المعدات أو عجزاً في الذخائر.

كان هناك في هذا الوقت قادة عظام في مختلف الأفرع الرئيسية استطاعوا أن يزرعوا في جنودهم روح القتال، وأن يثبتوا لهم أن الطريق إلى النصر يبدأ بأن يأخذ الرجال ثقة في سلاحهم، وأن العبرة ليست في نوعية السلاح، وإنما في الرجل الذى يحمل السلاح، لأن المقاتل إذا لم يكن واثقاً في نفسه فلن يحميه أى سلاح. وإذا كان واثقا من نفسه فإن أى سلاح في يده سوف يحميه.

وعندما حانت ساعة الصفر لم تكن هناك هفوة واحدة ولو بطريق الخطأ غير المقصود أو النسيان المحتمل في مثل هذه الشدائد.

كان كل شيء يتحرك وفقاً للخطة المرسومة التي تجري متابعتها لحظة بلحظة على الخرائط المرسومة فوق مسطحات الزجاج بعرض القاعة الرئيسية في مركز العمليات (رقم ١٠).

لقد نجحت ضربة الطيران الرئيسية التي كان يقودها رئيس مصر الآن محمد حسني مبارك بنسبة نجاح تتجاوز الـ١٠٠٪ واستطاعت أكثر من ٢٠٠ طائرة أن تضرب في توقيت واحد كل مراكز القيادة والاتصال والسيطرة للإسرائيليين في سيناء.

ثم تمهيد هائل بالمدفعية على طول امتداد الجبهة من بورفؤاد شمالاً، وحتى بورتوفيق جنوباً.

ثم بدأت موجات الهجوم العارم لحوالي عشرة آلاف مقاتل يركبون قواربهم المطاطية، ويعتلون صفحة مياه القناة تحت مظلة التمهيد النيراني للمدفعية المصرية.

وفي اندفاع ليس له مثيل، وبينما أيديهم تحمل الأعلام المصرية، بدأ الرجال يقتحمون المواقع الحصينة لخط بارليف بأجسادهم قبل سلاحهم.

وهكذا بدأت الحرب.. وبدأت مصر تاريخاً جديداً.

وبعد أقل من ٦ ساعات مثل تلك الساعات الست التي كانوا يعايروننا بها عام ١٩٦٧، كانت قد تحققت مجموعة من النتائج المذهلة.

كانت طلائع ومقدمات خمس فرق من المشاة قد نجحت في العبور إلى سيناء، وبدأت مهمة التحرير وزرع الأعلام المصرية.

كانت خرافة الجندي الإسرائيلي قد تحطمت وبرزت على السطح الحقيقة الثابتة على مدى التاريخ بأن الجندي المصري من أشجع الجنود وأكثرهم تحملاً وصلابة !

وبدأ العالم يفيق من غيبوبة الدعاية الإسرائيلية، ويدرك أننا قد نجحنا في كسر الجمود الذي كان يحيط بأزمة الشرق الأوسط !

وبدأت تتساقط داخل إسرائيل نفسها كل الدعاوى الباطلة، وفي مقدمتها المنطق المغلوط حول الحدود الآمنة !

وبينما كانت عجلة الحرب تواصل دورانها كان خبراء الاستراتيجية في العالم قد توصلوا إلى حقيقة مفادها أن خريطة الشرق الأوسط قد تغيرت منذ هذه اللحظة، وأن ما حاولت إسرائيل الترويج له على مدى ٦ سنوات لم يكن سوى ديكور مؤقت على حائط الزمن !

وكان الإسرائيليون أنفسهم أول من بدأ يفيق على هذه الحقيقة !

ومثلما حاولنا نحن في عام ١٩٦٧ أن نخفف من وقع الهزيمة بإطلاق تسمية "النكسة" شرب الإسرائيليون من نفس الكأس وأطلقوا على هزيمتهم اسم "التقصير" !

وبمجرد أن انتهت لجنة "أجرانات" ـ التي شكلتها حكومة إسرائيل لبحث أسباب الهزيمة ـ من مهمتها، حدث أول انقلاب سياسي في تاريخ إسرائيل، وأزيح حزب العمل عن دفة الحكم لأول مرة منذ إنشاء الدولة اليهودية عام ١٩٤٨ وجاء حزب الليكود.

وجاء مناحم بيجين ـ قطب المتطرفين والمتشددين ـ إلى سدة الحكم في إسرائيل لأول مرة وهو على قناعة بأن الخلاص الوحيد لإسرائيل من مأزق أكتوبر هو أن تسارع بقبول الحقائق الجديدة التي فرضتها الحرب.

والتقط أنور السادات الخيط وطرح مبادرة السلام التي رحب بها بيجين على الفور لتبدأ معركة شرسة على ساحة المفاوضات لاتقل ضراوة عن معركة العبور.

وحققت مصر أهدافها السياسية بالكامل واستردت كل ترابها الوطني بعد ملحمة رائعة من العمل السياسي بلغت ذروتها في ساحة التحكم الدولي لتسترد شريط طابا الذي كان يمثل آخر نقاط الرهان "الخائب" للمزايدين على نهج السلام المصري.

واكتشفت الأمة العربية ـ عامة ـ والشعب الفلسطيني ـ خاصة ـ أن النهج المصري هو النموذج الأمثل.

واتمش تيار الاعتدال الفلسطيني مصاحباً لنمو ملحوظ في قوة الانتفاضة الفلسطينية.

وجاء رابين إلى الحكم وكان هدفه أن يحمي إسرائيل من خطر الإنتفاضة التي لم تواجه إسرائيل مثيلاً على أمتداد تاريخها.

وكان القبول الإسرائيلي بالحقائق الجديدة في مصر مابعد ٦ أكتوبر ومابعد الانتفاضة هو الخيار الوحيد أمام إسرائيل، وهو ما أدى إلى الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية وبداية سقوط اللاءات الإسرائيلية.


الأعمال السياسية

على امتداد الجانب الغربي من قناة السويس كانت البلدوزرات والكراكات الخاصة بشركات المقاولات المدنية تعمل بصورة عادية تماماً.. بينما كانت أعداد كبيرة من الجنود المصريين تسبح في مياه القناة أو تستمتع بمص أعواد القصب تحت أشعة الشمس الدافئة.

وفي القاهرة كانت الأمور تمضي بصورة طبيعية على الرغم مما نشرته الصحف في عناوينها الرئيسية عن أنباء التوتر المتزايد على خطوط المواجهة حيث كان الانطباع السائد لدى رجل الشارع المصري أن مصدر التوتر هو الخشية من انتقام إسرائيل للعملية الفدائية في النمسا.

وبعيداً عن كل العيون كانت حركة غير عادية تجري تحت سطح الأرض على مشارف القاهرة في الطريق إلى السويس حيث مركز العمليات الرئيسي للقوات المسلحة الذي يقع تحت الأرض ويتم الوصول إليه عبر سلسلة من بوابات الحديد والصلب تفصل بين سلسلة من الممرات والدهاليز والسلالم، وتتصدره قاعة كبيرة أضواؤها، باهرة ألوانها بالخرائط الحية، والخرائط ليست ألواناً فقط ولكنها حركة متدفقة وحول القاعة مجموعة تمثل قيادات وأفرع القوات المسلحة كلها.. كل مجموعة وراءها خرائطها وأمامها أدوات اتصالها بكل الجهات.. وصدر القاعة يعلو بمنصة لهيئة القيادة العامة : وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة، ورئيس الأركان، ورئيس هيئة العمليات، وفي مواجهة المنصة وعلى الحائط المقابل مجموعة الخرائط الرئيسية التي تمثل الموقف العام مرسومة على مسطحات من الزجاج بعرض القاعة كلها..

الموقف في البر ..

الموقف في البحر ..

الموقف في الجو ..

الوضع على الجبهة السورية..

أجهزة الاتصال تدق والتليفون والتلكس.. أصوات في مناقشات سريعة.. لمسات ملونة تضاف على الخرائط المرسومة فوق مسطحات الزجاج وفقاً لتغييرات الموقف دقيقة بدقيقة..

وباختصار شديد كل ما في هذه القاعة مصري مائة في المائة في هذه اللحظات: الأشخاص.. الأدوات.. الأفكار.. الأماني.. الأحلام..

وفي الواحدة والربع ظهراً وصل الرئيس السادات في عربة جيب عسكرية إلى هذا المركز المتعزل تحت الأرض واتخذ مكانه على صدر المنصة الرئيسية وجلس إلى يمينه وزير الحربية ورئيس العمليات وإلى يساره رئيس الأركان ومدير المخابرات العسكرية.

وعلى الجانب الشرقي من القناة كان جنود اللواء الإسرائيلي رقم ١١٦ ينتشرون في قلاع بارليف وكان شعورهم بالثقة لاحدود له لأنهم جميعاً يعيشون في ظل قناعة بأن المصريين لن يستطيعوا مهاجمتهم، وفي هذا اليوم بالذات كان معظمهم في حالة ملل وصيام عن الطعام بمناسبة عيد الغفران، كما كانوا يعانون من الذباب الذي يحيط بمواقعهم، بينما راح عدد قليل منهم يلعب كرة القدم وقذف أحدهم الكرة إلى أعلى ساتر من الرمال خارج موقعهم الحصين جنوب القنطرة وجرى زميل له وراء تلك الكرة وركض ثم استدار لينظر إلى القناة ولكن سرعان ما انبطح أرضاً وإذا به يصيح "ميج ـ ميج" في الوقت الذي كانت فيه مجموعة من طائرات الميج ٢١ المصرية تتجه على ارتفاع منخفض نحو عمق سيناء، وكان الوقت عند ذلك هو الساعة الثانية وخمس دقائق بعد الظهر من يوم السادس من أكتوبر العاشر من رمضان..

٢٤٠ طائرة مصرية أو تزيد قليلاً انطلقت من مرابضها في عدد كبير من القواعد الجوية المصرية واتجهت صوب سيناء تقصف بعنف وبلا هوادة مجموعة من الأهداف الحيوية الإسرائيلية على امتداد شبه الجزيرة كلها ومستهدفة عدداً كبيراً من المواقع الرئيسية مثل مطارات المليز وبير تمادا وشرم الشيخ ومركز القيادة والسيطرة في أم مرجم ومركز الإعاقة والشوشرة الإلكترونية في أم خشيب ومركز القيادة المتقدم

في متلا ومجموعة من محطات الرادار المنتشرة من العريش شمالاً وحتى أبورديس جنوباً والمنطقة الحصينة القوية في قطاع شرق بورفؤاد التي تمثل رأس خط بارليف ونقطة الابتداء فيه.

وبينما كانت الطائرات القاذفة المقاتلة قد تمكنت بنجاح بالغ من ركوب أهدافها واختراق شبكة الدفاع الجوى الإسرائيلية الممتدة فى سيناء بدأت أكثر من ٢٠٠٠ وحدة مدفعية مصرية هديراً على طول المواجهة يساندها في ذلك لواء كامل من صواريخ أرض ـ أرض التكتيكية بعيدة المدى.

وكان صوت القذف المدفعي بالغ العنف إلى الحد الذى تلاشى فيه صوت الطائرات المصرية وهى تعبر القناة من الشرق إلى الغرب عائدة إلى قواعدها بعد أن أتمت مهامها.

وعندما عادت الطائرات المصرية إلى قواعدها تلقت وحدات الدفاع الجوى في غابة الصواريخ المصرية إشارة برفع القيود التي كانت مفروضة عليها والاستعداد للتعامل فوراً مع أية طائرات تظهر في السماء المصرية.

ووسط هذا الشريط المتلاحق من الأحداث كانت طلائع من رجال الصاعقة المصرية قد عبرت قناة السويس وبدأت في فتح الثغرات في حقول الألغام بينما أخذت الدبابات البرمائية تشق طريقها عبر البحيرات المرة.

وأعقب ذلك مباشرة ـ وبالتحديد في الساعة الثانية والثلث ـ عبور طلائع قوات المشاة بواسطة ١٢٠٠ قارب مصنوعة من المطاط، ولم تمض سوى عشر دقائق حتى كان هؤلاء الرجال قد نجحوا في رفع أول علم مصرى على الضفة الشرقية للقناة عند الكيلو ١١٩ شمال السويس في قطاع الجيش الثالث، ثم ما لبث الجيش الثاني أن أبرق لغرفة العمليات ببلاغ في الدقيقة ٥٦ بعد الثانية ظهراً بسقوط النقطة القوية للإسرائيليين في القنطرة شرق ورفع العلم المصرى عليها.

وبينما كانت موجات العبور المصرية بقوارب المطاط مستمرة على أشدها عبر القناة تحت زئير المدفعية وصهيلها كانت وحدات المهندسين المصريين قد نجحت

بإعجاز خارق في فتح الثغرات في الساتر الترابي بواسطة مدافع المياه، في حين انتهت مجموعات منهم بنجاح في إقامة ثلاثة رءوس جسور قوية عند القنطرة والإسماعيلية ومجموعة أخرى من المهندسين المصريين من تشييد مجموعة من الكباري والمعديات في زمن قياسي قدره ٥ ساعات فقط من بدء العبور وقبل أن يرحل آخر ضوء في يوم ٦ أكتوبر.

وقد حاول الجنود الإسرائيليون المتحصنون في قلاع بارليف أن يردوا الهجوم المصري بكل الوسائل المتاحة لديهم لكن لم تكن قد مضت سوى ساعة و ٢٣ دقيقة بالضبط على بدء القتال حتى كان أفراد الموقع الإسرائيلي الحصين عند الكيلو ١٩ جنوب بورسعيد قد أصبحوا أشبه بفئران داخل المصيدة من شدة الحصار المفروض عليهم فقد أطبق رجال المشاة والصاعقة المصريون على الموقع الإسرائيلي كفكي كماشة، وإن هي إلا لحظات حتى بدأت عملية اقتحام الموقع وبدأ الخط الحصين يتساقط موقعاً بعد موقع.

وخلال الساعات الست الأولى للحرب عبرت فرق المشاة الخمس قبل عبور الدبابات وإقامة الكباري، وعندما حل موعد أذان المغرب وقبل دقات ساعة الإفطار كان الجنود المصريون قد استولوا على أهم النقاط الحصينة في خط بارليف.

ولم يكن قد حل المساء بعد عندما كانت الاتصالات قد انقطعت تماماً بين معظم حصون بارليف وقيادة المؤخرة وانهار حائط الخوف ولم يعد عبور القناة مشكلة ولم يعد خط بارليف يشكل بالنسبة للقوات المصرية أية عقبة.

وعندما غربت الشمس كان جنود المشاة المصريون قد أتموا بنجاح إقامة ثلاثة رءوس جسور قوية عند القنطرة والإسماعيلية وشمال البحيرات المرة تعززها دبابات برمائية عبرت هي الأخرى قناة السويس.

وعندما حل الظلام امتدت عبر مياه القناة معدات إقامة الجسور وبدأت الوحدات الأولى من الدبابات القتالية الرئيسية تعبر القناة.

وقبل أن تنقضي أربع وعشرون ساعة على بدء الحرب وبالتحديد عند فجر السابع من اكتوبر كان الموقف في غرفة العمليات المصرية يؤكد من واقع البلاغات الرسمية من أرض المعركة حصيلة الـ ٢٤ ساعة الأولى من الحرب وهي : نجاح ٥ فرق مشاة مصرية قوامها ٨٠ ألف جندي في عبور قناة السويس والتقدم شرقاً إلى عمق يصل إلى ٥ كيلومترات والاستيلاء على ١٥ نقطة حصينة من مواقع خط بارليف، وفتح ٨٥ ممراً في الساتر الترابي تم إنجاز أولها في زمن قياسي قدره ٥٥ دقيقة واستكمل فتح باقي للممرات قبل أن تمضي على ساعة الصفر ٨٠ دقيقة، وتم إنشاء أكثر من كوبرى حقيقي وعدد من الكبارى الهيكلية ومجموعة كبيرة من المعديات فضلاً عن أعمال قتالية واسعة أهمها صد وتدمير ٢٢ هجوماً إسرائيلياً مضاداً قامت بها المدرعات الإسرائيلية وإسقاط ٣٢ طائرة إسرائيلية خلال ١٦ موجة هجوم ووصول مغارز الدبابات البرمائية إلى عمق سيناء عند مضيقي متلا والجدي ونجاحها في مهاجمة مطار تمادا، وقد تم ذلك كله خلال الـ ٢٤ ساعة الأولى من الحرب والتي شهدت في بدايتها نجاح الضربة الجوية المصرية في تحطيم وتدمير مطارات المليز وتمادا والسر وشرم الشيخ بالإضافة إلى مركز القيادة والسيطرة في أم مرجم ومركز الإعاقة والشوشرة الإلكترونية في أم خشيب ومركز القيادة المتقدمة في متلا ومركز القيادة التكتيكي في الشجرة وإصابة ٨ محطات رادار وثلاثة مواقع مدفعية بعيدة المدى وثلاث مناطق للشئون الإدارية و١٢ موقعاً للصواريخ .. عدا نجاح قوات الصاعقة في السيطرة على مضايق سيناء وتهديد الطرق والمحاور الرئيسية وتدمير قطع بحرية معادية أربع منها في شرم الشيخ والباقي عند الساحل الشمالي لسيناء.

ومن الواضح أن القوات المصرية صنعت في يومها الأول ما يشبه المعجزة.. وضد من ؟!.. ضد الجيش الإسرائيلي الذي صنعت منه نكسة يونيو ١٩٦٧ أسطورة صدقها العالم أجمع، وقد تصور بعض الخبراء العالميين في البداية أن ما حدث مجرد ضربة حظ صادفت المصريين بينما كان الإسرائيليون غافلين تماماً، وكان هناك شبه إجماع من الخبراء العالميين في الأيام الأولى للمعركة على أن إسرائيل سوف تملك

زمام المبادأة وترد المصريين على أعقابهم وساعدهم على ذلك استمرار نغمة الغطرسة الإسرائيلية التى عبر عنها ديان أول يوم فى المعركة بقوله : "إن هى إلا ساعات وسوف تنتهى من تعبئة قواتنا وسوف ندق عظامهم بعدها !".

ومع استمرار الحرب تأكد للخبراء العالميين أنهم أخطئوا تقدير القوة الحقيقية للجيش المصرى فى حرب أكتوبر كما تأكد لديان أنه كان يحلم ويهذى لأنه فى اليوم الثالث للحرب انهار وبكى فى مجلس الوزراء الإسرائيلى وأعلن أمام الوزارة الإسرائيلية أنه يستحيل رد المصريين مرة أخرى غرب القناة .. كان ديان قد تأكد تماماً من أنها خطة محكمة تم إعدادها ببراعة ونفذها الجنود المصريون باقتدار .. وتحت مظلة بارعة من الخداع.

إن النجاح المذهل لأحداث يوم العبور وراءه قصة عمل مكثف بدأ منذ إعادة بناء القوات المسلحة المصرية فى ١١ يونيو ١٩٦٧ ودخول مرحلة الإعداد النهائى قبل نهاية عام ١٩٧٢ ووراء ذلك حكايات وحكايات..

خلال أيام سبقت الحرب كان فى إسرائيل اتجاه واضح إلى منع أجهزة الإعلام الإسرائيلية من إمكان توجيه أى تحذير ومنع نشر الأنباء التى أشارت إلى نية مصر وسوريا للبدء بعمل حربى على نطاق واسع بصورة منتظمة وعن سابق إصرار ومحاولة المراسلين العسكريين الإسرائيليين الذين تجولوا فى خطوط وقف إطلاق النار واتصلوا بصغار الضباط خلال الأيام العشرة هذه تثبت ذلك.

مساء رأس السنة العبرية والموافق يوم الأربعاء ٢٦ سبتمبر وصل المراسل العسكرى لصحيفة معاريف المسائية للقيام بجولة فى مرتفعات الجولان واتضح له من الأحاديث التى أجراها مع الجنود والضباط هناك أنه انتقل فجأة من عالم السلام إلى عالم الحرب على حد تعبيره، وخلال ساعات الصباح من ذلك اليوم اتضح أن الاستعدادات السورية على امتداد خط وقف القتال فى مرتفعات الجولان عززت بقوات كبيرة جداً ونقلت المئات من الدبابات السورية إلى المنطقة الممتدة شرقى خط وقف القتال ووضعت المئات من بطاريات المدفعية الجديدة فى هذا القطاع وعززت مواقع

الجيش السوري بأعداد كبيرة جداً من سلاح المشاة وخلفهم تم استكمال شبكة دفاعية معقدة مضادة للطائرات مؤلفة من أنواع مختلفة من صواريخ سام وتلقت قوات الجيش الإسرائيلي على هذه الجبهة تعليمات للتأهب الأقصى وألغيت الإجازات وعادت السيارات التي وصلت إلى مرتفعات الجولان لنقل الجنود بمناسبة إجازة رأس السنة كما جاءت، وكان بالإمكان ملاحظة الدهشة على وجوه الجنود في مرتفعات الجولان جيداً: ماذا حدث فجأة؟ وخلال ساعات الصباح اللاحقة روى أحد الضباط أنه علم بأن الجيش السوري بأسره يحتشد على امتداد الحدود مع إسرائيل، ووضعت القوات المدرعة للجيش الإسرائيلي في مرتفعات الجولان في حالة التأهب القصوى.

في الوقت ذاته أقيم في تل أبيب حفل شراب بمناسبة رأس السنة حضره بعض رجال القيادة العليا للجيش الإسرائيلي من رتبة عقيد فما فوق وسمع ضباط القيادة الشمالية ـ الذين حضروا الحفل ـ الأنباء عما يجري في الهضبة فألغوا على الفور إجازات عيد الغفران وعادوا إلى وحداتهم.

وخلال ساعات الظهر من اليوم ذاته وصل إلى هضبة الجولان موشي ديان وزير الدفاع والجنرال إسحق حوفي قائد الجبهة الشمالية وقاما بجولة في مواقع الخط الأول للجيش الإسرائيلي والوحدة المدرعة المتمركزة هناك، وروى الضباط لوزير الدفاع ما شاهدوه بأم أعينهم على الجانب الشرقي لخط وقف القتال وقد أقرت هذه الشهادات معلومات الاستخبارات التي تراكمت فوق مكتب وزير الدفاع قبل ذلك ببضع ساعات وفي نهاية هذه الجولة أدلى ديان بتصريح سجله فريق من التلفزيون الأمريكي عن عمد ليصل إلى مسامع السوريين قال فيه: "آمل أن يدرك السوريون من جانبهم أن كل ضربة أخرى ستؤلمهم أكثر مما تؤلمنا ولا يوجد اليوم سبب خاص للنظر إلى الوضع بخطورة ولا للاستخفاف به أيضاً لا في الاستعدادات العسكرية وراء الحدود ولا في موقف السوريين السياسي، فالجيش والشعب السوريان بقيا متطرفين جداً".

وكان ديان يستهدف من تصريحه توجيه التحذير إلى حكام سوريا لكيلا يبدءوا الحرب خلال أيام العيد الثلاثة وكان التقويم السائد آنذاك لدى الجيش الإسرائيلي والذي

كانت تشارك فيه جميع الجهات أنه لن يحدث أى شيء خلال أيام العيد وعلى الرغم من ذلك وبسبب حذر قائد الجبهة تم تعزيز القوات المدرعة في هضبة الجولان ونقلت أطقم الدبابات التى كانت في الجنوب قبل الشمال جواً حيث أدخل رجالها إلى دبابات من احتياطي الطوارئ، وخرجوا بها لتعزيز القوات على خط الجبهة واستدعيت أيضاً وحدات المدفعية لتعزيز المدفعية في الهضبة.

وفي اليوم ذاته ذكرت بعض الصحف البيروتية أن وحدات من الجيش السورى أحاطت بخط الحدود في الجولان وأن قوات سورية كبيرة نقلت من خط الحدود المشترك بين سوريا والأردن إلى خط الجبهة مع إسرائيل.

ومساء ٢٦ سبتمبر عرض مراسل عسكرى الزيارة التى قام بها ديان إلى الجولان عشية العيد ومن ضمن ما كتبه خبر طلب نشره وعرضه على الرقابة العسكرية وكان نصه : تشبه حدود الجولان برميلاً من البارود وقد ينفجر في أية لحظة واتضح بعد فترة هدوء طويلة استمرت شهوراً أن السوريين قد يبادرون إلى أعمال عسكرية خلال أيام العيد الثلاثة ولكن هذا الخبر لم ير النور أبداً فقد حذفته الرقابة العسكرية الإسرائيلية ببساطة ولم تسمح بنشره.

وقد حاول بعض المراسلين العسكريين في تل أبيب الذين بلغتهم أنباء الحشود السورية أن يستوضحوا مغزى هذه الحشود وقال المتحدث باسم الجيش الإسرائيلى الذى كان خاضعاً آنذاك لشعبة الاستخبارات في الأركان العامة وموجهاً ومزوداً بآخر المعلومات من ضباطها في رده على بعض الأسئلة : "أن الحشد السورى ذو طابع دفاعي محض وأن التقدير المرجح هو أنه لن يحدث أى شئ".

وفي يوم ٢ أكتوبر تحدث أحد المراسلين العسكريين وكان قد اطمئن إلى تفسيرات المتحدث باسم الجيش الإسرائيلى إلى أحد كبار ضباط الجيش الإسرائيلى في هضبة الجولان وأخبره: بأن الحديث في تل أبيب يدور على أساس أن التحركات السورية تحمل طابعاً دفاعياً محضاً ويبدو أن التوتر وصل إلى ذروته وأخذ في الانخفاض.. وأجابه الضابط الكبير: لم نصل إلى الذروة بعد وسيعمل السوريين حتماً.. وكان هذا

آخر كلام قاله الضابط الكبير على مسامع صحفي، فقد قتل في اليوم الثاني للحرب مباشرة.

في هذه الأثناء أخذت تصل لإسرائيل معلومات عن حشود كبيرة في الجانب المصري فقد لاحظ رجال الاستطلاع في الجيش الإسرائيلي الموجودون في تحصينات القناة عن كثب الاستعدادات العسكرية المتزايدة التي تجري أمامهم ولوحظ استعداد متزايد هناك كما أن قافلة شاحنات من حاملات الصواريخ دخلت الإسماعيلية وكان ممكناً سماع هدير محركات المدرعات وراء الحواجز الترابية المصرية التي كانت تخفي في قطاعات معينة مايجري على الجانب الغربي من القناة وشوهد ضباط مصريون يرشدون قادة الوحدات كما شوهد جنود مصريون يتزلون إلى الماء ويقيسون ويضعون الأوتاد واقتربت شاحنة حاملة صواريخ من حافة الماء وأخذت الجرافات تعد مدارج العبور.

ووصلت إلى القيادة الإسرائيلية تقارير مشابهة تقول أنه ابتداء من يومي ٢و ٣ أكتوبر لوحظت حركة غير عادية وراء القناة دروع ومركبات بكميات هائلة وكان رد القيادة العليا في إسرائيل - بعد أن أرسلت مجموعة خاصة لمتابعة الحشود المصرية - أن ما يجري هو مناورة مصرية ضخمة ستنتهي في يوم الاثنين ٨ أكتوبر.

ويروى أحد كبار الضباط الإسرائيليين في سيناء: "عرفنا بما يجري في الجانب المصري وأبلغناه وكان الجميع يعرفون ذلك قبل شهر ونصف وعلمنا بدخول أعداد كبيرة من القوات المصرية إلى الجبهة وفي الأسبوع الأخير شاهدنا معدات برمائية أحضرت إلى الخط الأمامي فجأة. معدات كنا نعلم بوجودها. ولكننا لم نشاهدها بأعيننا قبل ذلك أبداً، وقد أبلغنا هذا الأمر، ومنذ بداية الأسبوع الذي سبق فيه رجال المدرعات للتحرك خلال بضع دقائق من الإنذار".

في يوم الاثنين ٢ أكتوبر علم الإسرائيليون بأن المصريون بدءوا بنقل الجيوش من منطقة القاهرة إلى منطقة القناة وشرح الناطق العسكري الإسرائيلي ما يجري فقال: "إنها مناورة يقوم بها الجيش المصري". وسمح للمراسل العسكري بالذهاب إلى الجبهة

عند قناة السويس حيث أجرى يوم الخميس ٤ أكتوبر حديثاً مع الجنرال مندلر قائد القوات المدرعة في سيناء وعدد من كبار القادة الإسرائيليين في سيناء واتضح له أن الجيش الإسرائيلي يتابع الحشود المصرية ولكن مدى ترجيحه لاحتمال بدء القتال كان منخفضاً جداً.

وقد سأل المراسل العسكري الجنرال مندلر: "ماذا سيحدث لو عبر المصريون القناة غداً صباحاً؟" وأجابه مندلر: "ستصدمهم قواتنا في خط المياه وخلال مدة لا تذكر تكون الحرب قد دارت في الجانب الثاني". كان ذلك هو جواب مندلر قبل نحو ٥٠ ساعة من بدء الهجوم المصري الذي أودى بحياته.

عشية الحرب الجمعة ٥ أكتوبر نشرت صحيفة معاريف الإسرائيلية في صدر صفحتها الأولى: "إن قوات الجيش الإسرائيلي تتابع بيقظة كل ما يجري في الجانب المصري وقد اتخذت التدابير لمنع المصريين مفاجأتها".

قبل الظهر من يوم ٦ أكتوبر كان جميع المراسلين العسكريين للصحف الإسرائيلية يجلسون في الاستراحة الملحقة بمكتب الجنرال الياهو زاعيرا رئيس شعبة المخابرات في رئاسة الأركان الإسرائيلية فقد استدعوا منذ الساعة الحادية عشرة إلى اجتماع عاجل كان من المقرر عقده بعد ساعتين وأدلى الجنرال زاعيرا بتوجيهات للمراسلين وهو يحاول أن يبدو هادئ الأعصاب قائلاً: "إن حرباً قد تندلع في أية لحظة" فجأة نحو الساعة الثانية ظهراً دخل مدير مكتب الجنرال زاعيرا إلى المكتب مسرعاً وسلم رئيس شعبة المخابرات ورقة حيث نظر فيها بصورة خاطفة وكأنه لم يهتم بما كتب فيها ثم قال كلاماً لمدير مكتبه دون أن يسمعه المراسلون العسكريون وسأل زئيف شيف المراسل العسكري لصحيفة هارتس مستطلعاً ما حدث فأجاب رئيس المخابرات: "لاشيء".

ثم واصل الرد على أسئلة المراسلين وكأن شيئاً لم يكن وبعد مضي دقيقة أو دقيقتين سلم مدير المكتب ورقة أخرى إلى الجنرال زاعيرا الذي ترك مقعده هذه المرة وغادر الغرفة ولم يعد إليها إلا ليعلن بقليل من الذعر: "انتهى الاجتماع".

وبينما كان المراسلون العسكريون ينتظرون المصعد في مبنى الأركان العامة في طريقهم إلى الخارج دهمتهم صفارات الإنذار التي هزت سماء تل أبيب مثلما دهمت كل مكان إسرائيل وهم في ذروة خلودهم إلى السكينة والراحة في يوم الغفران فقد بدأ العبور المصرى لقناة السويس وبدأت القوات السورية لجتياح مرتفعات الجولان، وفي اللحظة التي بدأ فيها العبور المصرى لقناة السويس وانهار وتصدع تحت وطأته خط التحصينات ـ الذي هو الخط الدفاعي على طول قناة السويس ـ انتهى أيضاً فصل الغطرسة والغرور في تاريخ الجيش الإسرائيلى فخط التحصينات لم يكن مجرد ثمرة الإبداع الروحي والعسكرى للجنرال بارليف رئيس أركان حرب الجيش الإسرائيلي في الفترة من ١٩٦٨ إلى ١٩٧١ وإنما تحول بمرور الوقت إلى مفهوم ورمز عالمي لقوة إسرائيل ومنعتها.

لقد مثل خط بارليف جزءاً كبيراً من الثقة الذاتية التي عمت إسرائيل وكرر الناطقون بلسان القيادة العسكرية والسياسية في إسرائيل خلال ٦ سنوات الإعراب عن رأيهم الراسخ بأن مصر لن تستطيع أبداً اجتياز هذا العائق ضد الدبابات وكان الخطأ في هذا التقدير أولاً وقبل كل شيء في أنهم لم يتنبئوا كيف ستتطور الحرب القادمة؟ بل ارتكزوا إلى حرب الأيام الستة كنموذج على الرغم من أن كبار القادة في المؤسسة العسكرية الإسرائيلية وعلى رأسهم ديان وبارليف طالما تغنوا دائماً بالصيغة القائلة: "إن كل حرب تختلف عن سابقتها، ولكنهم عجزوا عن تطبيق هذا المبدأ العام على الاستعدادات للحرب في جبهة قناة السويس. وكان من سخريات القدر أن حاييم بارليف الذي كان قد عين وزيراً للتجارة والصناعة بعد خلعه الثوب العسكرى عام ١٩٧١ دعي في أكتوبر ١٩٧٣ للعودة إلى الجيش أثناء الحرب وأرسل إلى الجبهة الجنوبية لإنقاذ الخط الذي يحمل اسمه.

لقد صادف وقت إطلاق النار في يونيو ١٩٦٧ تمركز مدرعات الجيش الإسرائيلي على طول الضفة الشرقية لقناة السويس باستثناء قطاع ضيق في شمالها حيث تفصل مستنقعات عميقة بين حواجز الرمل على طول القناة وبين مدينتي بور سعيد وبورفؤاد

وكانت تمتد وراء قوات الجيش صحارى شبه جزيرة سيناء وفي وسط إسرائيل وشماليها تمركزت قوات الجيش على بعد عشرات الكيلومترات من خطوط حدود إسرائيل القوية المنيعة والقابلة للاختراق وتغيرت بحكم هذه الظروف النظرية الأساسية المتعلقة بتحريك الجيش في حالة اندلاع حرب جديدة فقد تصور قادة المؤسسة العسكرية الإسرائيلية أنه من الآن فصاعداً لن يجد الجيش الإسرائيلي نفسه مجبراً على خوض القتال غربي قناة السويس. وكانت الجبهة المصرية هي المقصود أساساً فالمساحات الشاسعة في سيناء المثالية لحرب المدرعات أعطت قادة إسرائيل الثقة في أنه في حال بدء المصريين الحرب حتى دون إنذار كاف – كما حدث فعلاً في حرب أكتوبر – سيكون بإمكان إسرائيل مجابهة القوات المصرية وإبادتها في حرب دفاعية يعتبرونها أكثر سهولة وبما أن مثل هذه الحرب سوف تجري بعيداً عن التجمعات السكانية لإسرائيل فسوف يتوافر لجيشها مهلة من الوقت ومجال للمناورة لمجابهة المشكلة العسكرية دون أن تتضرر الجبهة الخلفية، ولقد كانت الجبهة الخلفية دائماً وأبداً هي نقطة الضعف في إسرائيل في زمن الحرب بسبب الخشية من سقوط ضحايا بين السكان المدنيين.

لقد كان تصور الحرب المستقبلية لدى إسرائيل صحيحاً نسبياً في أساسه النظري ولكن لم يتجسد في الميدان فعندما ثارت ضرورة اتخاذ قرار بشأن الخط الدفاعي الواجب اختياره رجحت الاعتبارات السياسية الكفة وكان الاعتبار السياسي الحاسم هو طموح إسرائيل إلى التشبث بحافة قناة السويس في محاولة لخلق حقائق محسوسة وملموسة توضح لمصر والعالم كله أن قناة السويس لايمكن أن تكون مفتوحة للملاحة الحرة إلا عندما تستطيع إسرائيل استخدام هذا الممر المائي الدولي.

ومن أجل تحقيق هذا الهدف كان لابد لقوات الجيش الإسرائيلي من التمركز على خط المياه فعلاً وفي البداية حفرت القوات خنادق على طول القناة في مواقع مرتجلة وعندما بدأت مصر حرب الاستنزاف وتوالت عمليات قصف الضفة الشرقية للقناة بأعداد ضخمة من المدافع عمقت الخنادق وأقيمت تحصينات أصبح الغرض منها

حماية الجنود المتمركزين على طول القناة. وكانت هذه حرباً ثابتة تعيد إلى الذهن في جوانب عديدة "حرب الخنادق" خلال الحرب العالمية الأولى. ومنذ اللحظة الأولى كان واضحاً أن مصر لا تنوي إيقاف حرب الاستنزاف التي كان مستهدفاً فرض طابعها على إسرائيل وظلت المبادرة كلها طول الوقت بيد مصر ورسمت هيئة الأركان الإسرائيلية الخطوات اللازمة بناء على الخطوات التي أملاها المصريون دون تدخل في الحسبان احتمال أن تَجُرَّ حرب الاستنزاف في أعقابها حرباً من نوع آخر وكان ذلك قمة الخداع والتكتيك المصري في استدراج الإسرائيليين.

وخلال سير حرب الاستنزاف التي راح ضحيتها مئات الجنود الإسرائيليين ظهرت الضرورة الملحة لتوفير حماية ملائمة للجنود الإسرائيليين على خط المياه، وهكذا فإن حرب الاستنزاف عقدت المفاهيم وشوهتها ودفعت إسرائيل إلى توجيه معظم الجهود والموارد لحل المشاكل التي أثارتها هذه الحرب ومن ثم نجم وضع أعدت إسرائيل نفسها فيه على خط المياه لحرب من أجل الهيبة السياسية نسي في مبانها تجاهل العديد من المبادئ التي وجهت النظريات الأمنية للجيش الإسرائيلي حتى تلك الفترة.

وإزاء وضوح استمرار عزم مصر ـ كما أعلن عبدالناصر ـ على الاستمرارية في حرب الاستنزاف بدأت إسرائيل بناء تحصينات تكون بمثابة مواقع دفاعية وكان الهدف إقامة مواقع قوية حول المحاور الأربعة الموصلة من القناة إلى داخل سيناء. إلى الممرات التي تقوم إلى أعماق شبه الجزيرة، وقد بنيت معظم التحصينات كمجموعات على صورة قبضات محصنة ليكون بإمكان كل منها تقديم تغطية للأخرى ومساندتها فبنيت مجموعة تحصينات في منطقة بورتوفيق في الجنوب في مقابل مدينة السويس وبنيت مجموعات أخرى في الوسط مقابل مدينة الإسماعيلية وبنيت مجموعة ثالثة مقابل مدينة القنطرة، وأقيمت شبكة تحصينات أقل كثافة على طول المحور الشمالي للقناة حتى مسافة ١٠ كيلومترات من مدينة بور فؤاد. وكان بناء هذه الشبكة الأخيرة من التحصينات أكثر تعقيداً من التحصينات الأخرى لأنها بنيت في منطقة

صعبة العبور. كما أقيمت عدة تحصينات أيضاً على طول ساحل البحر المتوسط على المحور المؤدى من بور فؤاد إلى رمانة.

وكانت شبكة التحصينات هذه البالغ عددها ٣٦ تحصيناً عبارة عن جزء فقط من شبكة معقدة طورت من سنة لأخرى وقد استغرق بناؤها شهوراً طويلة واستخدمت في العملية عشرات التراكتورات والجرافات والمعدات الثقيلة الأخرى وجلبت من شمالي إسرائيل بواسطة آلاف من سيارات اللورى كتل من الأحجار وضعت في شباك من الحديد لاستخدامها في بناء "طبقات تفجير" فوق الدشم وكان الهدف من طبقات التفجير هذه التي بلغ سمكها عدة أمتار هو الحيلولة دون نفاذ قذائف المدفعية الثقيلة داخل الدشم.

وازدادت هذه التحصينات تعقيداً بعد ذلك وتحولت إلى مساكن حقيقية مجهزة بكل وسائل الراحة: أجهزة اتصال متطورة، مكيفات هواء، مبردات، مواسير مياه، مخازن تموين، وقد بنى التحصين الذى بدأ من الخارج كقلعة من القرون الوسطى كدبابة عملاقة قادرة على القتال بصورة مستقلة وكان الجنود في التحصينات مزودين بقوة نيران كبيرة نسبياً يمكن تشغيلها بواسطة حفنة من الرجال، وكان التقدير أنه بإمكان كل تحصين كهذا الدفاع في مواجهة كتيبة مدرعة كاملة لمدة أسبوع.

وقد تحولت تحصينات بارليف بمرور الوقت إلى أغلى مساكن أقيمت في إسرائيل فقد أنفق على بناء كل تحصين عشرات الملايين من الليرات وعمل في إنشائها آلاف الأشخاص من المهندسين الإلكترونيين المتعهدين ومئات عديدة من الجنود المدنيين من مهن مختلفة.

وعندما استولى الجنود المصريين على هذه التحصينات انبهروا من وسائل الراحة المتوافرة للجنود الإسرائيليين فقد كان في كل حصن آلة عرض سينمائية وتليفون عام يمكن للجنود من الاتصال مباشرة وبسرعة بأسرهم في إسرائيل وكانت هناك في كثير من التحصينات نوادٍ مجهزة بأدوات رياضية وكانت أماكن إقامة جنود التحصينات داخل الدشم محصنة. كانوا ينامون على أسرة ذات طابقين كما في قمرات السفينة

وكان تحت تصرفهم كانتينات ومطابخ لمساعدتهم على تمضية فترة خدمتهم في قناة السويس في ظروف ترف مشابهة لتلك التي في قواعد السلاح الجوي. وبما أن القوات الموجودة في التحصينات كانت تستبدل وفق جدول زمني موضوع سلفاً فقد كان كثير من الجنود يتوقعون اللحظة التي يجيء فيها دورهم للخدمة في التحصينات وقد اعتادوا على القول: "هذا مثل بيت النقاهة".

مع بزوغ أول خيط من خيوط ضوء فجر السابع من أكتوبر كان الإسرائيليون رغم خسائرهم البالغة التي لحقت بهم طوال معارك الليل قد تمكنوا من حشد أكثر من ٢٠٠ دبابة دفعوها على ثلاثة محاور رئيسية:

- المحور الأول : على طريق متلا في اتجاه السويس.
- المحور الثاني : على القطاع الأوسط في اتجاه الإسماعيلية.
- المحور الثالث : على طريق الساحل الشمالي في اتجاه القنطرة.

ومنذ الصباح الباكر دارت معارك عنيفة استخدمت فيها الدبابات والمدفعية الثقيلة المتوسطة والبعيدة المدى وستائر المدفعية المضادة للدبابات واستمرت هذه المعارك ٤ ساعات و٢٦ دقيقة اضطر بعدها الإسرائيليون إلى التراجع خلفاً منسحبين بعد أن تركوا على أرض المعركة حطام ٨٨ دبابة و٦ مصفحات على محور متلا و٢٣ دبابة و٤ مصفحات على المحور الأوسط و٢٥ دبابة و١٥ مصفحة على مشارف القنطرة، وعلى المحاور الثلاثة كانت خسائر الإسرائيليين في الأفراد تتجاوز الـ٣٠٠ قتيل وجريح غير ١٢ أسيراً وقعوا في أيدي القوات المصرية.

ولم يكن تراجع الهجوم الإسرائيلي المضاد وفشله الذريع هو أهم ما أسفرت عنه معركة الفجر ولكن الشيء الأهم هو انهيار الروح القتالية لأطقم المدرعات الإسرائيلية بعد أن اكتشفوا أنهم يحاربون في غير الظروف التي صورت لهم من قبل نتيجة عجز الطيران الإسرائيلي عن حماية تقدمهم بفضل المقاومة الأرضية العنيفة التي كانت تطلقها شبكة الصواريخ المصرية في وجه أية محاولة إسرائيلية للنفاذ فضلاً عن عجز

الطيران الإسرائيلي عن حماية مدرعاته من القصف المصري المستمر بطائرات "الـ تي يو" الثقيلة بعيدة المدى المتمركزة غرب القناة.

وبينما كانت الدبابات تجري على أشدها كانت الطائرات المصرية قد استطاعت إنزال قوة مظلية كبيرة على الساحل الشمالي لسيناء وبدأت هذه القوة بتعاون مع القاذفات المصرية من طرازي ميج ٢١ وسوخوي ٩ وبتنسيق مع قطع الأسطول المصري من المدمرات والزوارق في ضرب كل محاولات الإمداد الإسرائيلية لقوات الهجوم الإسرائيلي الذي تبدد.

ولم يقتصر العمل الإسرائيلي المبكر في الساعات الأولى من صباح السابع من أكتوبر على هذا الهجوم البري المضاد وإنما كان هناك محور آخر للعمل الإسرائيلي .. فبعد مضي ٤٥ دقيقة على بدء الهجوم البري المدرع وبينما معارك الدبابات تستقطب كل انتباه حاولت ٧٦ طائرة إسرائيلية مهاجمة عدد من القوات الجوية المصرية في حوالي الساعة السادسة وأربع وعشرين دقيقة واستخدم الإسرائيليون نفس أسلوب الضربة الجوية المباغتة التي اتبعوها عام ١٩٦٧ تماماً حيث قدمت ٤٢ طائرة على ارتفاع منخفض للغاية فوق سطح البحر الأبيض المتوسط لمهاجمة مطارات المنصورة وطنطا وشبراخيت وجناكليس، بينما سلكت ٣٤ طائرة نفس الأسلوب بالطيران على ارتفاع منخفض فوق سطح البحر الأحمر لمهاجمة مطارات بني سويف والقطامية وبير عريضة.

وللحق فقد تمكنت الطائرات الإسرائيلية على محوري الهجوم من اختراق الأجواء المصرية دون أن تظهر على شاشات الرادار ومع ذلك لم تستطع أن تحقق هدفها في تدمير المطارات والطائرات المصرية، كما حدث عام ١٩٦٧ فلقد كان هناك بخلاف أجهزة الرادار الإلكترونية آلاف من رجال المراقبة بالنظر في الدفاع الجوي المصري المنتشرين على طول السواحل والمداخل تحسباً لمثل هذه المفاجأة "الطيران على ارتفاع منخفض" يحملون معهم أحدث أجهزة الاتصال بغرفة عمليات الدفاع الجوي

ويملكون ثقافة واسعة حول أسلوب تمييز الطائرات وتصنيفها سواء بمجرد النظر أو بسماع أزيز الطائرة.

ولهذا فعندما وصلت الطائرة الإسرائيلية إلى قرب أهدافها وظن طياروها أنهم نجحوا في الإفلات من شبكة الصواريخ والوصول إلى أهدافهم فوجئوا بنيران مكثفة ودقيقة تنطلق عليهم كالحمم منعت الطائرات الإسرائيلية من إلقاء حمولاتها فوق المطارات ولاذت بالفرار محاولة للعودة إلى قواعدها بعد أن ألقت حمولاتها بعيداً عن أهدافها ولكن طريق العودة كان يحمل للإسرائيليين مفاجأة أخرى .. مجموعة كمائن جوية مصرية باغتت الطائرات الإسرائيلية واشتبكت معها في معركة جوية قصيرة أسفرت عن سقوط ٧ طائرات فانتوم وإصابة ٩ طائرات أخرى وأسر ٣ طيارين.

ورغم الفشل الذي واجه الإسرائيليين في محاولتي الصباح المبكر براً وجواً إلا أنهم قاموا بمحاولة جديدة في حوالي الحادية عشرة من صباح اليوم نفسه "٧ أكتوبر" فقد دافعوا بدباباتهم ومدرعاتهم في شكل هجوم مضاد على نفس المحاور التي جرى عليها هجوم الفجر، ولم يستغرق هجومهم أكثر من ٣ ساعات لضطر بعدها الإسرائيليون إلى الانسحاب والارتداد خلفاً بعد أن تركوا وراءهم على أرض المعركة ٦٠ دبابة وسيارة مدرعة محطمة و١١ أسيراً.

وحينما كان الإسرائيليون يرتدون خلفاً بعد فشل هجومهم للكبير للمرة الثانية في اليوم الثاني للقتال كانت الطائرات المصرية تقوم بأعنف ضربة جوية منذ الضربة الأولى حيث قامت ٦٤ طائرة مصرية في الواحدة ظهراً بقصف المواقع والمنشآت الإسرائيلية في القطاعين الأوسط والشمالي والعودة بنجاح دون أن تتمكن الطائرات الإسرائيلية من اللحاق بها أو الاشتباك معها.

ولقد كان واضحاً من مدلول وقوع الهجوم المدرع المضاد على عمق يتراوح بين ٦ كيلو مترات و٨ كيلو مترات شرق القناة أن الإسرائيليين فقدوا تماماً كل وسيلة اتصال لهم بخط بارليف الذي سقط معظمه في اليوم الأول بينما بقيت نقطة حصينة تقاوم وتتحصن في الدشم المنيعة.

وقد اكتفى المصريون فى صباح اليوم الثانى للقتال بمجرد إحكام الحصار حول هذه النقاط التى لم تسقط بعد وعزلها تماماً عن أية وسيلة للنجدة أو الإمداد ولكن الأمر تغير تماماً عند الظهر فقد صدرت تعليمات جديدة من القيادة العامة للقوات المسلحة تقضى بمهاجمة باقى النقط وتصفيتها تماماً فقد تأكد للقيادة أن العجز المؤقت لهذه النقط فى الوقت الحالى يشكل فى مرحلة متقدمة من القتال شوكة فى ظهر القوات المصرية وفى أجنابها، ثم إن هذه النقاط التى لم تسقط تقوم بدور استطلاعى متقدم وتبلغ القيادة الإسرائيلية صورة دقيقة لكل مايجرى أمامها على شاطئ القناة، ولم يكن ذلك مجرد احتمال وإنما كان واقعاً وحقيقة فقد التقطت أجهزة التصنت والاستماع المصرية عديداً من الإشارات الصادرة من هذه النقط إلى القيادة الإسرائيلية وأهمها تلك التى صدرت فى التاسعة والنصف صباح ٧ أكتوبر من النقطة القوية جنوب الفردان إلى القيادة الإسرائيلية فى سيناء ونصها مايلى:

"الحصار أصبح محكماً حولنا من جميع الاتجاهات.. موقعنا وحده يحيط به أكثر من ٨٠٠ جندى مصرى.. طلبنا منكم بالأمس نجدة عاجلة بالمدرعات لفك حصارنا وتسهيل انسحابنا بأقل قدر من الخسائر.. الموقف الآن لا يستدعى إرسال أية دبابات فسوف يكون مصيرها الهلاك قبل أن تصل إلى مواقعنا لأن الدبابات والمصفحات والأسلحة المصرية الثقيلة تعبر القناة منذ فجر اليوم بكميات هائلة كما أن عبور المشاة المصريين مازال مستمراً بغزارة لانظير لها "..' انتهت البرقية!".

وقبل ذلك بـ٢٥ دقيقة فقط كانت المخابرات المصرية العسكرية قد التقطت إشارة استغاثة أخرى من نقطة لسان بورتوفيق عند الطرف الجنوبى لقناة السويس موجهة إلى القوات الإسرائيلية فى سيناء ونصها مايلى:

"الأمر بات مختلفاً تماماً عما كان عليه منذ ساعات فقد بدأت مئات الدبابات المصرية تأخذ طريقها إلى سيناء.. أين القوات الجوية الإسرائيلية ؟! فليس هناك وسيلة لوقف هذا الزحف سوى ضربة ضد المعابر والكبارى التى تصبها المصريون "..' انتهت الإشارة"!

ولهذا فمع حلول آخر ضوء لنهار السابع من أكتوبر بدأت فصائل المشاة والصاعقة المصرية في تنفيذ أمر القيادة العامة بمهاجمة هذه النقط التي لم تكن قد سقطت بعد في خط بارليف ودار قتال عنيف استخدم فيه كافة أنواع الرشاشات والأسلحة البيضاء واستمر طوال الليل في مواقع البلاح القنطرة والفردان وشمال الشط ولسان بورتوفيق وعيون موسى.

ولم يكن الإسرائيليون المحاصرون داخل نشم خط بارليف يعرفون أن قيادتهم قد اتخذت قراراً بعدم جدوى أية محاولة لإنقاذهم.. فقد زار موشى ديان مركز القيادة المتقدم في سيناء بعد ظهر السابع من أكتوبر واستمع إلى تقرير عن الموقف من الجنرال شموئيل جونين قائد الجبهة ثم أصدر ديان تعليماته قائلاً:

"إنه لايرى سوى حل وحيد لهذا المأزق الذى وضعت فيه إسرائيل.. إن القوات الإسرائيلية يجب أن تخلى بسرعة كل تحصينات خط بارليف وأن تنسحب إلى الخلف للمشاركة في بناء خط دفاعي ثان عند الممرات حتى يمكن إيقاف تقدم المصريين.. إن معارك الدبابات التي نخوضها حالياً لاجدوى منها ولاتفيد سوى استنزاف قواتنا".

وبعد أن انتهى ديان من كلامه ساد الوجوم وجوه كل القادة الإسرائيليين الذين استمعوا لقراره المفاجيء، وبعد دقائق قليلة كان كل ما قاله ديان لقادته في مقر قيادة سيناء بالحرف الواحد في داخل غرفة العمليات المصرية.. وكان له أكثر من دلالة وأعظم من مغزى!

ومع تزايد حدة الاستغاثات الصادرة من الجنود الإسرائيليين المحاصرين لم يجد الجنرال جونين مفراً من اتخاذ قرار منفرد مخالفاً تعليمات ديان وأرسل بعض الوحدات المدرعة لمحاولة إخلاء وسحب القوات المحاصرة، وتمكنت إحدى هذه الوحدات من الوصول بالفعل إلى مشارف موقع لسان بورتوفيق وأجرى قائد وحدة النجدة اتصالاً لاسلكياً مع قائد الموقع وطلب منه إخلاء الموقع ومحاولة اللحاق بالدبابات الإسرائيلية التي تنتظر على بعد ٢٠٠ متر من الموقع، ولم يكد قائد الموقع يرد على النجدة بالإيجاب حتى انهالت على الموقع الحصين وعلى نقط تمركز وحدات

النجدة الإسرائيلية حمم كثيفة من النيران المصريــة.. فقد كـانت أجهـزة الاسـتطلاع اللاسلكي والإلكتروني المصـريـة تتـابع الإشـارات الإسـرائيلية المتبادلـة لحظـة بلحظـة وتبلغها إلى القيادة مباشرة، وقد ترتب على ذلـك هـلاك كل أفـراد الوحـدة الإسـرائيلية المدرعـة بينمـا استمرت قـوة لسـان بورتوفيق قابعـة داخـل حصونهـا حتـى اضطـرت للاستسلام بكامل أسلحتها ومعداتها وبحضـور ممثل الصليب الأحمـر الدولـي يـوم ١٣ أكتوبر ولكن هذه حكاية أخرى!

ولم يقف ارتباك الإسرائيليين في اليوم الثاني للحـرب عنـد حـد يأسـهم مـن اسـتعادة خط بارليف وفشلهم في اختراق شبكة الدفاع الجوى أو عجزهم عن وقف تيار الزحـف المصـرى إلى عمق سيناء وموجـات الهجوم المصريـة المتلاحقـة علـى مراكـز القيـادة والتوجيه والمطارات الإسرائيلية وإنما زاد من ارتبـاكهم أيضـاً مـا كـان يجـرى بعنـف بـالغ فـى صخـور جنـوب سـيناء الوعـرة التـى احتلهـا رجـال الكومـاندوز المصـريـون وجعلوا منها مقبرة لكل مركبة إسرائيلية تحاول الاقتراب من هذا القطاع، وتحت مظلة السيطـرة المصرية على هذا القطـاع الحيـوى مـن سـيناء الـذى حـرم الإسـرائيليين مـن حرية المناورة والالتفاف لإمكان تطويق قوات الجيش الثالث المصرى قامت مجموعـة من المجموعـات المصـرية الخاصـة بقيادة الشـهيد البطـل إبراهيم الرفـاعى وبنـاء علـى تكليف مباشر من القائد الأعلـى للقـوات المسـلحة بمهاجمـة آبـار البـترول فـى بلاعيم وإشعال النار فيها فـى التاسـعة مـن مسـاء السـابع مـن أكتوبـر، كمـا قـامت المجموعـة بتحطيم وإغراق حفار إسرائيلى.

ولتذكر الآن آخر مرة رأيت فيها الشهيد إبراهيم الرفاعى فـى السـاعة السـابعة مـن صـباح اليوم التالى للعملية "٨ أكتوبر" وقد عاد إلى مقر القيادة بالقاهرة مسروراً لنجـاح العملية ومعه فيلم كامل لصـور الحرائـق المشـتعلة فـى بلاعيـم، ولكـن البيـان الخـاص بتنفيذ هذه العملية الجزئية لم يصدر إلا بعد ٢٨ ساعة من وقوعهـا لاعتبـارات خاصـة تتعلق بأمن عملية خاصـة أخرى.. ففي اللحظة التى اتفق على إذاعة بيان عملية بلاعيم كان إبراهيم الرفاعى ورجاله يهاجمون بجرأة نادرة الموقع الإسرائيلى الحصين شرق

بورفؤاد وبدأ هجومهم في الساعة الحادية عشرة وثلاث وعشرين دقيقة مساء ٨ أكتوبر نفس لحظة بيان عملية بلاعيم.

إن السابع من أكتوبر سوف يبقى يوماً مشهوداً ذلك لأنه اليوم الذى شهد معارك تثبيت وإنجاح عملية العبور كما شهد دحر كل محاولات الرد الإسرائيلي المضاد في البر والبحر والجو.

وبانقضاء هذا اليوم كانت كل الضفة الشرقية للقناة قد أصبحت في أيدي قواتنا تماماً واستسلم ماكان فيها من نقط قوية باستثناء نقاط لسان بورتوفيق والقنطرة شرق وبورفؤاد التي ظلت محاصرة تماماً.

كما شهد يوم ٧ أكتوبر أسر أعداد كبيرة من الإسرائيليين استسلموا داخل النقط القوية كما أسر آخرون بمركباتهم ومعداتهم وأسلحتهم.

وفضلاً عن ذلك كله استمرت القوات المصرية المسلحة في تدفقها عبر القناة وهي تقاتل بنجاح على طول خط المواجهة واستطاعت المدرعات والمشاة الميكانيكية التقدم إلى عمق وصل في بعض القطاعات إلى ١٢ كيلو متراً.

وبالنسبة لخسائر الإسرائيليين في ثاني أيام الحرب فوفقاً لأقل التقديرات خسرت إسرائيل على الجبهة المصرية ٤١ طائرة فانتوم وسكاي هوك وميراج و٨٠ دبابة و٤٦ سيارة مصفحة ومئات البنادق والمدافع الرشاشة التي تم الاستيلاء عليها سليمة تماماً مع مجموعة من العربات المدرعة والدبابات ولوحظ يومها أن طائرات الهليوكبتر الإسرائيلية وجهت مجهودها الرئيسي طوال اليوم لإخلاء جثث القتلى والجرحى من أرض المعارك، واستحق هذا اليوم أن يسميه الإسرائيليون في تقرير لجرانات عن الحرب بأنه كان يوم برقيات الاستغاثة ويوم الحصار!

طوال السنوات الست التي سبقت حرب أكتوبر كانت إسرائيل تبدو في نظر العالم قلعة عسكرية لايمكن هزيمتها وكان البعض قد بدأ يرى في موشى ديان القائد العسكري الأعور رمزاً ونموذجاً مجسداً للقائد العسكرى المنتصر الذى لايعرف

الخوف كما أن العمليات العسكرية التي قامت إسرائيل بها لمطاردة الفدائيين الفلسطينيين صورت مقاتلي الجيش الإسرائيلي في نظر الرأي العام العالمي "كسوبر مان" تتوارى أعمال جيمس بوند البطولية خجلاً أمام أعمالهم، وأصبحت أسطورة المخابرات الإسرائيلية التي تسمع دبيب النملة في كل مكان من العالم نموذجاً يحتذى خصوصاً بعد نجاح الغارة الإسرائيلية على قلب بيروت في أبريل ١٩٧٣ عندما تمكنت القوات المغيرة من الوصول إلى بيروت عن طريق البحر وتوجهت بالسيارات لاغتيال بعض زعماء المنظمات الفدائية مما ساعد على تضخيم صورة هذا الجهاز الاستخباري ليس في نظر العالم فقط بل في نظر الإسرائيليين أنفسهم أيضاً!

وفي القاهرة كانت العيون ترقب وتسمع ولاتتكلم.. كان الصمت والصبر.. صمت الواثق وصبر المؤمن.. فقد كانت الأجهزة المسئولة تنتظر اللحظة المناسبة لتكشف بعضاً من أوراق الجنود المجهولين في أجهزة المخابرات المصرية الذين كانت مهمتهم متابعة وتحليل كل نقاط الضعف في أسطورة المخابرات الإسرائيلية.. ويوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر وسنة بعد سنة وعملية بعد عملية كانت القاهرة قد ازدادت يقيناً وثقة فيما تراه وتعتقد به من المخابرات الإسرائيلية.. جهاز عادى صنعت منه تقصيراتنا في عام ١٩٦٧ شكلاً أسطورياً هو أبعد ما يكون عنه.

كان ما رأته القاهرة من فشل للمخابرات الإسرائيلية يتصاعد في خط بياني مواز للخط المتصاعد في تعرية السياسة الإسرائيلية دبلوماسياً وتقوية الجيش المصري عسكرياً وللنفاذ إلى قلب مصادر المعلومات الإسرائيلية استخبارياً وكانت سلسلة الفشل التي اعتبرتها القاهرة اختباراً حقيقياً لمدى قوة جهاز المخابرات الإسرائيلية تتمثل فيما يلي :

١) عملية الهجوم الفدائي الذي قام به ثلاثة من اليابانيين على مطار اللد الإسرائيلي في ٣١ مايو ١٩٧٢ والتي أسفرت عن مصرع ٢٤ شخصاً وجرح عشرات آخرين والتي لم يكن سوى هزيمة قاطعة لأسطورة المخابرات الإسرائيلية التي حاولت تبرير فشلها في معرفة ماحدث بالقول "إن هذه ظاهرة جديدة وأسلوب

جديد لم نعرف عنه شيئاً ولم نستعد لمثل هذا الهجوم المروع" وكان ذلك بدوره يعني فشلاً آخر هو أن الجهاز المفكر الذي يتولى تقويم أساليب العمل الممكنة للفدائيين وتحديد طرق مكافحتها يعاني من خلل جسيم بدليل أن أحداً من الذين كان يتوجب عليهم القيام بذلك لم يأخذ بالحسبان خروج الفدائيين عن خط أعمالهم المعروف بخطف الطائرات إلى الدخول إلى إسرائيل نفسها وتنفيذ عمليات داخلها. ثم إن ذلك أكد وجود ثغرة عميقة في جهاز الوقاية الإسرائيلي وانعدام الاستعداد والتأهب في قاعة الانتظار والتفتيش في مطار اللد.

٢) بعد أربعة أشهر فقط وقعت عملية الهجوم الفدائي الذي قامت به مجموعة من رجال منظمة أيلول الأسود في اليوم الحادي عشر لدورة الألعاب الأولمبية في ميونيخ باقتحام مبنى البعثة الإسرائيلية في المدينة الرياضية والتي أسفرت ـ بسبب محاولة الخديعة التي قامت بها سلطات الشرطة في بافاريا ـ عن مصرع ١١ إسرائيلياً وقد حاولت حكومة إسرائيل أن تلقي المسئولية على عاتق غيرها أيضاً في هذه الكارثة التي هزت إسرائيل أكثر من أي هجوم فدائي سابق وذلك بإلقاء المسئولية في نقص تدابير الأمن والحراسة على المدينة الرياضية في ميونيخ في حين أن المسئولية الأساسية كانت تقع على عاتق حكومة إسرائيل دون إزعاج إلى مبنى البعثة الأوليمبية الإسرائيلية كانت هزيمة نكراء لجهاز الأمن الإسرائيلي وفشلاً أمنياً خطيراً، وكان الأساس في كل هذا الفشل يكمن هنا أيضاً في تقويم جهاز المخابرات الخاطئ أن الصراع بين جهاز الأمن الإسرائيلي وبين المنظمات الفدائية وقد خرج في هذه المرحلة عن إطار القوة وأصبح تصارعاً بين العقول والمكائد وفي الوقت الذي يجهد الفدائيون فيه عقولهم لاستنباط أساليب جديدة لضرب إسرائيل لم يفكر جهاز الأمن الإسرائيلي مسبقاً في إمكان قيام الفدائيين بذلك.

٣) لم تمر ثلاثة أشهر أخرى حتى وقعت حادثة أخرى في نهاية ديسمبر ١٩٧٢ عندما سيطرت مجموعة من رجال منظمة أيلول الأسود على سفارة إسرائيل في

بانكوك عاصمة تايلاند واحتجزت بعض موظفي السفارة وبينهم سفير إسرائيل في كمبوديا كرهائن.

ولم تكن المفاجأة في الهجوم بحد ذاته بل في حقيقة نجاحه لأنه منذ كارثة ميونيخ عرفت المخابرات الإسرائيلية أن جميع مفوضيات إسرائيل في الخارج هي أهداف ممكنة لهجمات الفدائيين ولمحاولة الاستيلاء عليها وقد زادت بالفعل وسائل الحراسة والحماية على المفوضيات الدبلوماسية الإسرائيلية في الخارج واتخذت سلسلة كاملة من التدابير للحيلولة دون حدوث مفاجأة أخرى على غرار ميونخ ومع هذا فقد نجح رجال أيلول الأسود في اقتحام مبنى السفارة الإسرائيلية في بانكوك بسهولة مذهلة.

٤) وبعد أقل من شهرين أصيبت المخابرات الإسرائيلية بهزيمة أخرى ففي الحادي والعشرين من فبراير ١٩٧٣ أسقطت الطائرات الحربية الإسرائيلية طائرة ركاب مدنية ليبية كانت قد ضلت طريقها واخترقت شبه جزيرة سيناء وأدى ذلك إلى مقتل ١٠٦ من ركاب الطائرة المدنيين. وقد وقعت هذه المأساة المروعة التي أحدثت تحولاً حاداً في الرأي العام العالمي بالنسبة إلى إسرائيل – وقعت بسبب سلسلة من التقصيرات والأخطاء والتقديرات الخاطئة والحسابات المتسرعة التي أثبتت أن المخابرات الإسرائيلية فقدت توازنها من جراء العمليات الفدائية الناجحة.

٥) بعد خمسة أشهر بالضبط وبالتحديد في مساء السبت ٢١ يوليو ١٩٧٣ جرى في ضواحي القرية النرويجية "ليهامر" ماكان مفترضاً أن يصبح عملية تصفية أحد الزعماء الكبار في أيلول الأسود إلا أن هذه العملية أصبحت – على حد وصف مجلة "تايم" الأمريكية – مأساة من الأخطاء ألقت أضواء كئيبة على منفذيها ففي ذلك اليوم أطلقت النار على أحمد بوشيكي المواطن النرويجي من أصل مغربي بينما كان على عتبة بيته في "ليهامر" واتضح بعد موته فقط أنه لم تكن له صلة بالمنظمات الفدائية وأنه قتل على ما يبدو بعد أن شخص خطأ كزعيم منظمة

أيلول الأسود "حسن سلامة" فالبداية والغباء اللذان اقترنا بتنفيذ العملية التي كشفت السلطات النرويجية مسئولية المخابرات الإسرائيلية عنها أدت إلى إلقاء القبض على شبكة كاملة من عملاء المخابرات الإسرائيلية مازالوا حتى هذا اليوم معتقلين في النرويج.

٦) وبعد أقل من شهر وخلال الأسبوع الأول من أغسطس ١٩٧٣ أقلعت طائرات مقاتلة إسرائيلية نحو المجال الجوى اللبناني كانت متوجهة نحو العراق ثم أجبرتها على تغيير وجهة سيرها نحو إسرائيل حيث هبطت في مطار عسكري وبعد أن تم فحص جميع ركاب الطائرة سمح لها بالصعود إليها والعودة إلى بيروت، وقد أعترفت إسرائيل آنذاك بأنها اعترضت الطائرة اللبنانية خارقة القانون الدولي لأنها كانت لديها معلومات تفيد بأن جورج حبشي زعيم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين موجود على ظهرها.

وفضلاً عن الفشل المهين الذي واكب عمل المخابرات الإسرائيلية وأكد إمكان تضليلها واستغفالها فقد برهن عمل القرصنة هذا على سوء التقدير ومدى الارتباك والرعب.

٧) وبعد بضعة أيام من اعتراض الطائرات اللبنانية اختطف مجنون ليبي يدعى محمد التومي طائرة ركاب لبنانية من طراز بوينج كانت في طريقها من بنغازي إلى بيروت وأجبر قائدها على التوجه إلى إسرائيل وإنزال الطائرة من مطار اللد. ولعل القصة بأكملها تبدو مسرحية لولا أنه كان خلفها فشل وغباء إسرائيلي خطير جداً فعندما اعترضت الطائرة الليبية في سيناء كان أحد التعليلات لإسقاط الطائرة الخوف من أن تكون "مصيدة حية للفدائيين" الذين ينوون التوجه بها نحو إحدى المدن الإسرائيلية وتفجيرها هناك. وهنا عندما اختطف التومي الطائرة اللبنانية فوق قبرص وأمر قائدها بالتوجه نحو تل أبيب نجح في تنفيذ ما ادعى أنه غير قابل للتنفيذ فقد أخذ إذناً بالتحليق فوق تل أبيب دون أن يعلم أحد أن خاطف الطائرة شخص مجنون وبالمقدار نفسه كان بالإمكان أن يكون فدائياً فلسطينياً

ينوى تفجير الطائرات فى تل أبيب. وعلى الرغم من ذلك لم يخف أى شخص هذه المرة من هذا الاحتمال.

8) وقبل أسبوع واحد فقط من حرب أكتوبر وفي يوم 28 سبتمبر 1973 اختطف الفدائيون الفلسطينيون ثلاثة مهاجرين يهود من روسيا في أثناء مرورهم في القطار من تشيكوسلوفاكيا إلى النمسا. واحتفظوا بهم مشترطين لإطلاق سراحهم تعهد حكومة النمسا بتصفية معسكر الانتقال "شوناو" الذى يستخدم لاستيعاب المهاجرين اليهود من روسيا في طريقهم إلى إسرائيل وقد استجابت حكومة النمسا بالفعل لمطالب الفدائيين بينما كانت المخابرات الإسرائيلية ورجالها في النمسا في غفلة عن حماية المهاجرين.

ولم تكن هذه السقطة للمخابرات الإسرائيلية في النمسا سوى مسك الختام لسلسلة من السقوط والفشل كانت القاهرة تراها بعين يقظة ومفتوحة وفى ظل إدراك كامل في أن هذا الفشل وذلك السقوط لن يكونا الأخيرين في حرب المعلومات والمخابرات التي سوف تظل على أشدها مابقى الصراع العربى الإسرائيلى قائماً!


الفصل السابع
يوم انهيار الجنرالات

قبل ٦ أكتوبر ١٩٧٣ لم يكن يمر دون أن تنقل مصادر الأنباء العالمية تصريحات للقادة الإسرائيليين يتحدثون فيها بملء الثقة والغرور عن قوتهم التي لا تقهر وعن يقينهم بأن الفارق الشاسع بين القوة الإسرائيلية والقوة العربية لا يمكن تعويضه وبالتالي فإن الأمر كله في يد إسرائيل تتنازل عما تشاء من الأرض العربية المحتلة وتتمسك بما تراه ضرورياً لأمنها ربما لمزاجها النفسي والمعنوي ولقد صدق العالم تماماً ما كانت تروج له إسرائيل. بل إن شواهد كثيرة كادت أن تجعلنا نحن العرب نصدق الأسطورة ونتجاهل التاريخ.

ولكن بعد أن نجحت القوات المصرية في ٦ ساعات فقط في أن تحطم حائط الخوف وأن تعبر المستحيل ماذا قال الإسرائيليون وكيف كانت تعليقاتهم. وهل استمر غرورهم وصلفهم؟ .. في الحقيقة .. لا .. بل إن ما حدث كشف عن زيف الأسطورة وأثبت أن جنرالات إسرائيل ليسوا أبداً، هم العقلية العسكرية الجبارة التي صورتها دعايات الوهم عقب الانتصار الخاطف عام ١٩٦٧. فما هي إلا ساعات مضت على نشوب القتال وبدت تصريحاتهم تكشف حجم انهيارهم وتفككهم.. فالجنرال حاييم هرتزوج مدير المخابرات العسكرية الإسرائيلي السابق والمعلق العسكري المعروف يقول : "إنه للمرة الأولى منذ عام ١٩٤٨ يخوض الجيش الإسرائيلي حرباً دفاعية .. إن المعركة ليست سهلة وستكلفنا ضحايا بأعداد كثيرة".

ويمضي هرتزوج فيقول في تعليقه أن المبادرة ليست في أيدينا وستمر فترة على هذا الوضع حتى نعبئ قوات الاحتياط ومن الخطأ أن يستطيع الجيش الإسرائيلي أن يحارب حرباً جديدة طبقاً لأسلوب الحرب السابقة لأننا أصبحنا في وضع مختلف من ناحية العدو وقواته ومعداته والموقف السياسي بالإضافة إلى حدوث تغييرات في التكنولوجيا العسكرية.

وفي محاولة لتبرير حجم الخسائر الهائلة في الساعات الأولى من القتال أصدرت القيادة العسكرية الإسرائيلية بياناً بعد ١٠ ساعات من بداية الحرب قالت فيه أن القوات الإسرائيلية التي تقاتل على طول جبهة قناة السويس وجدت نفسها مشتبكة في نفس

الوقت في معارك أخرى مع الكومـاندوز المصريين الذين أنزلـوا فـي العمـق لقصـف الخطوط الإسرائيلية.

وهرع أبا إيبان وزير الخارجيـة الإسـرائيلية الـذي كـان موجـوداً بنويـورك ليعتلـى منصة الأمم المتحدة ويعلن من خلالها بعد يومين فقط من نشوب المعارك أن إسـرائيل تكبدت خسائر جسيمة في الأرواح.

ويعترف الجنرال شرئيل جونين قائد الجبهـة الجنوبيـة بهـول مـايرى بفضـل بسـالة الجندى المصرى ويقول أنه بعد ٢٤ ساعة على بدء المعارك يمكن القول بشكل أكيد بأن المعارك قاسية جداً وبالذات بسبب حشود المدفعية المصرية الضخمة بـالقرب مـن منطقة المواجهة ويعود حاييم هرتزوج مرة أخرى ليؤكـد مـدى الانهيـار الـذى أحدثتـه المفاجأة فيقول يوم ٨ أكتوبر: "إن الحملة الإسرائيلية لإلحاق الهزيمة بالعرب لن تكـون سـهلة أو سـريعة وإن القتـال كـان حتـى الآن مريـراً داميـاً وليس هنـاك شـك فـي أن الصـراع الذي يواجهنا ليس صـراعاً سهلاً لأننا لا نتعامل في اللحظة الراهنة مـع عـدو ضـعيف".

واعترف الجنرال أهارون ياريف مدير المخابرات السابق بأن شبكة الدفـاع الجـوى المصرى أسقطت عدداً كبيراً من الطائرات الإسرائيلية خلال الـ٢٤ ساعة الأولى من الحرب كما أن عدداً كبيراً آخر قد سـقط فـي معـارك جويـة مـع المقـاتلات المصريـة والسورية.

ونقلت وكالة رويتر يوم ١٠ أكتوبر عـن أحد كبـار الضبـاط الإسـرائيليين قولـه أن الحزن سيخيم على الإسرائيليين عندما نعلن عليهم الخسائر كلها، ومضى يقول إن هـذه الحرب ليست حرب ١٩٦٧ بل هي حرب قاسية وأن السوريين يقاتلون بضراوة بينمـا الإرهاق بدأ على وجوه الجنود الإسرائيليين. وبعد صمت دام أكثر من خمسة أيام منـذ بداية الحرب خرج كبيرهم موشي ديان ليقول في التلفزيون الإسرائيلي : "إن إسـرائيل تخوض الآن حرباً لم تحارب مثلها من قبـل سـواء عـام ١٩٥٦ أو عـام ١٩٦٧" وقـال ديان وكله أسي وحسرة: "هذه حرب صعبة .. معارك المدرعات قاسية ومعارك الجـو

فيها مريرة، إنها حرب ثقيلة بأيامها وثقيلة بدمائها". وأذاع راديو تل أبيب تعليقاً للجنرال حاييم هرتزوج قال فيه أن مصر تستخدم تكتيكاً جديداً في الحرب بقوات الكوماندوز. ونقل الراديو كذلك عن الجنرال كالمان قائد أحد المواقع في شمال سيناء قوله: "إن القوات المصرية الخاصة تدخل سيناء من كل مكان ومن كل اتجاه وبكل الوسائل بطائرات الهليكوبتر والقوارب وسيراً على الأقدام وإن هذه القوات تقاتل بشراسة وهي مسلحة بأحدث الأسلحة".

ونقلت صحيفة جيروزاليم بوست عن أحد كبار الضباط بالقوات الجوية الإسرائيلية قوله أن الدفاع المصري المضاد للطائرات يتمتع بقوة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الحروب تفوق تلك التي واجهها الأمريكيون في فيتنام.

ونتيجة لقصور وعجز في فهم ماجرى خرج الجنرال شوائل جونين قائد الجبهة الجنوبية ليقول أنه يبدو أن كميات الأفراد ضخمة وعمليات الهجوم والعتاد ضخمة والأسلحة المضادة للدبابات ضخمة كما أن أعداد الدبابات الأخرى ضخمة وأن هذا التكتيك الذي يتبعه المصريون يشبه تكتيك الصينيين في كوريا .. فهم يهجمون موجات وراء موجات.

وفضح أحد القادة الإسرائيليون الذين كانوا مسئولين عن خط بارليف حالة الانهيار التي وقعت لجنوده عندما صرح لمجلة شترن الألمانية بقوله أن القوات المصرية قد وصلت إلى هذا الخط عند اقتحامها له بسرعة لايمكن للعقل أن يعقلها وأن القوات المصرية صبت كميات غزيرة من النيران بصورة لم يشهدها من قبل على الإطلاق ومضى القائد الإسرائيلي يقول أن الجندي الإسرائيلي أذهلته المفاجأة ولم يفهم حقيقة ماحدث وعندما بات واضحاً أن أية محاولة لإعادة عقارب الساعة إلى الوراء هي محاولة يائسة وأن على الإسرائيليين أن يعترفوا بما حدث خرج ييجال آلون نائب رئيسة الوزراء عن صمته ليقول : "لقد انتهى ذلك العصر الذي كنا نبالغ فيه في ثقتنا بأنفسنا وانتهى أيضاً موقف الاحتقار والصلف الذي كنا نتخذه حيال العرب لأن هذا

العصر وذلك الموقف لم يعد لهما وجود .. لقد أظهر العرب استبسالاً وشجاعة وأحرزوا انتصاراً سياسياً ونجحوا في كسر جمود الموقف".

وعندما عاد أبا إيبان إلى تل أبيب قادماً من نيويورك بعد ٦ أيام من بداية الحرب أدلى بتصريح قال فيه : "إن النصر السريع الحاسم في حرب ١٩٦٧ قد أعطى للشعب في إسرائيل إحساساً كاذباً بالأمان وقد صدق الإسرائيليون مثل باقي دول العالم أن إسرائيل لايمكن ضربها أو هزيمتها حتى إذا واجهت الظروف السلبية للغاية، وقد كان هناك إحساس خارج إسرائيل بأن طيارينا يستطيعون الانتصار في المعركة حتى بدون طائرات وكانت النتيجة أننا عشنا طوال السنوات الست الماضية في عالم غير واقعي وقد ترتب على ذلك أننا ندفع الآن ثمناً غالياً مقابل هذه الأوهام".

وإذا كانت تصريحات ألون وإيبان تعني اعترافاً صريحاً بسقوط الأسطورة وانتهاء الوهم فإن دافيد اليعازر رئيس الأركان الإسرائيلي كشف بنفسه يوم ١٢ أكتوبر عن سر سقوط الأسطورة وإنهاء الوهم عندما قال في مؤتمره الصحفي : "إن لكل حرب معها مفاجآتها وكانت أكبر مفاجأة لنا في الحرب هي كفاءة الجندي المصري وتضحيته واستعداده للتضحية ووجود الدافع القوي للقتال عنده، وأضاف اليعازر قائلاً: بأنه على استعداد لأن يؤكد أنه لم يكن لديهم تصور خاطئ للحرب وأن الجيش الإسرائيلي كان مستعداً لها ولكن كل حرب معها مفاجآتها وهناك أشياء لابد أن نتعلمها وهي أن نصحح معلوماتنا فيها وأكبر هذه المفاجآت أن الجنود المصريين وكذلك السوريين قد أظهروا قدراً من الكفاءة والتضحية بالنفس يفوق الدافع بكثير مما أظهروه في الحرب السابقة.

ولم يكن كل ماسبق مجرد شهادة .. شهادة أولية أكدت أن الانهيار لم يكن مقصوراً على خط بارليف وحده إنما لازمه انهيار مروع لجنرالات الأسطورة.

"إن الموقف يبدو حرجاً ولكي ندافع عن إسرائيل لم يبق أمامنا إلا أن نسحب قواتنا خلف ممرات في سيناء وعلى قسم هضبة الجولان ومن حق الشعب أن يعرف الحقيقة كاملة وسوف أوجه على الفور حديثاً بالتلفزيون".

هكذا قال ديان في الثامن من أكتوبر – أي بعد يومين فقط من القتال – أمام رؤساء تحرير الصحف الإسرائيلية الذين دعاهم والذين استولت عليهم الدهشة من جراء تصريحات وزير الدفاع الذي لم يبد من وجهة نظرهم في حالته الطبيعية فقد كان الإرهاق بادياً على قسمات وجهه وكان صوته يسمع بالكاد وبدأ وكأنه يعكس صورة عامة للظروف العسكرية التي لاتتفق كثيراً مع البيانات والتصريحات الرسمية التي تتحدث عن الانتصار.

وخلال هذا الاجتماع عرف رؤساء تحرير الصحف الإسرائيلية من ديان أنه في أقل من ٤٨ ساعة تمكن الجيش المصري من عبور القناة واحتلال خط بارليف الحصين وأن خمس فرق من وحدات المشاة والدبابات والمدرعات المصرية الثقيلة تتقدم على جبهة طولها مائة وثمانون كيلو متراً داخل سيناء وأن ما يزيد على ألف دبابة سورية بمساعدهم الطيران قد غزت الجزء الأكبر من هضبة الجولان وأن بعض العناصر قد وصلت بالفعل إلى حدود إسرائيل قبل عام ١٩٧٦ وتحولت دهشة الصحفيين الإسرائيليين وذهولهم إلى قلق عارم وانفجرت إحدى الصحفيات في البكاء وقالت "إذن فهي نهاية الدولة وبداية تضحية كبرى جديدة".

والتفت رئيس تحرير صحيفة يديعوت أحرنوت المسائية – الذي اشتهر بمساندته لسياسة الجنرال ديان – وقال له بلهجة فاترة وقد ارتجفت شفتاه "كيف وصل بنا الأمر إلى هذا الحد ؟!".

وأجاب ديان قائلاً: "لقد كان أثر المفاجأة حاسماً"وورد عليه الصحفي وقد ارتسمت الدهشة على وجهه" ولكن جولدا مائير صرحت أول أمس بأننا كنا على علم تام بالاستعدادات العسكرية العربية ثم استطرد قائلاً: "أنت المسئول الوحيد عن الكارثة وأن ماعرف عنك من التمسك بالكرامة ينبغي أن يجعلك تترك الحكم".

وبعد مناقشات حادة عنيفة كان الصحفيون الإسرائيليون خلالها معترضين على إذاعة أي أنباء تمس الروح المعنوية للرأي العام الإسرائيلي – انفض الاجتماع وتوجه ديان إلى مكتبه لكي يعد بيانه الذي سيوجهه إلى الشعب الإسرائيلي عن طريق

التلفزيون بينما استقل رئيس تحرير صحيفة يديعوت أحرونوت سيارته وانطلق بها في سرعة جنونية إلى منزل جولدا مائير حيث طلب مقابلتها فوراً لأمر هام وأبلغها بتفاصيل ماجرى خلال اجتماع ديان برؤساء تحرير الصحف الإسرائيلية.

وأيقنت جولدا مائير أن ديان انهار تماماً وأن حديثه الذى يزمع أن يوجهه عبر التلفزيون سوف يصيب الشعب والجيش الإسرائيلي كله بانهيار ومن ثم فقد اتخذت قراراً بمنع ديان من توجيه كلمته في التلفزيون والتي كان سيذيع فيها قرار الانسحاب الإسرائيلي من الجزء الأكبر من سيناء والجولان.

وسارعت جولدا مائير إلى الاتصال بالجنرال بارليف رئيس هيئة الأركان السابق بناء على توجيه من إيجال ألون وكلفت مائير بارليف بإجراء تقييم عام للموقف على جبهات القتال وعاد بارليف ليقول لجولدا مائير أن الموقف حرج للغاية ولكنه يدعو لليأس الكامل وأنه لابد من الصمود بأى ثمن لأننا لانمتلك حالياً القدرة على شن هجوم مضاد.

وكان استدعاء بارليف مقدمة لاستدعاء بقية الكبار من جنرالات إسرائيل وقادة جيشها السابقين الذين تم دفعهم إلى كافة المواقع في محاولة لتقليل حجم الكارثة التي لحقت بالجيش الذى لايقهر.

وبينما كانت القيادة العسكرية الإسرائيلية تفكر في وسيلة تستعيد بها سمعتها التي غرقت في الوحل أمام زحف جيوش العرب كان الانقسام والتفكك قد بدأ يسرى بين الوزراء الإسرائيليين أنفسهم فقد اكتشفوا أنهم ـ هم الآخرون ـ قد خدعوا تماماً فلقد جاءت الحرب بالنسبة لهم مفاجأة تماماً حتى أن إيجال ألون نائب رئيس الوزراء الذى رأس اجتماعاً لمجلس الوزراء قبل الحرب بأربعة أيام عندما كانت جولدا مائير في النمسا لم يكن يدرى عن التوتر على جبهات القتال شيئاً.

وسرى الانقسام واليأس من الحكومة إلى أفراد الشعب الإسرائيلي وبدأت تظهر نغمة جديدة في الصحف والإذاعة والتليفزيون واختفت تماماً كلمات الغطرسة والصلف

والغرور وبدأ الناس في إسرائيل يستمعون من الإذاعة والتليفزيون طوال النهار إلى أغنية جديدة كلماتها تقول:

"باسم الجنود الذين احترقوا أحياء في دباباتهم... باسم الطيارين الذين هبطوا والنيران مشتعلة في أجسادهم باسم حرب باسم .. باسم .. باسم .. أعدك يا صغيرتي العزيزة أن هذه الحرب ستكون الأخيرة .. نعم الأخيرة .. والأخيرة".

واختفت تماماً من برامج الراديو والتليفزيون الإسرائيلي أغنيتا شرم الشيخ والقدس الذهبية اللتان كانتا من ثمار حرب ١٩٦٧ وتعطيان للإسرائيليين فرحة الحياة ولذة العمر فقد أدرك الإسرائيليون منذ هذه اللحظة أن حرب أكتوبر حولت الفرحة إلى مأتم وبدأ الإسرائيليون يشعرون حقيقة بذل الهزيمة ومهانتها ومن ثم فقد كان تلك هو الترجمة الحقيقية لكلمات الأغنية الجديدة التي توضح هذه الشدة والحدة المتعطشة للسلام والهدوء وزوال التوتر..

على أن أهم ما يلفت النظر هو انهيار أسطورة القادة العسكريين الذين اعتبروا أنفسهم يوماً أفذاذاً وفحولاً في الفكر العسكري إلى حد أن أحدهم ــ هو إسحق رابين المرشح وقتها لمنصب رئيس الوزراء الذي صرح ذات يوم بعد معارك ١٩٦٧ بأن لديهم خططاً جاهزة لكل الاحتمالات بما في ذلك خطة لاحتلال كوكب المريخ.

فبعد الساعات الأولى من نشوب القتال أصيب الجنرال شموئيل جونين قائد جبهة سيناء بانهيار عصبي، وبدلاً من أن يصدر ديان قراراً بإعفاء جونين من منصبه أصدر أمراً بتعزيز مركزه في قيادة سيناء بثلاثة من الجنرالات المستدعين وهم الجنرال كالمان والذي حل في قيادة المدرعات محل الجنرال ابراهام مندلر الذي لقي مصرعه على الجبهة المصرية والجنرال شارون الذي كان يتولى من قبل قيادة جبهة سيناء والجنرال أدان الذي تم تكليفه بملازمة جونين في مقر قيادة جبهة سيناء، ومع استمرار التصاعد المستمر في حجم الخسائر الإسرائيلية تصاعدت حدة الخلافات بين الجنرالات الأربعة في سيناء واضطرت جولدا مائير لأن تتدخل بنفسها لحسم مايجري وأصدرت أمراً لحاييم بارليف وزير التجارة والصناعة في حكومتها ورئيس الأركان

السابق لكي يتوجه على الفور إلى جبهة سيناء ويتولى قيادتها والتنسيق بين قادتها المتصارعين، ولكن بارليف بحكم طبيعة علاقاته وارتباطاته الحزبية فشل في أن يكون وسيطاً بين القادة المتصارعين ودخل هو الآخر في خضم صراعاتهم.

ومن العجب أن يكون يوم ٦ أكتوبر يوم انهيارهم جميعاً رغم أنه لم يكن قد مضى على نشوب المعارك أكثر من يومين، ففي نفس اليوم ـ وكان وزراء إسرائيل منذ نشوب الحرب في حالة اجتماع مستمر ـ دخل دافيد اليعازر رئيس الأركان إلى قاعة مجلس الوزراء الإسرائيلي يحمل تقريراً به كل معاني اليأس والقنوط التي خيمت على إسرائيل يومها .. كان تقرير أليعازر يقول: "إنه من بين ٣٥٠ دبابة إسرائيلية كانت تمثل الاحتياطي التكتيكي لإسرائيل في المنطقة الممتدة من رفح إلى قناة السويس لم يعد هناك صالحاً سوى ٦٠ دبابة فقط" وإنه إزاء ذلك فقد اضطر إلى أن يصدر صباح يوم الاثنين ٨ أكتوبر" أمراً بدفع ٦ ألوية مدرعة من الاحتياطي الاستراتيجي إلى جبهة سيناء".

وخرج أليعازر من اجتماع مجلس الوزراء الإسرائيلي مسرعاً إلى مقر السفارة الأمريكية في إسرائيل حيث طلب اجتماعاً عاجلاً من الملحق العسكري الأمريكي ونقل إليه قائمة كاملة بمطالب إسرائيل العاجلة والملحة، وكانت القائمة تشمل طائرات ودبابات وذخائر وقطع غيار ولم يكن قد مضى على الحرب سوى يومين اثنين فقط !


الفصل الثامن

طوال ليلة ٨ أكتوبر وحتى صباح اليوم التالي كانت الجبهة المصرية أشبه بخلية نحل لم تهدأ للحظة، فيما بين أفراح شهدتها مدينة القنطرة شرق بعد تحريرها إلى استعدادات واسعة على طول خط المواجهة لشن هجوم واسع مع ساعات الفجر الأولى لليوم الرابع للحرب بقوات فرق المشاة المصرية الخمس لتحقيق مزيد من التقدم على أرض سيناء ولتطهير باقي الجيوب الإسرائيلية.

وبينما كانت الاستعدادات المصرية تجرى طوال الليل على قدم وساق كان الإسرائيليون يستعدون أيضاً لضربة إسرائيلية واسعة ضد رءوس الجسور المصرية وبالذات تلك الواقعة على المحور الأوسط.

أن ينقشع الليل في الساعة الثالثة والنصف من صباح ٩ أكتوبر بدأ الإسرائيليون هجوماً بلواء إسرائيلي مدرع في مواجهة رأس جسر الفرقة الثانية من الدبابات كمفرزة لاستطلاع طريق الهجوم وتأمين انقضاض دباباتهم على المواقع المصرية وتقدمت المفرزة الإسرائيلية مسافة ٨٠٠ متر داخل الخطوط المصرية دون أن تلحظ أحداً في طريقها ودون أن تواجه أدنى مقاومة، وتوقفت الدبابات الإسرائيلية وأعطت إشارة الأمان لبقية قوات اللواء المدرع فهذه فرصة ذهبية، وعلى ما يبدو فإن المصريين قد ناموا أو اطمأنوا إلى أن الإسرائيليين لن يهاجموهم الليلة ومن ثم فإن الفرصة سانحة للرد على مفاجأة ٦ أكتوبر بمفاجأة في ٩ أكتوبر ـــ هكذا كان لسان حال الإسرائيليين يقول!

وبدأ اندفاع الدبابات الإسرائيلية في ٣ محاور رُوعِيَ في اختيارها تجنب الطريق المرصوف لتفادي أثر الصوت الذي يحدثه احتكاك جنازير الدبابات بالأسفلت، وسلكت الدبابات الوادي المنخفض شمال غرب قطاع الشجرة ووصلت في تقدمها إلى مسافة ٨كيلو مترات شرق القناة بينما تباشير أنوار الفجر بدأت في الظهور.

وأصدر قائد اللواء المدرع أمراً بسرعة الاندفاع جنوباً لتطويق رأس الجسر المصري الذي كان قد تم تجاوزه باتجاه القناة بأكثر من ١٥٠٠ متر على أن تندفع إلى

الأمام مجموعة أخرى لمهاجمة مقر قيادة الفرقة الثانية التى تقع على بعد ٣ كيلو مترات فى اتجاه الغرب.

لم يكد قائد اللواء المدرع ينهى تعليماته حتى تحولت الساحة كلها إلى جحيم فقد انطلقت من كافة الاتجاهات صواريخ الـ آر بى جى وصواريخ ساجر المصرية لتشل مقدمة ومؤخرة اللواء المدرع وساد هرج ومرج وبدأت أطقم الدبابات الإسرائيلية المحترقة تفر من الدبابات مذعورة لاترى شيئاً أمامها بينما القصف المصرى مستمر دون أن يعرف الإسرائيليون مصدره.

كان القناصة المصريون مختبئين فى حفر تحت الأرض وفى براميل رصت على طول طريق الهجوم الإسرائيلى، وعندما حاولت بعض الدبابات الإسرائيلية الارتداد خلفاً للانسحاب وجدت دبابات مصرية فى انتظارها، وكيف كانت الساعة قد بلغت السادسة وعشر دقائق من صباح ذلك اليوم عندما خرج من دبابة القيادة ضابط إسرائيلى برتبة عقيد يحمل فى يديه منديلاً أبيض ويرفع كلتا يديه إلى أعلى ويصيح بالعربية، "لقد انتهى كل شئ سوف نستسلم .. أرجوكم أيها المصريون لا تقتلونا".

وتوقف القصف المصرى وأصبح العقيد الإسرائيلى أسيراً مع عدد كبير من جنوده، وتم نقلهم على الفور إلى مقر قائد الفرقة الثانية مشاة اللواء حسن أبو سعده حيث بدأت كل مشاهد سقوط الأسطورة الإسرائيلية تتجلى وتتضح عندما أفصح القائد الإسرائيلى عن نفسه قائلاً:

"أنا العقيد عساف ياجورى قائد اللواء الإسرائيلى المدرع ١٩٠ الأوسط بهدف الوصول إلى القناة فى مواجهة مدينة الإسماعيلية لإقامة رأس جسر إسرائيلى على الشاطئ الشرقى فى هذا القطاع".

واستمر عساف ياجورى فى الكلام بغير توقف وليس له سوى طلب واحد هو أن تُحسن معاملته كقائد كبير، وروى عساف فى اعترافاته الأولية كل مايدور فى ذهن القيادة الإسرائيلية من أفكار وخطط لمواجهة العبور المصرى.

وكان التساؤل الوحيد الذي يسيطر على عساف ياجوري وكرره أكثر من مرة قائلاً: "أريد أن أعرف أين كان يختبئ رجال المشاة المصريون "قناصو الدبابات" حاملو الـ آر بي جي وأية نوعية من الرجال أولئك الذين يملكون الشجاعة على التصدي للدبابات؟"

ولم تكن التساؤلات العديدة التي طرحها العقيد عساف ياجوري خلال الساعات الأولى لوقوعه في الأسر تعني سوى أن الإسرائيليين لم يفهموا بعد مدلول كل ماجرى حتى هذه اللحظة، ومن الحق أن نقول أن للإسرائيليين عذرهم في ذلك فإن خبراء الاستراتيجية في العالم كانوا في حيرة من أمر ذلك الانقلاب الهائل الذي أحدثته فصائل المشاة المصرية في المفاهيم العسكرية حول دور وإمكانية وأهمية الدبابات في حرب الصَّحراء المكشوفة.

لم يكن أحد في إسرائيل يدرك أن الصواريخ المضادة للدبابات والتي يمكن أن يحملها شخص واحد أو شخصان وربما ثلاثة تستطيع التصدي للدبابة في الأرض المكشوفة المماثلة لشبه جزيرة سيناء... بل إنني أستطيع أن أقرر أن الملحقين العسكريين الأجانب في القاهرة ـ وقد صحبتهم في جولة واسعة بسيناء عقب انتهاء المعارك مباشرة ـ كانوا هم أيضاً عاجزين عن فهم ماجرى عندما شاهدوا بأعينهم أكثر من عشر مناطق مصرية لقتل الدبابات الإسرائيلية.

ولم يكن مارآه هؤلاء الخبراء العسكريون العالميون أكثر من دبابات محطمة تحيط بها حفر اختباء أفراد المشاة مليئة بالقذائف الفارغة.

وكان هناك إجماع في الرأي بين كل هؤلاء الخبراء بعد رؤيتهم لقطاع الفرقة الثانية مشاة التي أسر عندها العقيد عساف ياجوري أن الخوف والرهبة اللذين كانا يتملكان أفراد المشاة في العالم من الدبابة قد زال حيث أصبح في إمكان أفراد المشاة إصابة الدبابة دون أن يكتشفوا أحد، ومن ثم فقد أصبحت الدبابة عرضة للقنص بعد أن كانت هي القانصة !

وبغير أن أستطرد بعيداً عن تسلسل عمليات القتال فإنني أستأذن في أن أنقل بأمانة آراء الملحقين العسكريين في القاهرة عن أهم الدروس المستفادة من حرب أكتوبر وبالذات تلك الدروس التي هناك إجماع عليها من خبراء الكتلتين الشرقية والغربية والتي تتمثل فيما يلي :

أولاً : أن قرار الهجوم يمكن اليوم أن يتركز في أيدي قليل من الأشخاص وأن الهجوم يمكن أن يبدأ بسرعة لاتمكن أجهزة المخابرات من الوقوف على حقيقة النوايا والأهداف.

ثانياً : أن الأرض أصبحت تتحكم في السماء فبينما كان جميع الخبراء ـ حتى حرب أكتوبر ـ مازالوا يركزون على أهمية التفوق الجوى فإن الصواريخ أرض ـ جو ـ من طراز سام التي أسقطت مئات الطائرات الإسرائيلية قد غيرت من صورة الحرب الحديثة فأمام هذه الحقيقة ـ "الصواريخ" التي تم تطويرها على أحدث طراز ـ لايمكن لأحد من الآن فصاعداً أن يتحدث عن التفوق الجوي.

ثالثاً: أن العرب استطاعوا أن يتكتموا الأمر تماماً ففي خلال الأشهر السابقة لحرب أكتوبر قامت الطائرات الإسرائيلية بعدة طلعات فوق سوريا للتعرف على الدفاعات العربية المضادة، وخلال اشتباك جوى فوق السماء السورية قبل الحرب بأسابيع قليلة قبلت سوريا أن تخسر عدة طائرات إلا أنها حرصت على عدم استخدام بطاريات صواريخ سام في المعركة ومن ثم فقد دخل الإسرائيليون الحرب الأخيرة وهم مقتنعون بأن تفوقهم في الجو لاجدال فيه غير أن الحقيقة كانت عكس ذلك تماماً.

رابعاً : أن الحرب أثبتت أن الجنود العاملين في صواريخ سام كانوا أكثر من أكفاء وليس هناك خلاف على أنهم كانوا أمام تحد صعب في استخدام السلاح وهو وإن لم يكن صعب الاستخدام إلا أنه لايزال يثير في رأى جميع الخبراء مشاكل معقدة خاصة بالصيانة.

خامساً : أن الزعماء العرب أثبتوا أنهم قادرون على أن يكونوا مخططين أبرع مما يتصور أحد، فقد تصور الإسرائيليون بعد استغناء مصر عن الخبراء السوفيت في يوليو ١٩٧٢ أن ماحدث ليس سوى أزمة تتعلق بالكرامة، وكانوا يعتقدون -ومعهم معظم خبراء الاستراتيجية في العالم- أن المصريين إذا ما تركوا لأنفسهم لن يستطيعوا أن يستخدموا أسلحتهم الحديثة، ولم يتصور أحد على الإطلاق أن هذه كانت خدعة حرب من "خطة خداع السادات" وقد أثبتت النتيجة مدى ثقة المصرية البالغة في أنفسهم.

وفيما كان العقيد عساف ياجوري أسيراً في أيدى القوات المصرية يخوض أول مراحل الاستجواب في الجبهة كانت قذائف المدرعات المصرية تعاونها قصفات الطيران قد تمكنت من تدمير كافة مواقع الاعتراض التي أقامها الإسرائيليون على طريق تقدم القوات المصرية.

وفي القطاعين الأوسط والجنوبي كانت القوات المصرية تحقق انتصاراً جديداً إذ يبدو أن انكسار الهجوم المضاد الذى قاده اللواء الإسرائيلي المدرع رقم ١٩٠ قد أفقد القيادة العسكرية الميدانية لإسرائيل القدرة على اتخاذ القرارات السليمة فقد دفع الإسرائيليون في مواجهة القوات المصرية بلوائين مدرعين آخرين في ظروف هبطت فيها روح القتال لدى الجنود الإسرائيليين وفقد ضباطهم القدرة على المبادرة والتصرف في المواقف الحرجة.

وعلى امتداد ساحة القتال في القطاعين الأوسط والجنوبي دارت معارك الدبابات وفقدت إسرائيل حوالى ٥٠ دبابة في القطاع الجنوبي و٧٤ دبابة في القطاع الأوسط، وتكسرت الهجمات الإسرائيلية المضادة قبل أن تغيب الشمس عن أفق سيناء، وانسحبت باقي الدبابات الإسرائيلية إلى الخلف تطاردها الدبابات المصرية على حين وقع في أسر القوات المصرية عشرات من الأسرى ولم تكن محاولات الهجوم الإسرائيلي المضاد مقصورة على حرب المدرعات فقط في رابع أيام الحرب وإنما شملت كذلك محاولة برية وأخرى جوية فعلى مقربة من سواحل بورسعيد حاول

تشكيل بحرى إسرائيلي مكون من ٩ لنشات تدعمه ٦ طائرات هليكوبتر مهاجمة ميناء بورسعيد فتصدت له الزوارق البحرية المصرية بمعاونة المدفعية الساحلية ودارت معركة بحرية استمرت حوالي ٣٥ دقيقة وخسر الإسرائيليون خلالها ٥ لنشات و٤طائرات هليوكبتر، وأصيب للقوات البحرية المصرية ٣ زوارق.

وقد صادف توقيت الهجوم البحرى الإسرائيلي على ساحل بورسعيد في السابعة والربع صباحاً هجوم جوى إسرائيلي بـ٦٤ طائرة على ٦ قواعد جوية مصرية ولم يستغرق الهجوم سوى ٤ دقائق عادت بها الطائرات الإسرائيلية إلى قواعدها سالمة عدا ١٦ طائرة فانتوم ومصرع ٢٨ طياراً وملاحاً وأسر ٤ طيارين، وقد نجحت الطائرات الإسرائيلية خلال هجومها في إصابة أحد الممرات الفرعية في أحد المطارات واستلزم إصلاحه وإعادة تشغيله مرة أخرى ٤٠ دقيقة من جهد وعزم المهندسين العسكريين المصريين.

وإزاء استمرار التقدم المصرى في سيناء وتكسر كل الهجمات الإسرائيلية المضادة بدأت التساؤلات في مصر داخل صفوف القوات المسلحة حول احتمالات تطوير الهجوم شرقاً.

وكان هناك اتجاه عام يتعجل سرعة الانطلاق عبر سيناء لاحتلال الممرات والمضائق.

واستقل رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية طائرة هليوكبتر من مطار ألماظة الحربي واتجه بها إلى جبهة القناة حيث قام بتفقد القوات المشتركة في العمليات ووجد الفرصة سانحة لكي يرد على كل هذه التساؤلات والهمسات وأعلن في قلب الجبهة ـ وبينما الحرب دائرة على أشدها في يومها الرابع ـ :

"أنه إذا كان نجاح قواتنا في العبور يجعل البعض يتلهف شوقاً للنتائج النهائية فإنني أقول لهم أن العبرة ليست بالوصول السريع إلى النتائج، وإنما بحصيلتها المؤكدة إذ أن

تقدم قواتنا فى سيناء يتم طبقاً لخطة محكمة يجرى تنفيذها بدقة وطبقاً لمعدل زمنى يخضع لعوامل تكتيكية وتعبوية".

وكان ماذكره رئيس الأركان المصرى حتى ذلك الوقت يبدو متفقاً مع المنطق ومتمشياً مع خط سير الحرب فى أيامها الأربعة الأولى التى كان كل زمام المبادرة فيها في يد الجيش المصرى في جبهة سيناء والجيش السورى فى جبهة الجولان.. غير أن الأمر بدا مختلفاً تماماً بعد يوم واحد من تصريحات رئيس الأركان المصرى فقد تغيرت الظروف نسبياً على الجبهة السورية، وجعلت مسار الحرب يأخذ شكلاً مختلفاً يقتضى إعادة بعض الحسابات التى تمخضت عن قرار تطوير الهجوم المصرى شرقاً مع فجر يوم ١٤ من أكتوبر لتخفيف الضغط الإسرائيلى المتزايد على الجبهة السورية، ولتأخذ الحرب شكلاً جديداً ومساراً آخر.

عندما أشرقت شمس الرابع عشر من أكتوبر ١٩٧٣ الموافق يوم الأحد ١٨ رمضان ١٣٩٣ هجرية كانت حرب "أكتوبر ـ رمضان" قد دخلت يومها التاسع وكانت قوات الجيشين المصريين الثانى والثالث قد نجحتا في اقتحام قناة السويس والاستيلاء على خط بارليف بالكامل وإنشاء خمسة "رءوس كبارى" بخمس فرق على مواجهة طولها ١٧٥ كيلو متراً".

أى أنه بعد ثمانية أيام من الحرب كان ما يربو على ١٠٠ ألف جندى مصرى قد عبروا قناة السويس ودحروا قوات الجيش الإسرائيلى من خط المياه إلى عمق سيناء، ولكن فى نفس هذا اليوم كان الأمر مختلفاً تماماً على الجبهة السورية الشقيقة التى كان الإسرائيليون قد وجهوا مجهودهم الرئيسى نحوها قبل أربعة أيام عندما أحسوا أن تقدم القوات السورية عبر هضبة الجولان ووصولهم إلى مقربة من جسر بنات يعقوب لايهدد إسرائيل بخطر الهزيمة الشنعاء فقط وإنما بات يهدد الوجود الإسرائيلى ذاته..

فى ذلك الحين رأت إسرائيل أن عمق سيناء وعمق صحراء النقب يكفل لها فسحة من الوقت ترتب نفسها وتستعجل وصول النجدة الأمريكية لها وتحاول أن تستعيد بعضاً من توازنها بمحاولة الانفراد بالجبهة السورية على أساس الاكتفاء بصد واحتواء

الهجمات على الجبهة المصرية ولكن ما كان يدور فى ذهن القيادة الإسرائيلية لم يكن غائباً عن فكر أولئك الذين كانوا يقودون الحرب العربية الإسرائيلية في غرفة العمليات المصرية إذ أن أحد مقومات الضربة الاستراتيجية المشتركة التي تم الاتفاق بين مصر وسوريا على توجيهها صباح ٦ أكتوبر كان ضرورة حرمان العدو من أهم تخطيطاته الاستراتيجية في مواجهة القوة العربية جبهة بعد جبهة.. كل على انفراد!

وانطلاقاً من هذا المفهوم اتخذت القيادة العسكرية المصرية قرارها ببدء تطوير الهجوم المصرى صباح يوم ١٤ أكتوبر وكانت فى قرارها هذا تنطلق من عدة اعتبارات من بينها ـ كما أسلفت ـ : تخفيف الضغط على الجبهة السورية لدفع إسرائيل لسحب مجهودها الرئيسى في الطيران والمدرعات بصفة خاصة من الجبهة السورية تجاه الجبهة المصرية، وثانى هذه الاعتبارات هو تصعيد هدف إحداث أكبر خسائر ممكنة للإسرائيليين في الأفراد والمعدات وبصفة خاصة في المدرعات وذلك عن طريق دفع الإسرائيليين للدخول فى معارك كبرى للدبابات فى محاور متعددة وعلى امتداد مساحات شاسعة من سيناء ترهق قواهم وتشتت تفكيرهم ويجئ بعد ذلك ثالث هذه الاعتبارات وهو تحرير مزيد من الأرض وتعميق رءوس الكبارى المصرية ودفع الإسرائيليين إلى إعادة توزيع مناطق حشدهم وتخزينهم ثم إن رابع هذه الاعتبارات التي انطلق منها قرار غرفة العمليات المصرية بتطوير الهجوم هو مواصلة تحقيق المفاجأة واستمرار تملك زمام المبادأة لتعميق حالة الارتباك والشلل التي سادت القيادة الإسرائيلية على الجبهة المصرية منذ بدء العمليات بسبب العجز والقصور عن فهم وتحليل نوايا وحدود الضربات المصرية القائمة أو المحتملة.

كانت عقارب الساعة تشير إلى السادسة والربع من صباح ١٤ أكتوبر عندما تلقى قائد الجيشين الثاني والثالث المصريين إشارة التصديق النهائي من غرفة العمليات الرئيسية ببدء العملية الهجومية والواسعة "تطوير الهجوم".

وانطلقت عدة طوابير مصرية مدرعة على عدة محاور رئيسية في اتجاه الشرق في عمق سيناء وعلى امتداد الجبهة كلها من القنطرة شمالاً وحتى عيون موسى جنوباً.

ولم تكن عملية الانطلاق المصرية لتطوير الهجوم مجرد رغبة جامحة أو مغامرة غير محسوبة وإنما كانت "بالصدق كله" حساباً وعلماً وتخطيطاً ليس فقط بالنسبة لهدف التطوير وإنما كذلك بالنسبة لشكل العمليات التي سوف يستلزم خوضها للوصول بهذا التطوير إلى هدفه الصحيح وكانت القيادة العسكرية المصرية تدرك تماماً قوة سلاح المدرعات الإسرائيلي ودوره الرئيسي في تنفيذ الاستراتيجية الإسرائيلية، ولم يكن غائباً للحظة عن ذهن القيادة المصرية أن الإسرائيليين يعتبرون سلاح المدرعات شفرة السلاح الحادة – من وجهة نظرهم – التي يجب استعمالها للإجهاز على الخصم بصورة حاسمة وإن إسرائيل لا تخطط لأية عمليات عسكرية بالمدرعات إلا على أساس وجود تفوق جوي وتعاون وثيق بين القوات المدرعة والقوات الجوية والوحدات المحمولة جواً.

وأيضاً فإن القيادة العسكرية المصرية كانت تفهم الخطوط العامة لفكر القيادة العسكرية الإسرائيلية ورؤيتها بالنسبة لاستخدام المدرعات في الحالات التالية:

١) في محاولة استغلال النجاح الذي حققه الهجوم وأحدث خرقاً في جبهة الخصم فتدفع الجزء الرئيسي من القوات المدرعة للاندفاع في الأعماق لمهاجمة جوانب الخصم وتدمير مؤخراته وشل قدراته على المقاومة.

٢) أو في حالة القيام بعمليات تتطلب خفة الحركة كالتطويق والالتفاف.

٣) أو عند الرغبة في القيام بالمطاردة السريعة لقوات الخصم المنسحبة.

ومن الواضح أن كل ملائمات الاستخدام الجيد للمدرعات الإسرائيلية حسب هذا المفهوم العسكري الإسرائيلي لم تكن متوافرة عندما قررت القيادة المصرية تطوير هجومها فلم يكن الإسرائيليون قد حققوا أي نوع من النجاح بالمشاة أو المدرعات وكان

التفوق الجوي قد أصبح بفعل الصواريخ المصرية مسألة لاوجود لها.. وفضلاً عن ذلك كله فلم تكن هناك وحدة مصرية قد أجبرت على الانسحاب لتطاردها القوات الإسرائيلية أي أنه باختصار شديد وفي إيجاز مبسط كان توقيت القرار المصري بتطوير الهجوم توقيتاً موفقاً وملائماً استهدف جر الإسرائيليين إلى معارك واسعة وطاحنة بالدبابات في ظروف لا تلائم الفكر العسكري الإسرائيلي وعلى مسرح عمليات يصعب على الإسرائيليين تحويله لصالح هدف تحويل مجرى الحرب لصالحهم.

بل إنني لا أتجاوز إذا قلت أن قرار التطوير كان ضرورة استراتيجية وتكتيكية لضمان استمرار امتلاك زمام المبادأة في أيدي القوات المصرية خصوصاً وأن شواهد عديدة على الجبهتين المصرية والسورية كانت تشير إلى أن الخطوة الإسرائيلية القادمة هي استخدام كل عناصر الدعم الأمريكي المتدفق على إسرائيل في شن هجوم مضاد واسع على الجبهة المصرية.

على أنه – قبل الخوض في تفاصيل معارك الدبابات – ينبغي الإشارة إلى أن القيادة العسكرية المصرية كانت قد تنبهت كذلك إلى أن الإسرائيليين بعد فشلهم الذريع على خط المياه على امتداد السويس واضطرارهم إلى الانسحاب للخلف محصورين كانت خطتهم الرئيسية اعتباراً من يوم "٩ أكتوبر" بذل أقصى جهد ممكن لتثبيت الجبهة المصرية والاكتفاء عليها بمجرد المشاغلة النسبية بصفة مؤقتة للتفرغ تماماً للخطر السوري الداهم الذي يهدد الوجود الإسرائيلي ذاته والعمل على إزالة هذا الخطر وتصفيته تماماً في غيبة من الضغط المصري .. ولقد بدا ذلك واضحاً أمام القيادة المصرية بعد تأكد معلومات لا يرقى إليها شك وشواهد ترجح هذه الاحتمالات والتي من بينها أن الهجمات الإسرائيلية المضادة انكمشت وقلت كثيراً عن معدلها المرتفع عند بداية العمليات بالإضافة إلى إنهاك جزء كبير من المجهود الإسرائيلي الرئيسي على الجبهة المصرية في تجهيز خط دفاعي ثان جديد بمحاذاة المضائق من ناحية

الغرب مباشرة وعلى مسافة بعيدة من مدى النيران المؤثرة المدفعية والدبابات المصرية في منطقة رءوس الكباري.

وهكذا في ضوء كل هذه الشواهد والمعلومات وتحقيقاً لاستمرار توفير هدف الضربة المشتركة على الجبهتين وتمشياً مع متطلبات التنسيق العسكري بين مصر وسوريا أقرت القيادة العسكرية المصرية يوم ١٢ أكتوبر مبدأ التفكير بتطوير الهجوم المصري شرقاً اعتباراً من صباح ١٤ أكتوبر لملاءمة الظروف الجديدة على الجبهة السورية ودون انتظار التوقيت الذي كان محدداً في الخطة المصرية الأساسية والذي كان مرتهناً بثلاثة عوامل أساسية هي:

أولاً : الانتهاء من إنشاء وتثبيت رءوس الكباري المصرية.

ثانياً: تحقيق أكبر قدر من الاستنزاف لقدرات العدو بتوالي تحطيم ضرباته وإفشالها.

ثالثاً: إعادة ترتيب أوضاع القوات المصرية شرق وغرب القناة بما يلائم متطلبات المرحلة المقبلة.

ولكن ظروف الجبهة السورية حتمت الإسراع بعملية تطوير الهجوم المصري شرقاً.

ولذا فإن القيادة العسكرية المصرية بعد دراسة كاملة للموقف انتهت من رسم حدود وأبعاد خطة تطوير الهجوم، وكان قرارها في هذا الصدد مبنياً على جزء من قواتها لتطوير الهجوم دون أن يكون لذلك أي تأثير على قدرة ثبات رءوس الكباري الخمسة، وكان هدف التطوير الرئيسي هو تحرير مزيد من الأراضي للوصول إلى عمق يصل إلى ما يربو على ٣٠ كم تقريباً أي على مقربة من منطقة المداخل الغربية لسلسة المضائق الجبلية وذلك في حد ذاته يحقق عدة أهداف مشتركة بضربة واحدة والتي منها:

أولاً: أنه يعطي هدف التخفيف على الجبهة السورية بعداً جديداً ومؤثراً على الجبهة المصرية بتحرير مزيد من الأراضي في سيناء.

ثانياً: أن منطقة بلوغ القوات المصرية في خطة التطوير تصل إلى منطقة إنشاء الخط الدفاعي الجديد لإسرائيل وهو ماسيدفع إسرائيل إلى التقهقر شرق منطقة المضائق فضلاً عما يمكن أن يترتب على هذا الانتحار إلى خط دفاعي آخر من آثار مدمرة على القوات الإسرائيلية والقيادة العسكرية نفسها.

ومع وضوح الهدف الذي بنت القيادة المصرية قرار التطوير في ضوئه لم يكن صعباً على راسم الخطة المصرية أن يضع الأسلوب المناسب، وبالفعل فإن التوجيهات الرئيسية التي خرجت من غرفة العمليات المصرية إلى قادة الجيشين الثاني والثالث المصريين كانت ترتكز أساساً على دفع مخارز قوية من المدرعات والمشاة الميكانيكية لتحرير مساحات جديدة من الأراضي لتعميق رءوس الكباري المصرية الخمسة إلى مدى ٣٠ كيلو متراً من خط المياه على طول قناة السويس وأن تتوالى هذه المخارز ثلاث مهام رئيسية أخرى في خطة عملها :

أولاً : مطاردة وتحطيم القوات الإسرائيلية المتمركزة في المناطق المستهدف تحريرها.

ثانياً : العمل على حرمان القوات الإسرائيلية من استخدام الطريق العرضي الرئيسي الذي يربط كل محاور الطريق في هذا القطاع من سيناء سواء بالسيطرة الكاملة عليه أو بتدميره في مناطق الوصلات الرئيسية أو من خلال تلغيمه ضد كافة أنواع المركبات.

ثالثاً: الانطلاق بأقصى سرعة ممكنة لبلوغ منطقة المداخل الغربية للمضائق وذلك لتحقيق هدفين رئيسيين في ضربة واحدة .. أولهما قفل طريق الإمدادات الإسرائيلية المتدفقة من شرق سيناء عبر المضائق.. وثانيهما تطويق وحصار القوات الإسرائيلية الموجودة غرب المضائق بين طرفي كماشة من القوات المصرية.

قبل الهجوم الشامل بأربع وعشرين ساعة

ومع أول ضوء في السادسة والربع من صباح الأحد ١٤ أكتوبر بدأت القوات المصرية أضخم هجوم شامل منذ بداية الحرب، وقد بدا واضحاً منذ اللحظة الأولى أن المعركة تعد من أعنف ما شهدت سيناء من معارك منذ ٦ أكتوبر ولم تمض سوى ١٢ ساعة من بداية الهجوم الشامل "أي قبل غروب آخر ضوء من هذا النهار" حتى كانت القوات المصرية قد تمكنت من تحرير مساحات جديدة من الأرض على جميع خطوط المواجهة بعد أن دمرت للقوات الإسرائيلية ما يربو على مائتي دبابة ومثلها من العربات المدرعة في قتال مرير ضد قوات مدرعة ضخمة حشدتها إسرائيل بكثافة وكانت تحاول عبثاً وقف الهجوم المصري والتشبث بالأرض.

وظهر بوضوح في مسرح العمليات مدى التعاون الوثيق بين الأسلحة المصرية المشتركة في الهجوم، فقد تدخلت قوات الدفاع الجوى المصرية أكثر من مرة ضد الطائرات الإسرائيلية التي حاولت ضرب المدرعات المصرية المهاجمة بطول الجبهة واستطاع الدفاع الجوى المصري إخلاء سماء المعركة من الطيران الإسرائيلي بعد أن أسقط له ٢٩ طائرة منها طائرتان من طراز هليوكوبتر.

كما شارك الطيران المصري في الهجوم الشامل بقصف مركز على مواقع الصواريخ المضادة للدبابات التي كانت تعوق تقدم المدرعات المصرية المهاجمة وتمكنت الطائرات المصرية. من تدمير جزء كبير من هذه الصواريخ وبعيداً عن مسرح عمليات سيناء الذي كان يشهد في ذلك اليوم أضخم هجوم مصري بالمدرعات والمشاة الميكانيكية جرت في الساعة الرابعة بعد الظهر معركة جوية كبيرة في منطقة شمال الدلتا بين الطائرات المصرية والإسرائيلية خسرت إسرائيل خلالها ١٥ طائرة وأصيب من السلاح المصري ثلاث طائرات على الوجه الآخر لما جرى في ١٤ أكتوبر يوم الهجوم المصري الشامل ـــ وهو من جانب العدو ـــ أعطى الصورة المتكاملة للموقف.. ففي الثامنة صباح ذلك اليوم قطع راديو تل أبيب إرساله لأول مرة منذ بدء المعارك في ٦ أكتوبر وأذاع على موجتيه باللغتين العربية والعبرية بياناً جاء

فيه "أن القوات المصرية بدأت مع الفجر هجوماً عاماً وشاملاً بطول الجبهة من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب وأنه تم التمهيد لهذا الهجوم بقصف شديد بالمدفعية وهجوم مركز بالطيران".

ثم أعقب ذلك صمت كامل في إسرائيل عن أخبار الجبهة المصرية وسير القتال فيها لمدة ٨ ساعات حتى كانت الساعة الرابعة بعد الظهر ـ عندما قطع الجنرال حاييم هرتزوج كبير المعلقين العسكريين الإسرائيليين الصمت حول ما يجرى في الجبهة المصرية ليعلن أن الهجوم الذى شنته القوات المسلحة المصرية صباح اليوم في سيناء يدور على جبهة واسعة جداً وأن القتال عنيف للغاية كما أن كافة الدلائل تشير إلى أننا "الإسرائيليين" أصبحنا الآن في مرحلة حرجة وصعبة جداً من الحرب الدائرة على الجبهة المصرية.

وكشف هرتزوج في تصريحه هذا عن مدى الارتباك والشلل الذى ساد القيادة الإسرائيلية ومدى عجزها عن فهم نوايا وأبعاد الهجوم المصرى بقوله "إن الإنسان ليحس بعجزه عن أن يتنبأ بشيء وبشأن نهاية هذا الهجوم السابعة من مساء وفي نفس اليوم أعلنت إسرائيل أن الجنرال أبراهام مندلر القائد العام للقوات المدرعة الإسرائيلية في سيناء قد لقى مصرعه في القتال ثم أعقب إعلان هذا النبأ موسيقى جنائزية على .سائر موجات الراديو الإسرائيلي وقبل أن ينتصف ليل ذلك اليوم الطويل ظهر موشى ديان وزير الدفاع الإسرائيلى على شاشة التلفزيون حيث ألقى بياناً قال فيه "إن إسرائيل تخوض الآن حرباً لم تحارب مثلها من قبل سواء في عام ١٩٥٦ أو معارك ١٩٦٧... إن هذه حرب صعبة. معارك المدرعات قاسية ومعارك الجو فيها مريرة إنها حرب ثقيلة بأيامها وثقيلة بدمائها".

وأشار ديان في بيانه إلى مايدور في سيناء منذ الصباح الباكر لهذا اليوم فوصفه بأنه "معركة أساسية يتوقف عليها الكثير" ثم أضاف "وليس أمامنا الآن إلا أن نقاتل بقلوب كسيرة ولكن يجب علينا جميعاً أن نطوى أعماق قلوبنا على الأحزان"..

واعترف ديان بمرارة ما يجرى وقال : "إن وزارة الدفاع فـي عـام ١٩٦٧ لـم تبلـغ أسر قتلى الحرب بأسماء قتلاهم إلا بعد انتهاء الحرب أما الآن فإننـا نبلغهـم أولاً بـأول لأن الحرب سوف تكون طويلة ولأنني لا أعرف كم من الوقت ستستمر هـذه الحـرب لكنني أخشى ألا يقبل المصريون وقف إطلاق النار ولو بغير شروط".

ولقد كان فى وسع أى مراقب لما جرى فى إسرائيل فى ذلك اليوم مع بداية الهجـوم المصرى أن يرى حجم الذعر والانهيار واليأس والتشاؤم فمنذ أن أعلن راديو إسـرائيل مصـرع الجنرال أبراهام مندلر فـى المعـارك والراديـو الإسـرائيلى لايذيـع سـوى المارشات الجنائزية على حين يخيم الحزن الثقيل على المستعمرات وبصورة خاصـة تلك التى خرج منها إلى غير رجعة العديد من الطيارين والضباط والجنود الإسرائيليين.

وفى خضم هذا الجو الجنائزى الحزين وجه كبير حاخامـات إسـرائيل شـلوماجورين بياناً إلى الشعب الإسرائيلى قال فيه : "أدعو أن تقوى روحنا فى مواجهة هذه المصيبـة التى حلت بالأمة اليهودية كلها".

على أن هذا الجو الحزين المتشائم لم يحل دون أن تلقى إسرائيل بنكتة مضحكة فقد أعلنت فى اليوم نفسه أول بيان رسمى لخسائرها على جبهتـى سيناء والجـولان خـلال الأيام الثمانية الأولى للحرب وقدرتها بـ٦٥٦ قتيلاً، ولـم يكـن مـن الممكـن للمتحـدث العسكرى المصرى أن يترك النكتة الإسرائيلية تمر دون تعليق وأن يوضـح أن الرقـم الذى أذاعته إسرائيل رقم مضلل وأن القيـادة الإسرائيلية تعرف ذلك وكذلك الخبـراء العسكريون فى العالم كله!

وقبل الاستطراد فى تفاصيل الهجوم الشامل وما أحدثه من آثار واسعة على جبهتى القتال ينبغى العودة إلى الأربع والعشرين ساعة التى سبقت عملية الانطـلاق المصـرى المدرع فى سيناء وبالذات تلك الواقعة الهامة والخطيرة التى بدأت بالضبط فى السـاعة الواحدة وخمس دقائق من بعد ظهر يوم السبت الثالث عشر من أكتوبر عندما اخـترقت المجال الجوى المصرى طائرتان أمريكيتان من طراز س ـ ٧ علـى ارتفـاع ٢٥ كيلـو متراً شقتا الفضاء العالى بسرعة تصـل إلـى ٣ أضعـاف سرعة الصـوت، وكـان خـط

سيرهما من فوق بورسعيد حيث بدأ الاختراق ثم مروراً فوق الجبهة المصرية كلها عبوراً بشاطئ البحر الأحمر ثم التفافاً من وراء نجع حمادى ثم عودة بقوس إلى سماء القاهرة ثم مروراً ثانية فوق الجبهة بالعرض هذه المرة وليس بالطول قاصدة سيناء المحتلة ومنها إلى الخطوط السورية ثم خارجة إلى البحر متجهة إلى قاعدة أكروتيرى الأمريكية فى اليونان.

لم يكن مثل هذا الأمر ليمر بسهولة دون فحص وتمحيص من جانب القيادة العسكرية المصرية.

صحيح أن التدخل الأمريكى إلى جانب إسرائيل بدأ مبكراً عن ذلك التاريخ وبالتحديد مع بداية الجسر الجوى الثقيل لنقل الإمدادات والأسلحة والمتطوعين بعد اليوم الرابع للحرب.

وصحيح أن الأمريكيين أعلنوا عن تدخلهم السافر إلى جانب الإسرائيليين دون خشية وبلا أية مواربة معللين ذلك بأن إسرائيل لم تعد فقط مجرد عاجزة عن الصمود فى وجه الهجوم العربى وإنما أصبح الوجود الإسرائيلى – إذا استمرت نغمة الحرب كما هى عليه – أمراً مشكوكاً فيه.

ولكن القيادة العسكرية المصرية فى غرفة العمليات كانت ترى فى هذا الاختراق ماهو أبعد من تعاظم ووضوح التدخل الأمريكى السافر كانت ترى خريطة الشرق الأوسط قد تغيرت وأصبحت القوات المصرية تتمركز فى سيناء شرق قناة السويس فى أعماق تصل إلى ٢٠ كيلو متراً..

وكانت القيادة العسكرية المصرية تدرك أن السؤال المطروح فى هذه اللحظة فى الولايات المتحدة وفى إسرائيل سؤال يقول: ما هى النوايا المحتملة للقوات المصرية بعد نجاحها فى عملية العبور وتثبيت رءوس الكبارى، وارتباط ذلك بوصول القيادة المصرية إلى الإجابة عن الوجه الآخر للسؤال حول النوايا المحتملة للقوات الإسرائيلية

بعد انحدارها من خط بارليف وتورطها في الجبهة السورية تلك الإجابة التي كانت متمثلة في قرار تطوير الهجوم مع أول ضوء من صباح باكر الأحد.

ولست أذيع سراً إذا قلت أن الأمريكيين والإسرائيليين في حوارهما المتصل حول تحديد النوايا المصرية المحتملة كانا يريان احتمالين لاثالث لهما. وأضيف بسرعة قبل أن أطرح هذين الاحتمالين أن القيادة المصرية كانت تعرف مايدور في الفكر الإسرائيلي الأمريكي المشترك من أن مصر ليس أمامها الآن سوى:

١) إما أن تثبيت القوات المصرية بالمواقع الجديدة التي احتلتها على الشريط الممتد من الشمال إلى الجنوب بمحاذاة قناة السويس من الشرق وبعمق يتراوح مابين ١٨، ٢٤ كيلومتراً على أساس أن هذه المواقع تتيح لها أن تتمتع بحماية حائط الصواريخ الهائل على الضفة الغربية للقناة وراءها حيث يبطل أثر الدعم الأمريكي المستمر من الطائرات المستهدف استمرار ضمان التفوق الجوي الإسرائيلي، وبالتالي فإن القوات المصرية في ظل هذه الأوضاع سوف تكون قادرة على تحطيم واحتواء كل الهجمات الإسرائيلية المضادة ولاستنزاف القدرة العسكرية الإسرائيلية.

٢) أو أن القوات المصرية سوف تتلقى بين لحظة وأخرى أمراً بالانطلاق إلى عمق سيناء وصولاً إلى أبواب المضائق الحاكمة في سيناء لكي تتمركز فيها.

ولكن مفاجأة الاختراق الأمريكي ظُهر الثالث عشر من أكتوبر وحيرة الأمريكيين والإسرائيليين في تحديد احتمالات الضربة المصرية القادمة لم يكن ليدفع القيادة المصرية عن الرجوع في قرارها بتطوير الهجوم صباح الأحد ١٤ من أكتوبر وهو القرار الذي تم إقراره يوم ١٢ من أكتوبر انطلاقاً من رغبة أساسية وضرورية في تخفيف الضغط على الجبهة السورية.

وكانت القيادة المصرية في إصرارها على تنفيذ الهجوم الشامل تدرك تماماً ـ استناداً إلى حسابات لايرقى إليها شك وترتيباً على معطيات الفكر العسكري

الإسرائيلي ـ أن إسرائيل سوف تكون خلال ساعات قليلة أمام اختيارين لا ثالث لهما ـ سواء بدأت مصر هجومها الشامل أم لم تبدأ.

أما عن الاختيار الأول : فهو أن إسرائيل قد تبدأ من جانبها معارك واسعة بالدبابات لمنع أو عرقلة احتمالات تطوير الهجوم المصرى، ومع أن مثل هذه الخطوة من جانب إسرائيل سوف تتم في ظروف غير ملائمة لها إلا أنها قد تكون من وجهة النظر الإسرائيلية السبيل الوحيد الباقي أمامها لمنع تطوير الهجوم المصرى.

وأما الاختيار الثاني : فهو أن القوات الإسرائيلية قد تلجأ إلى ضربة مضادة تلائم أوضاعها ولكن ذلك يقتضي أن تسمح لها ظروف القتال بفرصة تساعد على إحدى مناوراتها المفضلة في الاختراق والتطويق.

هكذا وبوضوح كامل لا لبس فيه كانت القيادة المصرية ترى الصورة من كل جوانبها ثقة وعلماً وحساباً وكانت كل ملابسات الموقف تجعل من احتمالات النجاح الإسرائيلي على الجبهة المصرية مجرد وَهْم في ضوء عديد من العوامل أهمها:

١) أن مفاجأة العبور كانت قاسية ومدمرة حطمت واجهة الغرور في المؤسسة العسكرية وشلت تفكير القيادة تماماً وترتب على ذلك نشوء حالة من فقدان التوازن سيطرت على تصرفات القيادة السياسية والعسكرية في إسرائيل.

٢) أن فقدان حالة التوازن في القيادة الإسرائيلية ولدى الرأي العام الإسرائيلي لم يكن مجرد صورة معنوية وإنما كان أكبر من ذلك بكثير فقد انهارت نظرية الأمن الإسرائيلية في أساسها وسقط خط بارليف الحصين وتحطمت مئات من طائرات الشبح الأمريكي "الفانتوم" واحترقت مئات أخرى من الدبابات والمصفحات ووقع في القتل أو الأسر ألوف وفقد الجيش الإسرائيلي القدرة على الصمود.

٣) أن ظروف مسرح العمليات ليست مواتية للعمل بنوع التفكير الإسرائيلي على الجبهة المصرية في ضوء الأوضاع الراهنة إذ أن الأرض المفتوحة من غرب المضائق إلى قمة رءوس الكباري المصرية منطقة ضيقة ومحصورة وهي ليست

الميدان الأفضل للمناورة بالمدرعات واستعمالها في حركات الالتفاف والتطويق بالإضافة إلى أن مساحات كبيرة من هذه المنطقة المحصورة التي لاتسمح بحركات الالتفاف والتطويق تقع تحت نيران المدفعية المصرية البعيدة المدى على الشاطئ الغربي لقناة السويس.. وأهم من ذلك كله أن هذه المنطقة قريبة من حائط الصواريخ وبالتالي فإن عمليات المدرعات الإسرائيلية سوف تجري في غيبة من التمهيد والحماية الكافية من القوات الجوية الإسرائيلية.

وليس من شك في أن هذه الخلفية الكاملة لدى القيادة المصرية هي التي كانت وراء كل ما صاحب عملية التطوير الشامل.

كان هناك تشديد على التمسك برءوس الكباري في سيناء وعدم إضعاف القوات الرئيسية على ضفتي القناة لاستمرار ضمان القوات المصرية اتزانها الاستراتيجي والتعبوي في مواجهة أي تطورات مفاجئة خلال عملية التطوير.

وكان هناك تأكيد على ضرورة استخدام مفارز صغيرة الحجم نسبياً من المدرعة والمشاة الميكانيكية تتمتع بقوة نيران كبيرة وبشرط أن تكون هذه المفارز من خارج التكوين الأساسي لفرق المشاة الخمس التي كان عليها أن تستمر في التشبث برءوس الكباري.

ولقد بدأ الهجوم المصري الشامل في موعده في خطة العمليات بهجوم واسع النطاق بواسطة تشكيلات كبيرة من الطائرات المصرية شملت كل مراكز الحشد والقيادة والتوجيه والشوشرة والمطارات وأجهزة الاتصال والطرق الرئيسية في سيناء وكانت إلى حد كبير ضربة ناجحة وكبيرة متشابهة لضربة الطيران في ساعة الصفر يوم ٦ أكتوبر.

وقد صاحبت عملية الطيران المصري ضربة واسعة مماثلة بالصواريخ التكتيكية أرض المتوسطة المدى ضد نفس المراكز بأهداف الضربة الجوية، وفي نفس التوقيت انهمرت آلاف القذائف من أكثر من ٥٠٠ مدفع ميدان متوسط وثقيل أو عربة إطلاق

صواريخ ولمدة تزيد على ٢٠ دقيقة .. الأمر الذى سهل تماماً عملية تمهيد الطريق أمام القوات المصرية المهاجمة والتى بدأت عملها بالتحديد بعد ١٥ دقيقة من الضربة الجوية وقصف الصواريخ والمدفعية أى فى حوالى الساعة السادسة والنصف صباح يوم الأحد ١٤ أكتوبر حيث بدأت مغاوير المدرعات والمشاة الميكانيكية هجوماً شاملاً على طول الجبهة وفى اتجاه أربعة محاور رئيسية:

- ففى اتجاه ممر متلا اندفع لواء مدرع مصرى وكتيبة مشاة ميكانيكية.
- وفى اتجاه مضيق الجدى انطلق أحد الألوية الميكانيكية.
- وفى المحور الأوسط بدأ هجوم مصرى كاسح.
- وصوب المحور الشمالى قام لواء مصرى بتطهير المنطقة والاندفاع نحو الطريق الساحلى.

وفى مواجهة الهجوم المصرى الشامل على المحاور الرئيسية الأربعة أقامت القوات الإسرائيلية ستارة عنيفة وكثيفة من نيران المدفعية والأسلحة المضادة للدبابات التى كانت تصل إلى أرض المعارك مباشرة عن طريق الجسر الجوى الأمريكى.. فى الوقت الذى دفع فيه الإسرائيليون إلى سماء المعركة بتشكيلات كبيرة من الطائرات لمهاجمة مغاوير القوات المصرية وإيقاف الهجوم الكاسح وتولت المدفعية الإسرائيلية الثقيلة مهمة توجيه نيرانها نحو مواقع صواريخ الدفاع الجوى المصرى.

ولكن كل هذه المدفعية الإسرائيلية الكثيفة من الأسلحة المضادة ومن المدفعية الثقيلة ومن القصف الجوى لم يوقف سرعة اندفاع الهجوم المصرى إذ لم تكن قد مضت سوى ١٠ ساعات على بدء الهجوم حتى كانت تشكيلات متعددة من مغاوير القوات المصرية قد نجحت فى اختراق الدفاعات الإسرائيلية وتحرير مساحات جديدة من الأراضى فى أعماق كبيرة تتراوح مابين ١٢، ١٥ كيلو متراً.

وكان التقدم المصرى السريع ملحمة جديدة من ملاحم البذل والعطاء للإنسان المصرى حيث جرى القتال فى مواقع متعددة على شكل التحام كامل سواء بالسلاح

الأبيض أو بالرشاشــات وحتـى المدرعـات جـرى الصـدام وجهـاً لوجـه وكـم مـن مـرة التحمت فيها مواسير مدافع الدبابات الإسرائيلية والمصرية وتعانقتا عناق الأعداء.

ولقد كانت هناك لحظات وساعات لم يكن فيها شبر من الأرض في المنطقة الواقعة مابين رءوس الكبـارى المصريـة والمداخـل الغربيـة للمضـائق إلا ويـدور فيهـا التحـام وصدام شرس وعنيف فوق بحـور مـن الدمـاء وعلـى أشـلاء مـن الجثـث وتحـت أفق مشتعل بالنيران واللهب.

وقبل أن ينتصف الليل وبعد مرور مايقرب من ١٨ ساعة على بدء الهجوم الشـامل الذي كانت كفة القوات المصرية هى الراجحة طوال كل مراحله كـان واضحـاً أن أهم الأهداف المصرية من تطوير الهجوم قد تحققت وذلك بعد أن بدأ الإسرائيليون تحويـل جهدهـم الجـوى الرئيسـى مـن هضبـة الجـولان إلـى سيناء وبعـد أن أصبحـت الطـرق الرئيسية عبر إسرائيل والنقب تحفل بمئات الشاحنات التى أخذت تنقل المدرعات علـى عجل من الجبهة السورية إلى أرض سيناء.

وزاد من يقين القيادة المصرية فـى تحقيـق هـذا الهـدف أن الإسـرائيليين بـدأوا بعـد ظهر هذا اليوم ولأول مرة منذ بدء الحرب في تحريك الجزء الرئيسى مـن الاحتيـاطى الاستراتيجي والقوات المعبأة التى كانت مخصصـة أساسـاً لحماية قلب إسرائيل ذاتها.

عند هذا الحد وإزاء توافر معلومات جديدة عن حجم ودور الإمداد والدعم الأمريكى وفى ضوء الشواهد الراهنة المحتملـة لتطـورات القتـال علـى الجبهـة السورية قررت القيادة المصرية بتنسيق كامل مع القيـادات الاتحادية أن كـل ملابسـات الموقـف تحتـم الاكتفاء بنجاح الهجوم فى تحقيق هدفه الرئيسى فى تخفيف الضـغط علـى سوريا ومن ثم فقد صدرت الأوامر من غرفة العمليات المصـرية إلى قادة الجيشين بعودة المفـارز المتقدمة إلى مواقعها السـابقة داخل رءوس الكبـارى وأن يصحـب ذلـك إعادة ترتيـب أوضـاع القوات بتنظيمهـا وتقويتهـا لكـى تتـلاءم مـع مـا تشـير إليـه النوايـا الإسـرائيلية المحتملة فى صـباح اليوم التالى ببدء هجوم مدرع مضـاد..

وبنفس الشجاعة التى اتخذ بها قرار العبور المصرى ومن بعده قرار تطوير الهجوم كان قرار القيادة المصرية بعودة المغاوير التى صنعت طليعة الهجوم الشامل، لتساهم في بدء مرحلة جديدة من مراحل الحرب وهى مرحلة تثبيت وتقوية رءوس الكبارى لإحباط الهجمات الإسرائيلية المضادة بالمدرعات والتى كانت المخابرات الحربية قد رصدت كل شواهدها لحظة بلحظة وحللت هذه الشواهد إلى نتيجة رئيسية واحدة وضعتها أمام غرفة العمليات المصرية نتيجة تقول : "لم يعد أمام إسرائيل سوى اتجاه وحيد للحركة سوف يكون باتجاهنا على الجبهة المصرية وفى شكل هجوم مضاد بالمدرعات مستهدفاً محاولة النفاذ فى أى قطاع بين قواتنا للوصول إلى رأس نقطة على الشاطئ الشرقى للقناة".

محاولات جس النبض والهجوم المضاد :

صباح الخامس عشر من أكتوبر كان للجانب الآخر من المواجهة على النحو الذى تصورته القيادة المصرية تماماً فى أعقاب معارك الهجوم الشامل.. فقد حشد الإسرائيليون ٧ ألوية مدرعة فى مواجهة رءوس الكبارى المصرية وتدعمها قوات أخرى تقرب فى حجمها الكلى من ٥ ألوية من الكتائب المستقلة من المشاة والدبابات والعربات المصفحة والمظليين.

وفى خلف هذا الحشد الإسرائيلى الضخم كانت تشكيلات كبيرة من الاحتياطي التعبوى والاستراتيجى قد تحركت من قلب إسرائيل واجتازت مدينة العريش وبدأت عملية إعادة تنظيمها وتشكيلها فى منطقة شرق المضايق وقدرت هذه القوات بخمسة ألوية من بينها لواء المظلات ولواء من الميكانيكيين ولواءان مدرعان.

ورغم هذا الحشد الهائل فإن العمل الإسرائيلى اتسم طوال فترة الصباح بمحاولات لجس النبض والإرهاق فقط حيث اقتصرت كل العمليات الإسرائيلية على مجرد شن هجمات مضادة محدودة الحجم بينما تولى الجزء الرئيسى من القوات الإسرائيلية مهمة إنشاء ما يعرف عسكرياً باسم "خطوط الصد" فى المناطق المواجهة لقوات رءوس

الكبارى المصرية للعمل على تثبيت حركتها عن طريق المشاغلة وذلك باتباع نفس الأسلوب الذى كان متبعاً من جانب الإسرائيليين طوال فترة تورطهم فى الجبهة السورية وقبل بدء عملية تطوير الهجوم المصرى الشامل.

ولم يكن تأخر الإسـرائيليين عن البدء فى هجومهم المضاد المحتمل كجزء من تكتيك عملهم المعد سلفاً من قبل وإنما كانت قد واجهتهم ظروف غير عادية عطلت خطة عملهم المقررة إذ أن وحدات كبيرة من رجال الكوماندو المصريين قد تمكنت فى نفس توقيت عودة المغاوير المصرية إلى قواعدها ابتداء من بعد منتصف ليل ١٤ أكتوبر من التسلل إلى خلف الخطوط فى عمق سيناء ونجحت فى توجيه عدة ضربات قوية جزئية ضد كافة احتياطات الإسرائيليين.

وزاد من ارتباك القيادة الإسرائيلية أنه بينما كانت الضربات تتوالى على كافة المحاور فى عمق الخطوط الإسرائيلية كانت مجموعة أخرى من رجال الكوماندوز المصريين قد بدأت هجوماً شاملاً بعيداً عن العمق فى اتجاه المحور الساحلى الشمالى لسيناء ضد أحد مواقع العدو الحصينة فى منطقة "شرق بور فؤاد".

وعلى الطريق الساحلى شنت المقاتلات المصرية القاذفة هجوماً ضد أحد الطوابير المدرعة التى كانت فى اتجاه الموقع الحصين لنجدته فأوقفت الطابور ودمرت منه ٨دبابات ، و ٥ عربات مجنزرة و٢٣ عربة شئون إدارية، وعلى أبواب الموقع الإسرائيلى الحصين فى شرق بورفؤاد جرى قتال وحشى وعنيف تلاحمت فيه مواجهات الأفراد.

وبعيداً عن عمق سيناء ومحورها الشمالى الساحلى جرت عند أقصى الجنوب وعلى مسافة ٢٠ كيلو متراً داخل سيناء معركة تصادمية واسعة كان للمدفعية المصرية فيها دور حاسم حيث استمر هديرها فى شكل قصف لايعرف الهدوء على الرغم من محاولات الطائرات الإسرائيلية لإسكاتها بالقصف الجوى من ارتفاعات عالية ومسافات بعيدة لتحاشى دخول دائرة الموت التى تصنعها قواعد الصواريخ المصرية المتشابكة ولتأكد استمرار السيطرة المصرية على مركز القيادة

الإسرائيلية غربي ممر متلا الذى كان يسيطر به الإسرائيليون على كل منطقة جنوب سيناء.

على أن أهم ما أسفرت عنه عملية السيطرة على مركز القيادة هو الحصول على وثائق هامة للإسرائيليين تشتمل على خرائط للعمليات وقرارات القتال وصور الاستطلاع الجوى ومفاتيح الكود الشفرى والرمزى وبرقيات القيادة العامة ودرجات تجاوب أجهزة الإعاقة والشوشرة والتوجيه فضلاً عن كميات لاحصر لها من مهمات الشئون الإدارية.

هكذا كانت الصورة التى وجد الإسرائيليون أنفسهم عليها صباح يوم ١٥ أكتوبر الذى حددوه موعداً لبدء توجيه ضربتهم المضادة الواسعة ومن ثم فقد بات محتماً على الإسرائيليين أن يؤجلوا موعد ضربتهم المضادة إلى مابعد ظهر ١٥ أكتوبر وهو ماحسبته القيادة المصرية تماماً واستعدت له فكان ماكان وجرى ماجرى من صدام الدبابات لم تشهد البشرية مثله فى حروبها العالمية.

من الرابعة بعد ظهر ١٥ أكتوبر بدأت القوات الإسرائيلية هجومها المضاد الواسع ضد القوات المصرية على مختلف المحاور التى تنتشر فوقها رءوس الكبارى ولكن ظهر بوضوح أن التركيز الرئيسى موجه أساساً ضد الفرقة المصرية ١٦ مشاة التى كانت تمثل ميمنة الجيش الثانى المصرى والتى كانت تمثل قوة الحراسة للجانب الأيسر من المفصل الموجود بين الجيشين المصريين الثانى والثالث.

وطوال الليل واصل الإسرائيليون موجات هجومهم المضاد بكثافة ودون أى اعتبار لما يتكبدونه من خسائر خصوصاً تلك الهجمات التى تركزت على ميمنة الجيش الثانى المصرى وبالذات قوات اللواء المصرى الذى يحمى الجانب الأيمن للفرقة ١٦ مشاة مصرية.

وقد نجحت قوات هذا اللواء المصرى فى الثبات فى مواقعها واحتواء كل الهجمات المضادة التى وجهت إليها طوال الليل ثم ما لبثت أن تحولت هذه القوات من موقف

الدفاع إلى حالة الهجوم وتمكنت من حصار القوات الإسرائيلية المهاجمة ودمرت عدداً كبيراً منها بلغ وفق أقل التقديرات في هذه الليلة ما يزيد على ثلاث كتائب من الدبابات غير قوات المشاة الميكانيكية المعاونة.

وكانت أول هذه القوات الإسرائيلية المحاصرة والمدمرة هي طليعة أول محاولة إسرائيلية على نطاق واسع لاختراق الأوضاع الدفاعية للقوات المصرية عن طريق استغلال طبيعة الأرض السبخية الملحة في المنطقة المحانية لميمنة الجيش الثاني شرق القناة.

كانت هذه القوات الإسرائيلية التي جرى تدميرها تمثل أفضل القوات العاملة في فرقة "شارون" ولكن الإسرائيليون مع ذلك سارعوا بدفع قوات أخرى بديلة تم تدميرها أيضاً وبسرعة بالغة دفع الإسرائيليون بتشكيلات جديدة دخلت في معارك شرسة مع القوات المصرية التي كانت قد أحسنت تخندقها في هذا القطاع وعززت استعداداتها بقوات أكبر كثيراً مما كان يعتقد الإسرائيليون.

وقد استمرت المعركة في هذا القطاع خمسة أيام متوالية كانت كلها لهيباً وناراً ودماً وأشلاء ودفع فيها الإسرائيليون ثمناً غالياً خصوصاً تلك المعارك التي دارت عند قرية الجلاء المصرية.

ولم ينجح الإسرائيليون طوال معركتهم الشرسة في هذا القطاع في احتلال الموقع المصري الذي كان هدفاً للهجوم والسيطرة عليه سيطرة كاملة إلا بعد إقرار وقف إطلاق النار في ٢٢ أكتوبر.

لقد كان الموقع المصري الذي جرى حوله أضخم قتال بالمدرعات في العصر الحديث يعتبر موقعاً متحكماً في محاور الطرق والمدقات في هذا القطاع.

وصحيح أن الإسرائيليين نجحوا بعد ٣ أيام من القتال حوله في السيطرة عليه ولكن هذه السيطرة لم تدم سوى ٤ ساعات نجحت بعدها القوات المصرية في تطهير الموقع

وإعادة السيطرة المصرية عليه وهكذا استمر القتال والموقع يسقط ثم يستعاد ثم يسقط ثم يستعاد وهكذا !!

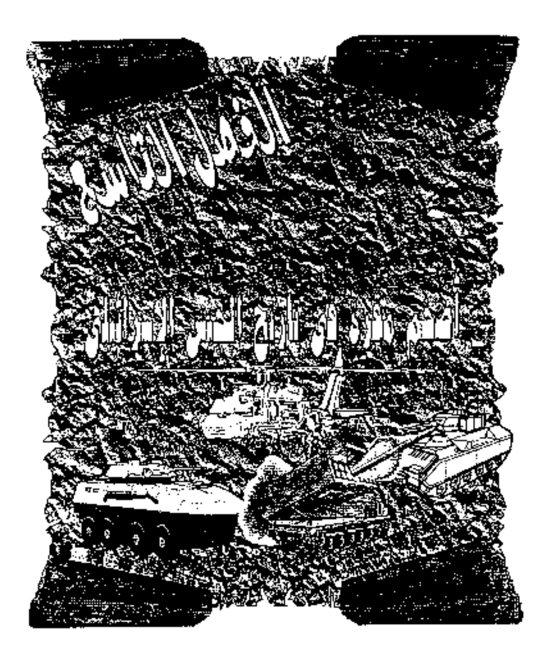
وطوال معارك السقوط والاستعادة جرت معارك الدبابات على مسافات لم يعرفها تاريخ الحروب من قبل حيث وقفت الدبابات المتحاربة على مسافات تصل إلى ١٠ أمتار فقط من بعضها بعضاً، وفي أماكن كثيرة كان يمكن مشاهدة دبابة "باتون" إسرائيلية محترقة على بعد متر واحد من دبابة "ت ٥٥" مصرية مصابة حيث لامست مدافعها بعضها البعض تعبيراً عن مشهد درامي لقول قديم مأثور "عناق الأعداء".

طوال ليل الخامس عشر من أكتوبر كان واضحاً أن الإسرائيليين بكل ثقلهم الذي يدفعون به إلى المعركة يستهدفون أساساً تصفية رأس الكوبري في قطاع الفرقة ١٦ مشاة المواجهة لمنطقة البحيرات بهدف الاستيلاء والوصول إلى نقطة صغيرة على خط المياه في الضفة الشرقية للقناة لإقامة رأس جسر يسهل إمكانية إنشاء عدد من المعابر والمعديات لنقل جزء من القوات الإسرائيلية إلى الضفة الغربية كمحاولة لإثبات الذات قبل إقرار وقف إطلاق النار الذي كانت شواهده كثيرة في المسرح السياسي الدولي تؤكد اقتراب توقيت إقراره.

ولأن النوايا الإسرائيلية كانت واضحة تماماً بهذه الدرجة في ذهن القيادة المصرية فإن الإسرائيليين لم يتمكنوا طوال هجومهم المضاد في هذه الليلة من تنفيذ هدف تصفية رأس الكوبري المصري، وبثمن باهظ من الأفراد والمعدات لم ينجح الإسرائيليون إلا في زحزحة العناصر الأمامية للواء الأيمن للفرقة ١٦ إلى الخلف لمسافة ٢ كيلومتراً فقط.

ويروي الإسرائيليون في مختلف الروايات التي صدرت عنهم عن هذه المعارك "أن قوات شارون واجهت معارضة ضارية ودامية وأن أصعب المعارك كانت تلك التي جرت حول الموقع الذي عرف باسم.. "المزرعة الصينية" وأن المدفعية المصرية كانت تعمل طوال المعارك بوتيرة فتاكة وأن مئات الأطنان من القذائف نزلت على القوات الإسرائيلية وعلى محاور تحركها.

إن ماحدث فى معارك هذه الليلة كان مشهداً من الصعب وصفه فقد انتشرت آلاف الدبابات وزحفت قوافل لانهاية لها من التموين والذخيرة والوقود والجنود على المحور متراً متراً واقتضت الضرورة فى تلك الساعات تجنيد معظم طائرات الهليكوبتر الإسرائيلية لسحب جثث القتلى والجرحى.


الفصل التاسع

إن أضخم مقبرة في تاريخ الجيش الإسرائيلي كانت حول "المزرعة الصينية" ذلك الموقع المصري الحصين الذي يقع إلى الشرق من خط السكة الحديد الموازي لقناة السويس على الضفة الشرقية وفي المنطقة الموازية لعنق البحيرات المرة، ولم يكن الحصن المصري شبيهاً بقلاع خط بارليف وإنما عدة مبان كانت تستخدم قبل حرب ١٩٦٧ كمحطة تجارب زراعية مصرية بالمساهمة مع اليابان التي أوفدت بعض خبرائها وكانت بعض جدران المنازل تحمل عناوين باللغة اليابانية ولعل هذا هو السبب الذي دعا الإسرائيليين إلى الاعتقاد ـ وبعد حرب يونيو ١٩٦٧ ـ بأن هذه الكتابة اليابانية ماهي إلا كتابة صينية واصطلحوا على تسمية المكان باسم المزرعة الصينية.

يقول شارون "كانت المعركة في المزرعة الصينية دامية ومميتة وانتحرت أكثر من مرة قواتنا المدرعة التي حاولت الانقضاض على الخطوط المصرية وهي تتكبد خسائر فادحة، وحتى عندما فكرنا في استخدام المظليين بدلاً من المدرعات للدخول إلى هذا الموقع المصري بعملية انتحارية من أجل السيطرة عليه، فلقد كنت عزوفاً عن سماع حجم الخسائر التي لحقت بنا بفعل التجهيزات المصرية المضادة للدبابات والأفراد".

ويروي إسحق تسفي قائد قوة المظليين الإسرائيليين التي تناثرت أشلاء معظم أفرادها على أبواب المزرعة الصينية: "لقد أحضرونا إلى منطقة القتال بالأتوبيسات وطائرات الهليكوبتر وتلقينا أمراً من القائد العام يقول : "صيادو الدبابات المصريون يحولون دون تنفيذ مهامنا القتالية. انقضوا عليهم ودمروهم بأسرع مايمكن" وبدأت قواتنا تتحرك بضع مئات من الأمتار وفجأة فتح علينا أتون من النار وبدأ تساقط الرجال وصاح أحد قادة المجموعات عبر اللاسلكي قائلاً : "ياإلهي ماذا يجري هنا؟" ولم يكن أمام من كتبت لهم النجاة سوى الالتصاق بالأرض والانتظار حتى تمر العاصفة ولكن محاولات الاختباء والتخندق لم تفلح هي الأخرى فعندما أصدرت أمراً لأحد قادة الفصائل بالتخندق في أحد الأماكن خلال عملية الانسحاب زحفاً فتح المصريون النار على قوة المظليين واصطادوهم وهم مكشوفون على الكثبان الرملية".

إن ما رسمه إسحق تمفي قائد المظليين الإسرائيليين لم يكن سوى صورة مصغرة إذ أن ماجرى للإسرائيليين في هذا القطاع كان هو الجحيم بعينه ولم يكن باستطاعة أحد من الإسرائيليين أن يدخل ميدان المعركة حول المزرعة الصينية ويخرج سالماً إلا بمعجزة فقد كانت كل تخوم هذا المحور مليئة بمراكز الرشاشات والمدفعية تدعمها فصائل متحركة من الدبابات وفصائل أخرى من المشاة الميكانيكية والمشاة المترجلة المزودة بالصواريخ المضادة للدبابات، ولهذا السبب فشلت كل محاولات الإنقاذ التي بذلتها إسرائيل لإخراج المظليين الإسرائيليين من دائرة الموت، وقد واجهت كل فرق الإنقاذ الإسرائيلية سيلاً لايهدأ من النيران جعل من رجال الإنقاذ أضحوكة في هذا المجال إذ كانوا هم في حاجة إلى ما ينقذهم فقد قتل قائدهم وتناثرت أشلاء معظمهم وسقط بعضهم أسيراً في يد القوات المصرية.

ويقول الإسرائيليون في تقريرهم الرسمي عن الحرب : لقد فشلت محاولة إرسال وحدة أخرى لإنقاذ سرية الطليعة أو الانقضاض على الهدف المصري، ولقد تحركت على وحدة الإنقاذ نيران الهاونات وأوقعت فيها قتلى وجرحى وقتل قائد وحدة الإنقاذ الذي حاول انتشال مصابيه واستمرت المعركة ساعات طويلة وأجبرت النيران المصرية المظليين الإسرائيليين على التزام الأرض ولم تمكنهم من الانقضاض أو حتى من التراجع واستمرت عملية انتشال الجرحى الإسرائيليين طوال الليل وفي حالات كثيرة أصيب أيضاً المنتشلون كما أصيبت محطة تجمع الجرحى وأصيب عدد كبير من الجرحى الذين كانوا فيها مرة أخرى !

لقد كان المصريون يطلقون الصواريخ بسرعة إطلاق نيران الرشاشات وكانت مدفعية الجرينوف تطلق النار طوال الليل وأصابت قذائف المدفعية المصرية رجالنا الذين بقوا ملازمين الكثبان الرملية في الطريق إلى المزرعة الصينية.

ولكن تحت ستر هذه المعارك الوحشية تمكن الإسرائيليون من دفع سرية مشاة ميكانيكي على متن بعض حاملات الأفراد البرمائية الأمريكية الصنع من طراز م ١١٣ مع سرية دبابات برمائية، وتسللت تلك القوة الصغيرة في ظلام الليل عبر

الطرف الشمالي للبحيرات المرّة إلى مطار الدفرسوار المهجور واتخذت من كثافة الأشجار والأحراش المنتشرة في هذه المنطقة ساتراً ومخبأ لها وقامت هذه القوات المتسللة صباح ١٦ من أكتوبر بالانتشار متجهة صوب الصواريخ المضادة للطائرات مستخدمة أسلوب قتال الكوماندوز بالمدرعات أي تجري هنا وتضرب هناك وتختفي في مكان آخر، وتمكنت القوة المتسللة من إصابة بعض هذه القواعد وشلها عن العمل بإحداث ثغرة في شبكة الدفاع الجوي المصرية كان العدو يسعى جاهداً لإحداثها منذ بداية الحرب للنفاذ إلى مؤخرة قواتنا ومهاجمتها ولستر نواياه الحقيقية في توسيع نطاق التسلل إلى غرب القناة لتبدأ الحرب مساراً جديداً.

قبل أن ينقضي يوم ١٧ من أكتوبر صدر قرار القائد العام بأن يتولى اللواء عبدالمنعم خليل قيادة الجيش الثاني الميداني بدلاً من اللواء سعد مأمون الذي كان قد أصيب بأزمة قلبية يوم ١٤ من أكتوبر وعلى عكس ما تمنى الإسرائيليون فإن التعليمات صدرت للقوة المصرية شرق القناة بالتشبث بمواقعها وعدم الالتفات للخلف ومواصلة العمل على تحرير المزيد من الأراضي .. فقط تم التقاط مجموعة من الكوماندوز المصرية التي تعمل في العمق خلف خطوط العدو لكي تقوم بدورها في مواجهة التسلل الذي كان قد بدأ يأخذ شكل أسلوب الكوماندوز أيضاً ولكن بالمدرعات !

ومع صباح يوم ١٨ من أكتوبر شكل الإسرائيليون مجموعة عمليات جديدة تحت رقم ٢٥٢ بقيادة الجنرال كالمان ماجن وتضم ٥ لواءات مشكلة حديثاً من بينها لواءان مدرعان ولواءان من المشاة الميكانيكي ولواء مشاة عادي وكانت مهمة هذه المجموعة الجديدة ذات أبعاد ثلاثة أولها مشاغلة القوات المصرية على طول المواجهة في رءوس الكباري والثاني العمل على تثبيت أوضاعها وعدم تمكينها من تحرير مساحات جديدة ثم القيام بهجمات مضادة جديدة إذا أمكن وفضلاً عن ذلك واصل الإسرائيليون ضغطهم الشديد على الفرقة ١٦ بالطيران والمدفعية والعبور غرباً لتثبت رأس الجسر غرب القناة وكان الإسرائيليون في مهمتهم هذه يعملون على محورين رئيسيين.

المحور الأول بمجموعة العمليات رقم ٤٥ التي يتولى شارون قيادتها والمكونة من ٣ لواءات مدرعة هي ٦٠٠، ٤٢١، ١٤ ومعها اللواء المظلي المحمول على عربات مدرعة.

وقد أُسند لهذه المجموعة مهمة مواصلة الضغط على الفرقة ١٦ وزحزحتها شمالاً لتوسيع طريق التسلل إلى منطقة رأس الكوبري شرق القناة وتسهيل عملية إنشاء المعابر.

أما مجموعة العمليات رقم ١٣١ المشكلة من اللواءين المدرعين رقمي ٤٠١، ٢١٧ ولواء المشاة الميكانيكي بقيادة الجنرال ابراهام أدان فقد كلفتها القيادة الإسرائيلية بمحاولة تطوير الانتشار والتسلل غرب القناة جنوباً في اتجاه السويس لاحتلال المدينة وتطويق قوات الجيش الثالث وقطع خطوط الإمداد والتموين عنها.

وببساطة يمكن القول بأنه مع حلول يوم ١٨ من أكتوبر أصبح حجم القوات الإسرائيلية في منطقة الثغرة يتكون من ٣ ألوية هي اللواء المدرع رقم ٤٢١ واللواء المظلي المحمول على عربات مدرعة م١١٣ واللواء المدرع رقم ٢١٧ الذى أكمل عبوره في نفس اليوم.

وخلال نفس اليوم تمكن الإسرائيليون من إنشاء معبر على القناة في منطقة الدفرسوار بينما بدأ اللواء المدرع ٢١٧ الانتشار والعمل في منطقة فايد جنوب الدفرسوار واستخدم الإسرائيليون أسلوب حرب العصابات بالدبابات حيث تنتشر أكبر مجموعة من الدبابات في أوسع مساحة ممكنة وتختار في انتشارها وتمركزها المناطق الضعيفة الخالية من أية مناطق دفاع مصرية وتكتفي بمهاجمة مناطق الشئون الإدارية وبطاريات الصواريخ التي لم تكن محصنة بقوات حماية أرضية كافية طوال يومي ١٩ و ٢٠ من أكتوبر اشتد الضغط الإسرائيلي على الفرقة ١٦ لتأمين استمرار وصول الإمدادات إلى قوة الثغرة بواسطة المعابر وواصل الإسرائيليون تدفقهم وزاد حجمهم غرب القناة وبلغ مع مساء يوم ٢٠ من أكتوبر أكثر من أربعة لواءات في الوقت الذي

ازدادت فيه كثافة الطيران الإسرائيلي في سماء سيناء والدفرسوار بفضل الدعم الأمريكي واسع النطاق.

ولقد كان ذلك دورهم وعملهم لإحداث الثغرة فماذا صنعت القوات المصرية في مواجهتهم وما الثمن الذي دفعه الإسرائيليون ثمناً لحماقتهم؟ .. تلك رواية الإسرائيليين أنفسهم كما وردت في تقرير "اجرانات" الذي وإن كان وصف الثغرة بأنها الإنجاز الوحيد الذي حققته القوات الإسرائيلية في جبهة السويس طوال فترة الحرب إلا أن التقرير يؤكد أن العملية لم تضف إلى السجل العسكري الإسرائيلي شيئاً أكثر من أنها ارتبطت ببناء أكبر مقبرة طينية لجنود إسرائيل على طول التاريخ.

في البداية يعترف التقرير بأن العملية كانت محل خلاف شديد في القيادة الإسرائيلية وكان الإحساس بعدم جدواها يسيطر على الجميع لم يكن المصريون فقط هم الذين ساورتهم الشكوك إزاء احتمالات نجاح محاولة العبور الإسرائيلية ففي الجانب الإسرائيلي أيضاً في القيادة الأمامية للجبهة الجنوبية كانوا يتابعون ما يجري بتوتر وقلق وقد ساورت الضباط الإسرائيليين ـ الذين تلقوا تقارير عما يجري بالنسبة إلى إقامة رأس الجسر الإسرائيلي للاختراق غرباً ـ شكوك خطيرة، وفي وقت معين مساء يوم الثلاثاء ١٦ من أكتوبر لم يكن قد تم بعد استخدام جسر العوامات وكانت قذائف المدفعية المصرية تصيب عدداً منها وتعرقل مواصلة إقامة الجسر .. أخذ الضباط في القيادة الأمامية ينتبهون للأخطار المحدقة بقوة العبور.

ويمضي التقرير : "وفي الساعة ٢٣٠٠ أصيب جسر العوامات الذي أقيم على القناة وفتحت فيه فجوة وأخذت إحدى العوامات التي يتكون منها الجسر تشتعل وفي الوقت ذاته احتشدت في المساحة القريبة من نقطة العبور وفي الطرق المؤدية لها عشرات المركبات المحملة بالإمدادات والذخيرة وكان ضباط الهندسة مرتبكين وحتى تلك اللحظة لم تصل العوامل الاحتياطية التي ستحل مكان تلك التي أصيبت كانت مستقرة في مكان ما على المحور بسبب زحمة السير التي تكونت عليه وواصل رجال الهندسة العمل خلال ٤ ساعات متتالية لإصلاح الفجوة في الجسر وفي هذه الأثناء ازدادت شدة

القصف وتم إخلاء القتلى الأوائل على الجسر على مؤخرة الساحة، وقد عملت محطة تجميع الجرحى طوال الليل تحت النار من أجل مساعدة الجرحى ونقلهم إلى الخلف وكانت كل قذيفة تنفجر داخل الساحة تسبب ضرراً وتؤدى إلى سقوط قتلى إسرائيليين".

وينقل التقرير عن ضابط إسرائيلي يدعى أبراهام روايته عن تلك العملية التي تولى فيها مسئولية قائد الجسر : "كانت تلك الليلة أصعب ليلة في حياتي، كان علينا أن ننقل على الجسر وحدات مدرعة ومدفعية. لم تكن هناك سيطرة على المحاور وبعد كل رشق من المدفعية المصرية كان علينا أن نركض ونتفقد الجسر من جديد وكان يحدث في كل مرة عطل آخر وخلال تلك الساعات الرهيبة تلقت عوامة كانت تسير وسط القناة إصابة مباشرة وغرقت الدبابتان اللتان كانتا عليها وقد استطاع ثلاثة فقط من أفراد الطواقم الثمانية القفز منها إلى الخارج.

ويضيف التقرير: "وعندما أخذت التقارير عما يحدث حول نقطة العبور تصل إلى قيادة الجبهة الجنوبية ازدادت المخاوف على مصير رأس الجسر وصاح الجنرال شموئيل جونين قائد المنطقة باللاسلكي بالجنرال شارون : "ليس هذا ما وعدتنا به".

إن تقرير إجرانات يقول : "كانت قوات التسلل نفسها تتألف من قوتين أساسيتين: قوة مظليين محمولة على مجنزرات وكانت مهمتها الوصول إلى ضفة القناة وعبورها بالقوارب المطاطية والتقدم إلى الجانب الغربي لتمكين مد الجسور وكانت القوة الثانية تشكيلاً مدرعاً.

وقد بدأ التسلل في ١٥ أكتوبر قبل الظلام تقريباً بمعارك ضارية ودامية مع وحدات سلاح المشاة المصري التي كانت متخندقة جيداً شرق القناة واتضح أن المصريين عززوا استعداداتهم بقوات أكبر كثيراً مما كان يتصور في البداية وقد استمرت المعركة في هذا القطاع ثلاثة أيام وكانت أصعب المعارك بصورة خاصة تلك التي جرت حول الموقع الذي عرف باسم "المزرعة الصينية".

كانت المعركة فى "المزرعة الصينية" مستمرة منذ ٤٨ ساعة وقد تراجعت القوة المدرعة الإسرائيلية التي حاولت اختراق الخطوط المصرية وهى تتكبد خسائر فادحة. وعند ليلة الأربعاء ١٧ من أكتوبر تقرر إرسال قوة مظلات لمحاولة تطهير التجهيزات المصرية المضادة للدبابات المختدقة.

ولم يختبر المظليون الإسرائيليون في تاريخهم مثل هذه الكمية من النيران. وكان عدد المصابين يزداد من لحظة إلى أخرى وقد أضيىء الليل المظلم بقنابل مضيئة وعبارات الإشارة التي تقول : "لقد فشلت محاولة إرسال وحدة أخرى لإنقاذ سرية الطليعة أو الانقضاض على الهدف المصري وقد نزلت على وحدة الإنقاذ نيران الهاونات وأوقعت فيها مئات القتلى والجرحى وقتل قائد وحدة الإنقاذ الإسرائيلية الذى حاول انتشال مصابيه واستمرت المعركة ساعات طويلة وأجبرت النيران المظليين على التزام الأرض ولم تمكنهم من الانقضاض أو حتى التراجع واستمرت عملية انتشال القتلى والجرحى طوال تلك الليلة وفى حالات عديدة أصيب أيضاً المنتشلون كما أصيبت محطة تجميع الجرحى وأصيب عدد كبير من الجرحى الذين كانوا فيها مرة أخرى".

-يروى أحد القادة الإسرائيليين: "كان المصريون يطلقون الصواريخ بسرعة إطلاق نيران الرشاشات وكانت مدافع "الجرينوف" تطلق النار طوال الليل وأصابت قذائف المتفجرة المصرية رجالنا الذين بقوا بين الكثبان الرملية في الطريق إلى المزرعة الصينية".

-يروى الجنرال أدان: "عبرنا الجسر في العاشرة ليلاً ليلة ١٧ من أكتوبر وماكانت تمر ثلاث دبابات من دباباتنا حتى تعطل الجسر وبقى متهاوياً لوقت ما وبينما كنا متجمعين هناك تلقينا أشد قصف عرفناه".

ومنذ اللحظة التي اكتشف فيها المصريون حقيقة وجود التسلل وحجمه وجهوا إليه معظم القوات المدفعية التي كانت في حوزتهم في تلك المنطقة، وقد بذلوا جهوداً

مضنية لهدم الجسور وضرب القوات الموجودة حولها وإذا كانوا قد امتنعوا حتى تلك المرحلة من دفع طائراتهم إلى المعركة بكميات كبيرة فقد شرعوا بعد ذلك في إرسالها موجات نحو الجسور والمحاور المؤدية إليها وكانت الموجودة بالقرب من الجسور هي المحطة الأساسية لإخلاء المصابين أما طائرات الهليكوبتر التي سقط منها أعداد كبيرة في عمليات انتشال الجرحى فلم يسمح لها بالهبوط في الجانب الغربي من القناة خوفاً من إصابتها بالصواريخ.

وقد تعرضت الساحة خلال جميع تلك الأيام للقصف والهجمات الجوية المتواصلة وفي رسالة بعث بها قائد إسرائيلي إلى قيادته في أحد هذه الأيام قال : "لئن انقضت هذه الليلة عليّ فإنها كانت أعجوبة".. أطلقوا علينا نيران الكاتيوشا طوال الليل، كان القصف أسوأ وأقسى الأمور التي مرت علينا هنا حيث رافقت ذلك القصف غارات جوية فعندما يكون مجرد قصف فإنه يكون ولكن عندما يأتي مع هجوم جوي فإنه أصعب كثيراً، عندما تسقط القذائف تريد أن ترى أين تسقط لكي تهرب منها لتغير موقعك، ثم تسقط المدفعية، عندئذ تريد أن تدفن الرأس في الرمال. كان هذا أتوناً حقاً. ويبدو أن المصريين قرروا القضاء على الجسر وقد أنزلوا علينا يوم الخميس ١٨ من أكتوبر ٣ أسراب رباعية من الطائرات وحطموا الجسر وقتلوا رجال الهندسة وقائدهم.

وبينما كانت تتساقط قذائف المدفعية المصرية الثقيلة على الجسر أخذت المعركة على الجسر تزداد حدة. وقال مظلي إسرائيلي يدعى إيلان كان يقف على مقربة من الجسر : "كنا جالسين في مجنزرة وسقطت علينا قذيفة خطرة وفجأة سمعنا واحد يصرخ في الخارج: رجلي .. رجلي جرحت .. وكان ذلك المشهد يتكرر كثيراً".

وبعث آخر برسالة لقيادته يقول فيها : "كان هناك مثلاً قطاع كان اجتيازه إحدى التجارب القاسية، وكان هناك قصف وفجأة صراخ: طائرات وإغارات الطائرات وأما أنا فقفزت مذعوراً وقد ألقيت قنابل نابالم وأصبت أنا بشظاياها. ركضت باتجاه الجسر وبينما كنت أركض شاهدت ٤ طائرات "ميج" تغير علينا لتسقط بالساتر الترابي ورأيت القنابل تسقط والصواريخ تنطلق، اقتربت من الجسر ورأيت هناك مسلحاً ونحو عشرة

من الرفاق اختبئوا بين الساتر وبين جرار كان هناك. وأغارت عليهم الطائرات وأصابتهم. هناك كل شيء حولهم يشتعل كان منهم القتلى والجرحى. كانت هناك تلة صغيرة داخل "الساحة" عليها حمالات وحمالات وحمالات وهي مغطاة بالبطانيات وبمرورك من هناك تشاهد أحذية حمراء وسوداء، وخضراء وتشاهد أطراف خصلات الشعر الأشقر والأسود كانوا هناك وبالمئات وخشيت أن أرفع بطانية فإن رفعت بطانية رأيت رفيقاً".

واعترف أحدهم في مذكراته: "كنت أفكر ملياً في تلك الصفوف من الحمالات في الليالي الطوال وانتظرت مطلع النهار لأبتعد عن تلك المناظر ولكي أتوقف عن الركض تحت وابل القصف ففي الليل يطلق المصريون النار بصورة متواصلة والذي لم ينزل علينا هناك فلا شيء أقل من عيارٍ ١٦٠ملم وكان يسقط بصوت بسبب علة وكانت الساعات تمر زحفاً".

وطبقاً لما ورد في تقرير لجنة اجرانات فقد استمرت المعركة الدفاعية التي خاضها الإسرائيليون في المنطقة الموصلة لنقطة التسلل شرق القناة ٧ أيام متتالية منذ السادس عشر من أكتوبر وحتى وقف القتال. وروى كبير الضباط الأطباء : "إنك تتلقى دون أن يكون في مقدورك أن تفعل شيئاً وكأن أحداً يوقفك في الزاوية ويضربك بقبضته وكل ما تستطيع أن تفعله هو أن تتلقى الضربات. حدث مرة قصف شديد وخرجت بسيارة جيب إلى الجانب الآخر لأحضر الجرحى وعندما عدت من هناك على الجسر سقطت قذيفة في المساء أمامي تماماً ووصلت إلى محطة تجميع الجرحى وإذا بقذيفة تسقط على بعد ١٠ أمتار فقفزت إلى دبابة الإخلاء وطرقت لهم على الباب فاعتقدوا أن ذلك طرق شظايا على الباب ولم يفتحوا ولم يدخلوني إلا بعد أن سمعوا صراخي ثم خرجت ومرة أخرى سقطت قذيفة واختبأت في مكان جلوس وطأطأت رأسي وسمعت الصفير وزعقات الشظايا وبعد أن خف القصف التفت وشاهدت دبابة تشتعل وكان هناك قبل ذلك طاقم دبابة تناول وجبته فقد تلقى أفراده الأربعة إصابة مباشرة ولم يبق منهم أحد".

بعد أن تمكن الإسرائيليون في منطقة الدفرسوار من ضرب بعض محطات الدفاع الجوى وشل فاعليتها وأصبح هناك قدر من حرية الحركة أمام الطيران الإسرائيلى للعمل فوق منطقة الثغرة، بدأت محاولة ترجمة التسلل إلى حقيقة احتلال وكان الهدف هو التقدم شمالاً نحو الإسماعيلية باعتبارها مدينة هامة وسوف يعني سقوطها في أيديهم شهادة أمام العالم وأمام أنفسهم بأنهم صنعوا في الحرب شيئاً.. فضلاً عن أنهم تصوروا أن مثل هذا السقوط قد يكون مدخلاً للتأثير على معنويات المقاتلين المصريين شرق القناة.. وأهم ما في الأمر أن القيادة المصرية لم يكن غائباً عنها للحظة أن محاولة التقدم نحو الإسماعيلية قد تكون جزءاً من مناورة للخداع والتضليل عن الهدف الرئيسي للانتشار جنوباً نحو السويس بينما كان الطريق إلى الدفرسوار موحشاً وقاتلاً ورهيباً دفع فيه الإسرائيليون ثمناً باهظاً كان الطريق إلى الإسماعيلية نموذجاً آخر لبسالة المقاومة المصرية.

لم يكن على الطريق سوى مجموعة من رجال المشاة المصريين المحتمين بأحد المواقع جنوب شرق الإسماعيلية وبدأ أول طابور إسرائيلي مدرع مكون من ١٢ دبابة يجتاز قرية سرابيوم في الطريق إليهم.

ولم تكن مجموعة المشاة المصرية سوى أربعة رجال فقط قرروا فيما بينهم ودون الرجوع إلى أحد أن يتشبثوا بمواقعهم وأن يوقفوا الطابور المدرع المندفع أو يستشهدوا تحت جنازيره كنقطة صمود أولى تكون مقدمة وجرس إنذار للمواقع المصرية بعدهم.

وبدأت الدبابات الإسرائيلية تقترب من موقعهم وهي تطلق النيران في كل اتجاه لبث الذعر والتفتيش عن وجود أية قوات مصرية ترد عليهم بالمثل. وبإحساس فطرى غريب أدرك الرجال الأربعة أن الدبابات الإسرائيلية قد أصبحت في مرمى نيرانهم فانطلقت دفعة من الصواريخ المضادة للدبابات لتفجر أربع دبابات جاءت إصاباتها قاتلة ويتوقف الطابور المدرع عن الاندفاع ويبدأ بإطلاق النيران بكثافة وفي كل اتجاه بينما ينسحب الرجال الأربعة زحفاً على بطونهم في اتجاه موقع آخر يقيمون فيه كميناً جديداً لطابور الدبابات الإسرائيلية.

وحسناً ماصنعه الرجال الأربعة فلم تمض لحظات قليلة على مغادرتهم لموقعهم حتى كانت كتلة من جهنم سقطت فوقه.. مئات الدانات الثقيلة وتصور الإسرائيليون أنهم قد قضوا على كل مقاومة في المنطقة ومن ثم قرروا معاودة الاندفاع شمالاً وتقدم طابورهم مرة أخرى وإذا به يواجه النيران من موقع آخر.

ويتوقف الطابور ليصب نيراناً كثيفة يرد عليها الرجال الأربعة بنيران مماثلة من أربعة اتجاهات تزيد من ربكتهم ويتصور الإسرائيليون أن المنطقة كلها ملغومة بأفراد الكوماندوز المصريين ويصيح أحدهم والنار تمسك بمقعدته : "يا إلهي إنهم فراعنة نزلت لعنتهم علينا".

وبدأ الطابور الإسرائيلي يتراجع للخلف معلناً فشله وعجزه وعلى محور آخر كانت ثمة محاولة أخرى جرت أحداثها يوم ٢١ من أكتوبر عندما حاول الإسرائيليون التقدم من واحة المنايف في اتجاه ترعة المخيف جنوب الإسماعيلية ودارت معركة رهيبة استمرت حتى غروب شمس ذلك اليوم، وإن هي إلا ساعات حتى تم إعلان وقف إطلاق النار في الساعات الأولى ليوم ٢٢ من أكتوبر تنفيذاً لقرار مجلس الأمن رقم ٢٣٨، وكعادتهم دائماً حاول الإسرائيليون استغلال احترام القوات المصرية للقرار وبدأت محاولة انتشار جديدة ظهر يوم ٢٢ عندما تقدمت دورية استطلاع إسرائيلية مدرعة على الطريق من سرابيوم إلى الإسماعيلية وما أن تقدمت الدورية بضع مئات من الأمتار واقتربت من الكوبري رقم ١٠ على ترعة المنايف حتى كانت نيران مصرية هائلة تنصب عليها من كل اتجاه، وأصابت أول قذيفة مصرية أول عربة في الدورية المتصلة وهي مدرعة من طراز ١١٣ فنزعت غطاء موتورها وأشعلت فيها النيران وبات مستحيلاً إمكان استمرار الدورية في التقدم فارتدت إلى الخلف مصحوبة بنيران هائلة أحدثت خسائر لايعرف مقدارها إلا الإسرائيليون الذين عاشوا لحظاتها وكتبت لهم النجاة من أهوالها.

ومرة أخرى حاول الإسرائيليون التقدم من طريق آخر بـ١٤ دبابة ليواجهوا بكمين آخر يدمر لهم ٦ دبابات ويضطرون إلى الاستغاثة بقواتهم الجوية التي حاولت عبثاً مع نيران كثيفة من المدفعية والمدرعات تمشيط المنطقة وتهيئة المسرح لتقدم قواتهم.

وفجأة يظهر في أرض المعركة عامل جديد لم يكن في الحسبان ولم يكن وارد في ذهن الإسرائيليين عندما هوت ٥طائرات في ٣ دقائق بواسطة الدفاع الجوي المصري الذي تصوره الإسرائيليون قد انتهى تماماً من المنطقة وتفشل المحاولة ويعيد الإسرائيليون تنظيم أنفسهم من جديد لمحاولة أخيرة كانت آخر مراحل فشلهم على طريق الإسماعيلية بينما غرفة العمليات المصرية تتابع باهتمام بالغ ما يجري على أبواب الإسماعيلية مايقوم به الأبطال المصريون لصد المحاولات الإسرائيلية المتكررة للوصول إلى المدينة رغم قرار وقف إطلاق النار.

صباح يوم ١٩ من أكتوبر قام الإسرائيليون خلال انتشارهم السريع جنوباً في اتجاه السويس بقطع الترعة التي تمد المدينة بالمياه، وفي اليوم التالي هاجمت الطائرات الإسرائيلية خطوط الضغط العالي على طريق القاهرة السويس فانقطعت الكهرباء عن مدينة السويس، ومع تزايد حملات الإرهاب التي بدأ الإسرائيليون توجيهها ضد سكان القرى المعزل في مناطق الدفرسوار ومرابيوم وأبو سلطان وفايد بدأ النزوح وكانت وجهة النازحين دائماً صوب السويس لكن أحداً من أبناء السويس لم يفكر للحظة في مغادرة المدينة على الرغم من أن الطريق إلى القاهرة كان حتى هذه اللحظة مفتوحاً وآمناً.

ولم يتوقف نزوح الفلاحين من قراهم صوب السويس حتى يوم ٢٣ من أكتوبر، وبعد إعلان وقف إطلاق النار بأربع وعشرين ساعة كان قد دخل السويس أكثر من ١٢ ألف مواطن جديد ليتضاعف عدد المقيمين بها.

كان الخطر داهماً وكان الجميع يتوقعه بين لحظة وأخرى رغم قرار إطلاق النار ومن ثم بدأ العمل في تشكيل قوات الجيش الشعبي من المتطوعين الموجودين داخل كردون المدينة وعندما بدأ الطيران الإسرائيلي ظهر يوم ٢٣ أكتوبر في قصف

السويس كان مسجد الشهداء قد أصبح أشبه بغرفة للعمليات التي بـدأت منهـا أول خيوط المقاومة الشعبية ضد محاولة غزو السويس التي كـانت قـد بـدأت ملامحهـا تظهـر مـن خلال عمليات القصف المركـز طـوال اليـوم لتمهيـد الطريـق للمشـاة الإسـرائيليين فـي اقتحام المدينة.

وعندما حل المسـاء ومـازالت الطـائرات الإسـرائيلية تواصـل قصفهـا للمدينـة كـان مسجد الشهداء صامتاً بلا حركة رغم أن أدواره الأربعة كانت مكتظة بـأكثر مـن ألف نسمة لم يكن لهم من حديث إلا عن وسيلة صد الغزو المحتمل خصوصـاً بعد أن أكـدت معلومات الرجال الذين تولوا حماية مداخل المدينـة أن القـوات الإسـرائيلية بـدأت مـع فجر اليوم ٢٤ من أكتوبر تحركـاً بالمدرعـات فـي اتجـاه المداخـل الثلاثـة للمدينـة مـن ناحية طريق الزيتية وعلى طريق القاهرة السويس ومن طريق الإسماعيلية الزراعي.

ومن قلب المسجد خرجت أول إشارة إلى كافة أنحاء المدينة تحيط المواطنيـن علمـاً بنبأ تقدم المدرعات الإسرائيلية صوب المدينة وبدأت جماعات المقاومـة الشـعبية تـأخذ مواقعهـا علـى جـانبي شـريط السـكة الحديـد مـن حـي الأربعيـن حيـث يتوقـع مجـئ الإسرائيليين.

ومن فوق أسطح المنازل كان المواطنون يتابعون تقدم قول من الدبابات الإسـرائيلية "٣٠ دبابة في (عز) الظهر حتى وصل إلى ميدان الأربعين دون أدنـى مقاومـة وكـأن السويس خلـت مـن أيـة مقاومـة وفجـأة بـدأ هدير الطلقـات من مدافـع "الآر بـي جـي" المضادة للدبابات وتعطلت مقدمة القول" بتعطل أول دبابة فيه وبدأت بعض الدبابات في الاتجاه في طريق آخر صوب قسم شرطة الأربعين بينمـا وقفـت مجموعـة أخـرى من الدبابات وأطلقت نيران مدافعها صوب مصادر النيران المصـرية، ولأن المقاومة كـانت شديدة ولم تكن واردة في الحسبان بعد القصف الكثيف الذى قام به الطيران الإسرائيلي فإن ارتباكاً شديداً حل بالإسرائيليين ودفـع معظمهـم إلـى الفـرار فـي محاولـة للاختبـاء داخـل قسم الشـرطة فـي محاولـة للاحتفـاظ بضبـاط وجنـود القسـم كرهـائن للمسـاومة ومسرعان ما وزعوا أنفسهم على كافة أدوار القسـم وسدوا كـل النوافذ والأبـواب لمنـع

المقاومة الشعبية من اقتحام المبنى ووضعوا مأمور القسم وضباطه في إحدى الحجرات وكلفوا مجموعة بحراستهم وهنا أصبح الاختبار صعباً أمام قيادة المقاومة.

كان في الإمكان تدمير قسم الشرطة بمن فيه من جنود العدو ولكن العقبة تكمن في هدف المحافظة على أرواح الضباط والجنود المصريين المحتجزين داخل القسم "ضابطان وثلاثة جنود" ولكن رأياً آخر كان يلقى بعض التأييد وينادي أفراده بترك الإسرائيليين داخل القسم حتى يعلنوا استسلامهم حيث لاخطورة من استمرار بقائهم لم يلق قبولاً كاملاً فلم يكن الرجال على استعداد للتسليم بوجود إسرائيليين داخل المدينة دون عراك.

وانتصر الرأى المتطرف القائل بعدم توقف محاولات اقتحام القسم مهما كانت التضحيات وبالفعل بدأت مجموعة من رجال المقاومة عملها وفشلت أول محاولة واستشهد أبطال آخرون وأصبحت الشوارع المحيطة بالقسم مسرحاً لأبشع أنواع القتال المتلاحم بالسلاح الأبيض وبالرشاشات وبالقنابل اليدوية.

وبينما معركة اقتحام القسم على أشدها استطاع أحد الجنود المصريين المحتجزين داخل القسم اقتحام الحجرة المحتجز فيها مأمور القسم وضباطه وقتل قوة الحراسة الإسرائيلية عليها وسهل لجميع المصريين المحتجزين الخروج من الباب الخلفي للقسم.

وكانت فرصة نادرة لكي ينفذ رجال المقاومة خطتهم بلا حذر واندفعت طلائعهم نحو باب القسم ودارت معركة شرسة وامتدت لتشمل كل أنحاء المدينة. وعندما أدركت القيادة الإسرائيلية حقيقة المصيدة التي وقع فيها جنودها حاولت دعمهم وإنقاذهم بإرسال قول مدرع عن طريق الأدبية كان صيداً سهلاً لمجموعة الكمائن فدمرته تماماً.

وجرت محاولة دعم جديدة عن طريق الإسماعيلية الزراعي واجهت مقاومة عنيفة مما اضطر الإسرائيليين لوقف المحاولة، ولكنهم لم ييأسوا وجربوا محاولة جديدة عن طريق كوبري الزراير ولم يكن نصيب هذه المحاولة أفضل من سابقاتها.

ودخل الليل على المدينة والظلام دامس والقتال مازال مستمراً في الشوارع والدبابات المحطمة المحترقة ينبعث منها ضوء ودخان وتتسلل ٥ دبابات إسرائيلية صوب بور توفيق في محاولة لضرب قوات الجيش الثالث شرق القناة ولكنها تلقى مع أطقمها أسوأ نهاية فقد تحولت الدبابات الخمس بكل ما فيها إلى كتلة من الفحم.

وظلت المدينة طوال الليل يقظة لاتعرف النوم وقوات المقاومة تحاول تصفية كل ماتبقى من أثر للإسرائيليين بينما الكل يتوقع أن تشهد المدينة مع صباح يوم ٢٥ من أكتوبر محاولة اقتحام جديدة وحدث ماكان متوقعاً فما إن انبلج نور الصباح حتى كانت طائرات الفانتوم والميراج تغطي سماء المدينة وتقصف كل ركن فيها وكان ذلك أفضل إنذار لأهل السويس لكي يستعدوا للغزو القادم فدائماً يمهد الإسرائيليون لهجومهم الأرضي بقصف جوي عنيف.

ولم تمض سوى ساعتين وفي التاسعة صباحاً بالتحديد كان الإسرائيليون قد نجحوا في محاولتهم الجديدة صوب مبنى شركة السويس لتصنيع البترول والتي تبعد عن المدينة حوالي ٥ كيلو مترات واحتلوا مبناها وأجبروا مديرها على الاتصال بمحافظة السويس للإبلاغ عن سقوط الشركة في أيديهم.. ثم ما لبثوا أن أجبروه مرة أخرى على الاتصال بغرفة عمليات المحافظة لينقل للمحافظ إنذاراً يتكون من نقطتين :

(١) إعلان استسلام المدينة في مدة لاتتجاوز نصف ساعة تنتهي في العاشرة صباحاً على أن يحضر المحافظ على رأس جميع المواطنين الموجودين داخل المدينة.

(٢) إنه في حالة عدم الاستجابة للإنذار، فإن القوات الإسرائيلية ستقوم بهدم المدينة على من فيها بواسطة الطائرات المدفعية.

وكرر الإسرائيليون بلاغ الإنذار أكثر من مرة ولم يكن هناك من رد سوى أن البحث مستمر عن المحافظ بينما كانت هناك محاولات شتى لإجراء اتصال فوري مع القاهرة وإبلاغها بما يجري وإزاء تعذر الاتصال بالقاهرة بدأ المحافظ مشاورات مع عدد من مساعديه وقيادات المقاومة الشعبية وكان هناك إجماع على رفض الإنذار الإسرائيلي جملة وتفصيلاً.

وقبل موعد انتهاء الإنذار بخمس دقائق نجحت محاولة الاتصال بالقاهرة.

وعبر اللاسلكي شرح المحافظ للقاهرة كل تفاصيل الموقف والظروف التي تحيط بالمدينة.

وكان رأي القاهرة مثل رأي شعب السويس تماماً.. رفض الإنذار شكلاً وموضوعاً والمقاومة إلى آخر مدى.

ومع انتهاء الاتصال بالقاهرة جاء على التليفون صوت القائد الإسرائيلي مجدداً الإنذار مشيراً إلى انتهاء المهلة المحددة ...

وكان الرد هذه المرة مختلفاً عن المرات السابقة : "إننا نرفض الإنذار ولكم أن تتصرفوا كما تشاءون".

وإزاء هذا الموقف لجأ الإسرائيليون إلى خدعة خبيثة لضرب روح الوحدة والتماسك داخل المدينة إذ بدأوا يذيعون بمكبرات الصوت المركبة فوق دباباتهم أنباء مختلفة وكاذبة تتحدث عن مفاوضات جارية لتسليم المدينة يجريها المحافظ مع القيادة وبدأت سيارات المحافظة تذيع بمكبرات الصوت بياناً باسم المحافظ يؤكد فيه تصميم السويس على الصمود ورفض إنذار العدو.

ووسط جو من القلق والترقب لما سيقدم عليه الإسرائيليون عاشت المدينة لحظات قاسية لم يبددها سوى أزيز الطائرات التي بدأت تغطي سماء المدينة دون أن تقصفها.

ومر اليوم وحل المساء دون أية محاولة من جانب الإسرائيليين لتنفيذ إنذارهم، ولكن أحداً لم يصدق أنهم قد تراجعوا عن هدفهم فقد كان الكل في السويس.. يتوقع معاودة الهجوم.

ومع أول ضوء من صباح ٢٦ من أكتوبر بدأت المدفعية الإسرائيلية قصفاً عنيفاً ومركزاً على المدينة من كل الاتجاهات ثم أعقب ذلك عملية إرهاب نفسي جديدة بتحليق الطائرات دون أن تقصف شيئاً وتحت مظلة الإرهاب بدأت محاولة جديدة للغزو.. اقتحم الإسرائيليون مقر شركة النصر للبترول التي تبعد حوالي ٤ كيلو مترات

عن المدينة وأجبروا العاملين على ركوب السيارات المدنية الخاصة بالشركة ودفعوا بهم إلى مقدمة قول إسرائيلي مدرع أخذ طريقه صوب المدينة. (وكان معنى تصدي دفاعات السويس لمحاولة الغزو تعريض الموظفين المصريين المدنيين للموت. كما كان تركهم يدخلون المدينة يعني سقوطها في أيديهم وضياع كل التحصينات التي بذلت لتحقيق الصمود).

وبينما الحيرة مسيطرة على قيادات المقاومة الشعبية دق جرس التليفون في غرفة عمليات المحافظة وفي كلمات سريعة ومقتضبة قال مدير شركة النصر للبترول إن الإسرائيليين أنزلوا موظفي الشركة من السيارات وأركبوهم سيارة أخرى اتجهت إلى الأدبية وأن سيارات الشركة التي تتقدم القول المدرع خالية تماماً من الركاب وستائرها مسدلة وأنها جزء من خدعة جديدة لاقتحام السويس.

واقتربت الدبابات الإسرائيلية من مداخل المدينة على ثلاثة محاور وانفتحت نيران الجحيم من كل اتجاه وآثر الإسرائيليون السلامة وارتدوا منسحبين.

وفي اليوم الثاني ٢٧ من أكتوبر كرر الإسرائيليون محاولتهم باستخدام مجموعة من الفلاحين الذين ألقي القبض عليهم في القرى المجاورة وأجبروهم على اعتلاء سيارة مدرعة في مقدمة قول من الدبابات بينما مكبرات الصوت تذيع أن محافظ السويس قد وقع معهم اتفاقاً وأنه يهيب بالمواطنين عدم المقاومة حرصاً على أرواح الفلاحين.

ومرة أخرى فإن اللعبة لم تنطل على أحد ولم يصدق أهل السويس حكاية الاتفاق المزعوم، ومع أول طلقة مباشرة من مواقع "الآر بي جي" اشتعلت النيران في مقدمة القول المدرع وقفز سائق السيارات المدرعة هارباً وارتدت بقية القول للخلف منسحبة ولم يبق في ساحة المعركة عند مدخل المدينة سوى دبابة إسرائيلية مشتعلة وعربة مدرعة إسرائيلية بلا سائق وعليها الفلاحون الأسرى الذين ران عليهم الصمت فترة ثم ما لبثوا أن انفجروا ضاحكين وهم يخطون أول خطوة نحو المدينة مرددين: "يابيوت السويس يابيوت مدينتي استشهد تحتك وتعيشي إنت يابيوت السويس".

وأخيراً في ختام هذا الفصل لابد من كلمة :

نعم حدثت ثغرة.. تسلل منها العدو ولكن هل هذا يعني أن هذا العمل كان مفاجأة لقيادتنا من ناحية التوقيت أو المكان أو شكل العملية ذاتها؟

بالقطع لا.. فلم يكن في المغامرة الإسرائيلية أية مفاجأة لنا. كان ذلك احتمالاً وارداً في تخطيطنا وتقديرنا لاحتمالات رد فعل الإسرائيليين على عملياتنا.. ومن ثم كان هناك تنبيه مشدد على منطقة الفصل بين الجيشين الثاني والثالث باعتبارها نقطة ضعف وخصصنا قوات لتأمين الجانب الأيمن للجيش الثاني والجانب الأيسر للجيش الثالث بحيث تستطيع النيران أن تصل في الوقت المناسب إذا حدث اختراق.

كان من المستحيل أن نغطي كل شيء من الأرض على امتداد المواجهة ونؤمنها بقوات عسكرية ولكننا أمّنّا المناطق الضعيفة للحماية من الاختراق.. أما عن كيف تم الاختراق فإن الإسرائيليين كانوا يقومون بهجمات مضادة عنيفة حتى يوم ١٣ من أكتوبر على قوات الجيشين الثاني والثالث وفي يوم ١٤ من أكتوبر قررنا تطوير الهجوم شرقاً لنحقق هدفين رئيسيين أولهما : تخفيف الضغط على الجبهة السورية، وثانيهما : تحرير مساحات جديدة من الأرض في سيناء.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هل كنا مصيبين في قرار التطوير ذاته وفي هذا التوقيت بالذات وهل لهذا القرار علاقة بحدوث الثغرة؟

والجواب هو أن التطوير كان ضرورة وكان من المستحيل أن نتوقف وكان لابد من تنفيذ الخطة الموضوعة عن أنه لم يكن مستساغاً أن تبقى قواتنا في مواقعها ونتحول من موقف الهجوم إلى موقف الدفاع لأن بقاءها مدافعة فقط تصد هجمات العدو المضادة كان سيتيح له أن يخترقها من أماكن عديدة لأن هجماته كانت مستمرة وكان الاختراق هدفاً رئيسياً من أهداف خطة العدو.

إن الإسرائيليين كانوا يحتفظون بشريط قتالي من الشمال إلى الجنوب يبتعد عن قواتنا ١٥ كيلو متراً ومن مواقعه هذه كان يستطيع تركيز هجماته من أكثر من محور، ومن ثم كان واجبنا أن نواصل تحرير مساحات جديدة من الأرض نتقدم إليها لكي

نصل إلي مواقعه ونجبره علي التقهقر شرق المضائق ونؤمن قواتنا من هجماته المضادة المستمرة.

أما القول بأن الثغرة بدأت مع تطوير الهجوم فذلك قول غير صحيح فالتطوير بدأ يوم ١٤ من أكتوبر ولكن البداية الفعلية لعملية الثغرة بدأت في حوالي الساعة العاشرة من مساء ١٥ من أكتوبر عندما تمكنت قوة صغيرة للعدو من الوصول إلي غرب القناة في الوقت الذي كان اللواء سعد مأمون قائد الجيش الثاني قد ترك موقعه بسبب نقله إلى المستشفى منذ صباح يوم ١٤ لإصابته بنوبة قلبية ومع أن تسللاً وقع مساء ١٥ من أكتوبر فإن القيادة العامة لم تبلغ إلا صباح ١٦ من أكتوبر ولابد أن نعترف أن ذلك كان أول الأخطاء في عملية الثغرة.

وفضلاً عن ذلك فإن البلاغات التي وردت للقيادة كانت متضاربة فبعضها يتحدث عن تقدم المدرعات الإسرائيلية إلى الشمال صوب الإسماعيلية وبعضها يتحدث عن انتشارها السريع في اتجاه الجنوب صوب السويس، وبينما كان تقرير القيادة المحلية في قطاع الثغرة أنها عملية محدودة يمكن القضاء عليها بسرعة كان الواقع غير ذلك تماماً.

لقد رأت القيادة العامة أن الأمر لايمكن تركه للقائد المحلي وأنه يجب أن يعالج علي مستوى القيادة العامة لأن الهجوم علي القوات المتسللة بالقوات الاحتياطية غرب القناة لم يكن كافياً، ومن ثم صدر قرار القيادة العامة بوقف العمل بقوات صغيرة وصدرت الأوامر باستخدام لواء كامل من المدرعات مدعماً بحشد من نيران المدفعية وبمعاونة فعالة من الطيران ولكن مقاومتنا لم تنجح لأن دبابات العدو وسعت نطاق انتشارها في المناطق الجبلية والمناطق الكثيفة بالأشجار التي صنعت لها نوعاً من الحماية والتمويه الطبيعي.

لقد قاتلت قواتنا ببسالة واستشهد أبطال عظام خلال عملية الهجوم علي قوات الثغرة التي بدأت يوم ١٧ من أكتوبر والتي كانت تستهدف أساساً حصار الثغرة في أضيق مساحة من الأرض غرب القناة والإسراع بتدميرها وفي نفس الوقت تشديد الهجوم

شرق القناة لإغلاق منفذ الثغرة وذلك بأن يهاجم الجيش الثاني جنوباً ويهاجم الجيش الثالث شمالاً لسد الثغرة وقطع خطوط الإمداد وعمل مصيدة للمتسللين غرب القناة.

ولم يكن ذلك مجرد تخطيط على الورق وإنما جرى تنفيذه فعلاً. لقد تقدمت قوات الجيش الثاني جنوباً وتقدمت قوات الجيش الثالث شمالاً وضاقت المسافة بينهما إلى مايقرب من ٤ كيلو مترات فقط وأصبح إغلاق الثغرة وشيكاً وجرى قتال رهيب استخدمت فيه كافة أنواع الأسلحة وخسر الإسرائيليون أكبر خسائرهم في الحرب في هذه المعارك ولكنهم استطاعوا مواصلة التسلل غرباً وزيادة حجم قوات الثغرة في المنطقة الجبلية غرب القناة وبدأ الإسرائيليون محاولتيهما الفاشلتين ضد الإسماعيلية والسويس اللتين صمدتا ببسالة فائقة.

وبقي سؤال هو: هل كان بإمكان الإسرائيليين بعد تسللهم وخرقهم لوقف إطلاق النار بعد ٢٢ من أكتوبر وإغلاق طريق (القاهرة ـ السويس) أن يدمروا قوات الجيش الثالث شرقي القناة.

والجواب: بالقطع لا ـ لأن قوات الجيش الثالث في هذا الوقت كانت تتكون من فرقتي مشاة مدعمتين بالمدفعية ولديها تموين تدخره يكفي للقتال عدة أسابيع.

ويبقى أننا نعترف بأن هذه الثغرة تعتبر نجاحاً تكتيكياً للإسرائيليين ولكن لاينبغي أن ننسى إلى جانب ذلك أن الموقف الاستراتيجي العام للقوات الإسرائيلية كان يواجه الفشل الكامل.. أي أن هذا النجاح التكتيكي لم ينقذ الفشل الكامل .. أي أن هذا النجاح التكتيكي لم ينقذ الفشل الاستراتيجي للعدو في الوقت الذي كان هناك نجاح استراتيجي كامل لمصر لايمكن أن ينال منه خطأ تكتيكي قد نكون وقعنا فيه خلال عملية مقاومة الثغرة.

إن إيقاف إطلاق النار بصورة فعلية لم يتم إلا بعد ظهر يوم ٢٨ من أكتوبر بعد وصول قوات الأمم المتحدة إلى مواقعها بين الجانبين، ولكن اعتباراً من يوم ٣١ من

أكتوبر بدأت قواتنا المسلحة تنفيذ خطة عمل كاملة لحرب استنزاف وإزعاج ضد الإسرائيليين شرق وغرب القناة.

وكان هدف الاستنزاف والإزعاج عدم السماح للإسرائيليين بالتمركز وتثبيت أوضاعهم في المناطق التي تسللوا إليها.. فضلاً عن أن ذلك كان بمثابة تهيئة المناخ لهجوم شامل لتصفية الثغرة وفق خطة جرى رسمها وصدق عليها السادات تحت اسم "خطة شامل" يوم ٢٤ من ديسمبر.

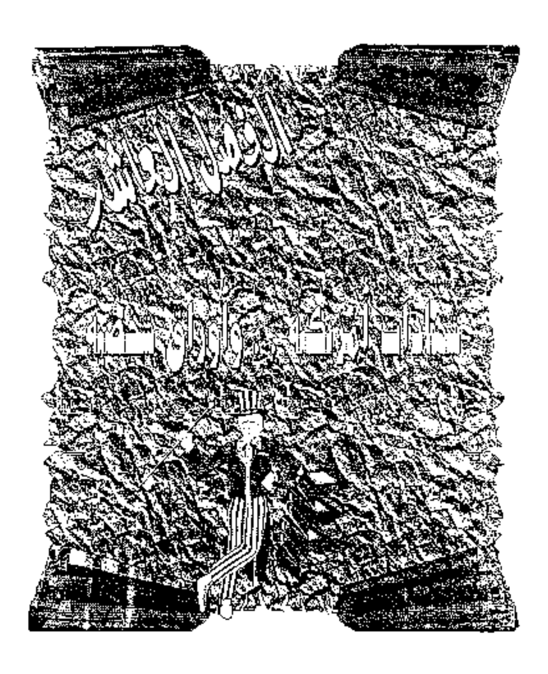
كان للخطة قوات جاهزة بقيادة مستقلة تولاها اللواء سعد مأمون الذي كان قد عين مساعداً لوزير الحربية، ولم يكن من حائل دون بدء الهجوم الشامل إلا صدور قرار القائد الأعلى للقوات المسلحة لأن الخطة "شامل" تم تسليمها إلى جميع قيادات القوات المسلحة قبل تصديق القائد الأعلى عليها وبالتحديد في ٧ من ديسمبر، وبدأ كل في موقعه يتخذ التدابير الكفيلة بتنفيذها "القوات البرية والجوية والبحرية والدفاع الجوي". وبنظرة سريعة على أوضاع قوات الجانبين في ديسمبر ١٩٧٤ نجد أن كل دبابة إسرائيلية غرب القناة كان يقابلها دبابتان مصريتان وقطعتان مضادتان للدبابات.

وكان الإسرائيليون محاصرين من كل جانب وليس لهم سوى منفذ وحيد في الدفرسوار لايزيد عرضه على ٥ كيلو مترات.

أي أن الإسرائيليون كانوا يفتقدون إلى أبسط قواعد القدرة على المقاومة والصمود غرب القناة لافتقادهم مايسمى "متطلبات الاتزان الاستراتيجي" فكل القوات المتسللة شبه محصورة والقوات المصرية شرق القناة مازالت متمركزة بثبات في مواقعها على طول المواجهة وهي تكسب كل يوم أرضاً جديدة وخطوط الإمداد الإسرائيلية طالت إلى أكثر من ٣٠٠ كيلو متر والممر الوحيد للإمداد أشبه بنفق ضيق ومظلم عرضه ٥ كيلو مترات ومحاصر من الجانبين بقوات الجيشين.

ولهذا لم يكن غريباً أن يقبل الإسرائيليون اتفاق الفصل الأول للقوات في يناير ١٩٧٤ بسرعة وتلهف لقد كانوا في مأزق لم يكن بالإمكان خروجهم منه بسلامة بغير هنري كيسنجر ورحلاته المكوكية المتلاحقة بين القاهرة وتل أبيب.

وإذا كانت المدافع قد سكتت إلا أن أصداء قذائفها ظلت تفرض نفسها على أجواء الدبلوماسية التي بدأت تأخذ دورها تأكيداً لاستمرار الحرب وبلوغ أهدافها بوسائل جديدة تستمد قوة الدفع من أجل حرب لم تدخل مصر من أجل الحرب، وإنما دخلتها لكي تسترد الحقوق الضائعة وتحقق السلام المنشود.



لا أعتقد أن الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون كان يعبر عن رأيه الشخصي فقط عندما التقى بعدد من وزراء الخارجية العرب يوم ٧ أكتوبر ١٩٧٣" أى بعد يوم واحد من بدء حرب أكتوبر المجيدة، وظهور مؤشرات قوية تؤكد سقوط أسطورة التفوق العسكرى الإسرائيلي وقوله لهم بالحرف الواحد: "إن الولايات المتحدة الأمريكية سوف تساعد إسرائيل علناً وبدون أية محاولة للتستر لأنها ملتزمة بضمان إسرائيل" .. كان نيكسون يومها وبرغم كراهية اليهود له ـ يعكس وجهة نظر السياسة الأمريكية وثوابتها إزاء منطقة الشرق الأوسط.

واليوم عندما تصاب واشنطن بالخرس ولاتصدر عنها كلمة إدانة واحدة ضد إرهاب الدولة الإسرائيلية الذى بلغ ذروته فى محاولة اغتيال أحد زعماء حركة حماس فى قلب العاصمة الأردنية "عمان" فإن ذلك ينبغى ألا يكون مدعاة للدهشة والاستغراب لأن كلينتون ٩٧ لايختلف عن نيكسون ٧٣، وإن أولبرايت ذات الجذور اليهودية تؤدى نفس دور هنرى كيسنجر اليهودى "لحماً ودماً" .. ثم إن صمت الرئيس الأسبق ليندون جونسون الأمريكي الراهن إزاء عمليات الاستيطان ومحاولات نسف الاتفاقيات وضرب الحائط بمقررات الشرعية الدولية.

نعم .. ليس هناك جديد.

نعم .. علينا أن نتعامل مع مايجرى أمام أعيننا على أساس أن أمريكا وإسرائيل كيان واحد حتى ساعة تاريخه.

وقد عزز من قناعتى بذلك كتاب صدر فى أمريكا أخيراً تحت عنوان: "إسرائيل والمصالح الوطنية الأمريكية TIONAL INTEREST ISRAEL THE AMERICAN ومؤلفه أمريكية من أصل يهودى اسمها تشيريل روبنبرج وتعمل أستاذة مساعدة بكلية العلوم السياسية بجامعة فلوريدا الدولية فى ميامى. وتعتبر من أبرز المتخصصين فى شئون الشرق الأوسط حيث صدر لها من قبل عدة كتب ودراسات وبحوث قيمة لعل أهمها كتاب "منظمة التحرير الفلسطينية وبنيتها التحتية".

وكما تقول تشيريل روبنرج في كتابها، أنها لم تكتب ماكتبته إلا بعد دراسة طويلة امتدت بها أكثر من عشر سنوات، وأنها بدأتها وهي مقتنعة تماماً، مثل معظم الأمريكيين ـ بأن التزام الولايات المتحدة بأمن وازدهار إسرائيل إنما هو موقف أخلاقي من أقوى وأغنى دولة في العالم إزاء إسرائيل الصغيرة الصاعدة "المحاطة" بوحوش كاسرة مصممة على إلقائها في البحر وإزاء الشعب اليهودي الذي قاسى من أهوال الهولوكست وأفران الغاز على يد هتلر وزبانيته.

ثم تستطرد المؤلفة قائلة : أنها بعد أن أبحرت في دراستها وتعمقت في أغوار المشكلة وسافرت بنفسها إلى معظم دول المنطقة ـ بما فيها إسرائيل ـ والتقت بالعديد من الشخصيات المسئولة ثم عادت إلى واشنطن لتلتقي بأعضاء الكونجرس ومسئولي البيت الأبيض، خلصت إلى عدة حقائق هامة هي :

١) أن الدعاية الصهيونية نجحت على امتداد ٥٠ عاماً متصلة وبواسطة غطاء كثيف من الإعلام الموجه للرأى العام الأمريكي "تحديداً" في أن تفرض مفهوماً مناقضاً تماماً لحقيقة النزاع العربي الإسرائيلي، إلى حد أن المواطن الأمريكي بات يسلم بصحة هذا المفهوم "الخاطئ" دون تفكير أو تمحيص.

٢) أن خلاصة إبحارها المحايد في أعماق المشكلة، قد أكد لها أن إسرائيل لاتشكل فقط خطراً على جيرانها، بل أن خطرها الأكبر على الولايات المتحدة ذاتها!

٣) أن الصورة الثابتة لدى الرأى العام الأمريكي حول الشرق الأوسط ومايجري به من نزاعات ليست إلا زيفاً مضللاً.

ومن الأسف ـ كما تقول تشيريل روبنرج ـ فإن هذه الحقائق التي استخلصتها مازالت تمثل ـ إلى اليوم ـ جدار الوهم الذي يحكم توجهات السياسة الأمريكية بالشرق الأوسط في شكل انحياز أعمى لايرى إلا ما تبصره عين إسرائيل فقط.

والحقيقة أن هذا الكتاب يمثل استثناء لما يصدر في أمريكا من كتب ودراسات تنتصر دائماً لإسرائيل ـ بالحق والباطل ـ وقد يكون ذلك وراء عدم الاهتمام بنشره في كبريات الصحف الأمريكية، كما يحدث لعديد من الكتب التي تقل أهمية عنه.

وتقول مؤلفة الكتاب في الفصل الأول: "إن أمريكا كانت تتعاطف مع إسرائيل سراً وعلى استحياء في السنوات الأولى لقيام الدولة العبرية ولكن الأمر بدأ يتغير مع بداية الستينات.

عندما ساد الأمريكية انطباع بأن الرئيس المصري جمال عبدالناصر تمادى في مناطحته لأهداف وتوجهات السياسة الأمريكية في المنطقة بدءاً من تنبيه لإنشاء حركة عدم الانحياز مع صديقه جواهر لال نهرو رئيس وزراء الهند، وجوزيف بروز تيتو رئيس جمهورية يوجوسلافيا الاتحادية، ومروراً بإحياء حركة القومية العربية وإسقاط حلف بغداد، **ومشروع ايزنهاور لملء الفراغ في الشرق الأوسط ووصولاً إلى الخط الأحمر** المحظور وتجاوزه بإعلان القرارات الاشتراكية والدعوة لتعميمها في كل دول المنطقة، ولامتداد الذراع العسكرية المصرية خارج الحدود في اليمن والجزائر والكونجو.

ومن سوء حظ مصر والعالم العربي، ومن حسن حظ إسرائيل، أن ذروة السخط الأمريكي تجاه سياسات عبدالناصر. قد جاء إبان فترة رئاسة الرئيس الأمريكي ليندون جونسون، الذي كان يعاني اكتئاباً شديداً بسبب عجزه عن الخروج من ورطة الحرب في فيتنام، وتصاعد غضب الرأي العام الأمريكي ضده نتيجة تصاعد الخسائر الأمريكية هناك.

وطبقاً لما ورد في كتاب «إسرائيل والمصالح الوطنية للولايات المتحدة الأمريكية»، تقول المؤلفة أن الأخوين اليهوديين والتر ويوجين روستو اللذين كانا في الوقت أقرب المستشارين إلى عقل وقلب جونسون همساً في أذنه بأنه بالإمكان سحب اهتمام الرأي العام الأمريكي بعيداً عن فيتنام ـ لبعض الوقت حتى تتحسن الأحوال ـ عن طريق

تمكين إسرائيل من إلحاق هزيمة سريعة وساحقة بجمال عبدالناصر بعد توفير الأسلحة والمعدات اللازمة لذلك، وإعطاء إسرائيل الضوء الأخضر الصريح بشن العدوان.

وتستشهد المؤلفة في كتابها على صحة ذلك الترتيب التآمري بما أسمته بالدور المخادع الذي قامت به إدارة الرئيس جونسون عقب نجاح الضربة الإسرائيلية في يونيو ١٩٦٧ ومعارضتها الشديدة والواضحة في مجلس الأمن للدعوى إلى انسحاب القوات الإسرائيلية إلى مواقعها قبل ٥ من يونيو ١٩٦٧ كما تقضي بذلك الأعراف الدولية، وعلى نحو مناقض تماماً لموقف الرئيس الأمريكي الأسبق دلويت إيزنهاور من العدوان الثلاثي على مصر في أكتوبر ١٩٥٦ وإصراره على ضرورة انسحاب القوات الفرنسية والبريطانية والإسرائيلية فوراً.

ثم كانت الكارثة بالنسبة للعرب، عندما جاء الرئيس نيكسون إلى الحكم وأتى معه بهنري كيسنجر حيث تصاعد الانحياز الأعمى الأمريكي لإسرائيل وبلغ ذروته على أساس قاعدتين متناقضتين هما:

١) اقتناع الإدارة الأمريكية بأن إسرائيل هي أداتها القوية لتأكيد النفوذ الأمريكي وحماية المصالح الأمريكية في الشرق الأوسط.

٢) مواصلة العمل على إقناع الرأي العام الأمريكي بأن إسرائيل دولة صغيرة وضعيفة ومستهدفة وأن العرب يريدون إلقاءها في البحر!

والكتاب يتناول جوانب كثيرة ومهمة من جوانب الصراع العربي ـ الإسرائيلي ويعطي اهتماماً خاصاً للفترة مابين يونيو ١٩٦٧ وأكتوبر ١٩٧٣ ومحاولات أمريكا تجميد الموقف وإبقاء الحال على ماهو عليه بوسائل شتى .. وكذلك يعطي الكتاب اهتماماً بمقدمات محادثات كامب ديفيد وما بعدها وكيف كان الأمريكيون والإسرائيليون يتصورون أن كامب ديفيد يمكن أن تكون بداية لانسلاخ مصر عن أمتها العربية. وارتمائها الكامل في أحضان السياسة الأمريكية.

ولكن الذى يهمنى أن أركز عليه الجزء الخاص بحرب أكتوبر وشهادة الكتاب عن هذه الحرب "أن حرب أكتوبر قد أسقطت كل الحسابات الأمريكية والإسرائيلية".

وتبدأ تشيريل روبنرج شهادتها عن حرب أكتوبر بقولها : "إنه مهما اختلفت الأقوال حول مدى النصر الذى حققه العرب فى أكتوبر ٧٣، فإن أحداً لايجادل فى حقيقتين لاتقل إحداهما أهمية عن الأخرى، وكان لهما أثر هائل فيما جرى بعد ذلك من أحداث هائلة بالمنطقة .. وهاتان الحقيقتان هما:

١) سقوط نظرية الأمن الإسرائيلية التى كانت تقوم على أساس أوهام التخلف الأبدى للعرب، والجيش الإسرائيلى الذى لايقهر والخطوط الدفاعية المنيعة التى لايجسر أى عاقل على التفكير فى اقتحامها.. وأن كل هذه الأوهام قد تبددت تحت أقدام الجنود المصريين وهم يكتسحون خط بارليف بكل حصونه الأسطورية فى بضع ساعات لتدفن تحت أنقاضه وإلى الأبد تلك الأوهام التى صورت للإسرائيليين إمكانية العيش بسلام مع استمرار احتلال الأراضى العربية.

٢) أن نجاح العرب فى استخدام سلاح البترول لأول مرة كان له نفس تأثير الانتصار العسكرى، لأنه نقل النزاع العربى ـ الإسرائيلى من مجرد مشكلة إقليمية إلى مشكلة دولية لاتهم أمريكا وحدها، وإنما تهم أيضاً أوروبا واليابان وسائر الدول المستهلكة للبترول فى العالم.

ولأول مرة ـ كما تقول المؤلفة فى كتابها ـ يصبح الهاجس الأساسى لأمريكا هو الحيلولة دون تجدد القتال مرة أخرى، والإلحاح على عقد اتفاقيات لفك الاشتباك على عكس ماكان عليه عقب حرب ١٩٦٧ عندما كانت السياسة الأمريكية استناداً إلى الانتصار الإسرائيلى تصم آذانها عن أية نداءات للسلام وتتحرك فقط فى اتجاه الدعم العسكرى والاقتصادى المطلق لإسرائيل.

وتتحدث المؤلفة عن صفقات الفانتوم وأجهزة التشويش والإعاقة وشبكات الصواريخ التى تدفقت على إسرائيل مابين يونيو ٦٧ وأكتوبر ٧٣ بهدف استمرار

ضمان التفوق العسكرى لإسرائيل تحت وهم كاذب بأن ذلك التفوق كفيل بمنع نشوب القتال على نطاق واسع مرة أخرى.

وتشير المؤلفة إلى إهمال واشنطن لجهود المبعوث الدولى جونار يارنج وتجميدها للمحادثات الثنائية والمحادثات الرباعية آنذاك، لكى تنقل إلى العرب رسالة مفادها أنه لا إمكانية للحرب ولا أمل فى أية جهود دولية بشأن التسوية وأن السبيل الوحيد هو الركوع أمام أمريكا والقبول بالشروط الإسرائيلية.

وحتى عندما اتخذ الرئيس السادات قراره بطرد الخبراء الروس من الجيش المصرى عام ١٩٧٢ لم تلق هذه الخطوة أى اهتمام من إدارة نيكسون وكيسنجر فى ذلك الوقت، ولو لمجرد الإيحاء بأن هذه تعتبر خطوة مشجعة للبحث عن طريق لتسوية للنزاع العربى الإسرائيلى.

ثم جاءت صفقة الوفاق بين القوتين العظميين فى قمة نيكسون وبريجنيف الشهيرة عام ١٩٧٢ لتمثل أفضل الأوضاع ملاءمة لإسرائيل وأمريكا معاً، وهو ما عبرت عنه جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل آنذاك بقولها الذى أورده هنرى كيسنجر فى مذكراته "إننا لم نكن فى يوم من الأيام أحسن حالاً مما نحن الآن، فالوضع القائم هو أكثر الأوضاع ملاءمة لأمن إسرائيل، لأن العرب لايملكون الخيار العسكرى".

وفجأة كما تقول مؤلفة كتاب "إسرائيل والمصالح الوطنية الأمريكية" ـ اندلعت حرب أكتوبر وكانت مفاجأة حقيقة للإسرائيليين والأمريكيين معاً..

وأدركت كل من واشنطن وتل أبيب أن الهزيمة قد لحقت بإسرائيل منذ اليوم الأول لنشوب الحرب..

ويقول الكتاب أنه فى اليوم التالى للحرب مباشرة "٧ أكتوبر" أصدر كيسنجر تعليماته لوزير الدفاع جيمس شليزنجر بأن يتخذ الترتيبات اللازمة لكى تقوم طائرات العال الإسرائيلية بشحن آلاف الأطنان من الذخائر والأسلحة الإلكترونية المتقدمة بما

فى ذلك صواريخ "سايد ويندر" من القواعد البحرية الأمريكية فى ولاية فرجينيا.. وبدأ الجسر الجوى الأمريكي بالفعل قبل فجر يوم ٧ أكتوبر.

وعملاً على رفع الروح المعنوية للإسرائيليين الذين كانوا قد أصيبوا بالذعر والهلع، وقف الرئيس الأمريكي نيكسون فى ساحة البيت الأبيض ليعلن بنفسه يوم ٩ من أكتوبر التزام واشنطن بالاستجابة إلى كل طلبات إسرائيل من الأسلحة بما فيها الطائرات والدبابات والذخائر والصواريخ والقنابل الموجهة بأشعة الليزر وقنابل "سمارت".. كما أعلن نيكسون أن أمريكا ستستخدم طائرات السلاح الجوى الأمريكى لنقل المعدات إذا لم تكف الطائرات التجارية لهذه المهمة.

وهكذا ـ كما تقول المؤلفة ـ أخذت الأسلحة والمعدات والأجهزة المتقدمة تتدفق على إسرائيل بعد أن انفتحت لها كل أبواب مخازن البنتاجون بل إن بعض هذه الأسلحة شحنت إلى إسرائيل قبل أن تدخل فى خدمة الجيش الأمريكي.. غير أن هذا الجسر الجوى تلقى دفعة هائلة ابتداء من يوم ١٤ أكتوبر وحتى يوم ١٥ من نوفمبر ـ أى لمدة شهر كامل ـ حيث قامت الطائرات الأمريكية بـ ٥٧٨ رحلة إلى إسرائيل.

وتنقل المؤلفة فى كتابها شهادة مهمة لجيمس نويس مساعد وزير الدفاع الأمريكي لشئون الأمن الدولى يقول فيها: "إن الولايات المتحدة اضطرت لنزع سلاح عشرات الوحدات القتالية فى داخل أمريكا وفى غرب أوروبا لكى تفى بمتطلبات إسرائيل.. وإن كل هذه الأسلحة قد أعطيت لإسرائيل على سبيل الهبة".

وتنقل مؤلفة الكتاب عن كيسنجر قوله: "إن حرب أكتوبر كلفت الولايات المتحدة ٣ مليارات دولار كمدفوعات مباشرة من الخزانة الأمريكية ومابين ١٠ إلى ١٥ خسائر غير مباشرة".

ثم قد يكون مفيداً أن أختتم مقالى بفقرة مهمة وردت فى ختام هذا الكتاب الرائع، الذى يندر أن يصدر مثله فى أمريكا ويقلم له جذور يهودية، حيث يقول تشيريل روبنبرج بالحرف الواحد مايلى:

إن واقع الأمر يشهد بأن نفوذ اللوبي الصهيوني في صياغة وتنفيذ السياسة الأمريكية بالشرق الأوسط قد أصبح بالفعل وكأنه قبضة تمسك بخناق الإرادة الأمريكية، فلم تعد المسألة مجرد الاعتقاد الخاطئ بأن إسرائيل تمثل رصيداً إيجابياً للمصالح الأمريكية .. ولكن المشكلة أن اللوبي اليهودي قادر على الاحتفاظ بهذا الاعتقاد الوهمي وتحويله إلى حقيقة غير قابلة للمناقشة مهما كان الضرر الذي يسببه للمصالح الحقيقية لأمريكا.

وتضيف في ختام كتابها قائلة: "أنه إذا كان العالم العربي يبدو الآن ضعيفاً ومنقسماً ومشتتاً وغير قادر على تحدي الهيمنة الإسرائيلية، فإن من الخطأ الفادح أن يتصور أن هذا الوضع لن يتغير.. فالتاريخ عبارة عن مراحل متتالية من الصعود والهبوط.. وأقرب الدول وأسرعها إلى الهبوط هي الدولة التي تفرض سلطانها على غير شعوبها ولاينبغي لعاقل أن يتصور أن ٢٠٠ مليون عربي سيظلون مستسلمين لإرادة أربعة أو خمسة ملايين إسرائيلي حتى لو كان هؤلاء مسنودين في ظل الولايات المتحدة الأمريكية.

قالتها امرأة يهودية ليست منجمة ولا من ضاربات الودع، ولكنها أستاذ للعلوم السياسية في واحدة من أعرق الجامعات الأمريكية.

وظني أن كلماتها الأخيرة تستحق التأمل وتستحق المراجعة !!

وربما يكون ضرورياً ونحن نسترجع بعض ذكريات ذلك اليوم المجيد، أن نلقي نظرة على الأوضاع والمفاهيم التي كانت سائدة قبل حدث العبور العظيم. وبالذات على امتداد الفترة من ١٠ من يونيو ١٩٦٧ عندما تأكد وقوع الهزيمة العربية على مختلف جبهات القتال وحتى مساء السادس من أكتوبر ١٩٧٣ عندما تأكد النجاح العربي في إلحاق الهزيمة الاستراتيجية والتكتيكية بإسرائيل على الجبهتين المصرية والسورية.

كانت نكسة يونيو ١٩٦٧ قد صنعت قناعاً من الغرور يغطي وجه إسرائيل كلها خاصة ووجوه جنرالات المؤسسة العسكرية الذين أصبح في أيديهم كل مفاتيح الحركة والتوجيه للمجتمع الإسرائيلي بأسره.

وكان هناك إحساس عام سواء داخل إسرائيل أو في معظم الأوساط الدولية بأن إسرائيل تملك تفوقاً عسكرياً ساحقاً يمكنها من حسم أى تهديد تتعرض له استناداً إلى قوة جيشها الذى يحتفظ دائماً بزمام المبادأة فى يديه، ويقدر على إجهاض أية محاولة لتحدى قوته، وهى مازالت في طور النيات، وأنه حتى إذا نجح العرب في أن يصنعوا المعجزة "المستحيلة" وأن يبدءوا الضربة الأولى، فإن إسرائيل تستطيع في ساعات محدودة أن تنقل الحرب إلى أرض خصومها وأن تؤمن سلامة العمق الإسرائيلي من أية مخاطر وأن تحسم الصراع بأسلوب الحرب الخاطفة التي تجيدها!!

وكانت حالة اللاسلم واللاحرب قد طالت وأدت إلى ارتفاع جدار الوهم الإسرائيلي بعدم قدرة العرب على تغيير الأمر الواقع وضرورة استسلامهم للشروط الإسرائيلية، وساعد على ذلك أن دعوات اليأس والإحباط قد تعالت في معظم العواصم العربية من طول فترة السكون على جبهات القتال!

وكانت معظم الحسابات العلمية والعسكرية تقدر حاجة العرب ـ خصوصاً مصر ـ إلى ما يقرب من ٥٠ عاماً على الأقل لتجهيز الاستعدادات اللازمة لعبور قناة السويس كحاجز مائي بالغ الصعوبة، ثم اقتحام خط بارليف الذي يتجاوز في تحصيناته ومناعته كل ماعرف من الحصون العسكرية الشهيرة في التاريخ الحديث، مثل خط سيجفريد الألماني، وخط ماجينو الفرنسي.

وكانت أجواء الوفاق بين القوتين العظميين "الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي" قد فرضت حالة من الاسترخاء على معظم مناطق الصرّاع في العالم، وبدأ الهمس يتزايد خصوصاً في بلدان العالم الثالث، عن تفاصيل صفقة الوفاق التي تخلى بها الاتحاد السوفيتي عن مبادئه مقابل المصالح والمكاسب التي سيحصل عليها من جراء تطبيع علاقاته مع أمريكا.

وكان .. وكان .. الكثير والكثير مما أدى في النهاية إلى وضع غشاوة على عيون إسرائيل ولمحققاتها كانت هي التي صنعت جانباً كبيراً مما اصطلح عليه باسم خطة الخداع التعبوي والاستراتيجي لكل من مصر وسوريا على حد سواء، مما أدى إلى تحقيق المفاجأة الكاملة لإسرائيل ظهر يوم السادس من أكتوبر على جبهتي قناة السويس وهضبة الجولان.

ومن الإنصاف أن نقول إن الرئيس أنور السادات لعب الدور الأكبر في بناء خطة الخداع بتحركاته الماكرة في الداخل والخارج، وكانت شواهد التحرك السياسي والدبلوماسي لمصر على امتداد العالم كله توجد انطباعاً تلقائياً للجميع بأن الخيار الوحيد أمامنا هو السعي واللهث وراء حل سلمي، وأن احتمالات إقدام مصر على شن حرب ضد إسرائيل لاستعادة أراضيها احتمالات ضعيفة وفي الأغلب فإنها احتمالات مستحيلة !

صيغة أساسية هي الإلحاح على طلب المساعدة وبذل الجهد المستطاع للتوصل إلى حل سلمي مشرف يزيل آثار عدوان يونيو ١٩٦٧.

ثم جاءت جولة السادات "العربية" السريعة والمفاجئة في أغسطس ١٩٧٣ أي قبل موعد بدء الحرب بأسابيع قليلة لتكتمل منظومة الخداع الاستراتيجي والتكتيكي الرائعة. حيث قيل وقتها إن زيارة الرئيس السادات لكل من السعودية وقطر كانت من أجل طلب المساعدة والدعم لإنقاذ الاقتصاد المصري الذي وصل إلى قرب درجة الصفر، وإن توقفه في دمشق لم يكن يستهدف سوى إقناع الرهان على الحل السلمي فقط واستبعاد الحل العسكري في ضوء ما أفرزته سياسة الوفاق بين القوتين العظمتين من اختلالات خطيرة في موازين القوى لمصلحة إسرائيل التي تحظى بدعم أمريكي مطلق.

وعندما حانت ساعة الصفر يوم ٦ من أكتوبر ١٩٧٣ أفاق العالم كله على واقع مغاير لما كان في مخيلة الجميع وتقديرهم، فقد اتضح أن التحرك السياسي المصري

الواسع لم يكن سوى ستار لعمل عسكرى ضخم يتم تحت أقصى درجات السرية والانضباط.

وفى التقرير الذى أعدته اللجنة العسكرية بالكونجرس الأمريكى عقب زيارتها لمواقع القتال على الجبهة المصرية فى نوفمبر ١٩٧٣ بعد إعلان وقف إطلاق النار مايمكن اعتباره شهادة محايدة لهذه الحرب المجيدة من شهود يفتخر معظمهم بأنهم من مؤيدى إسرائيل.

يقول تقرير الكونجرس الأمريكى مايلى:

١) إنه بالإضافة إلى عمليات العبور التى تعد فى حد ذاتها مظهراً أكيداً لتحسن القدرة القتالية المصرية، فإن عملية التمويه والخداع التى صاحبت الاستعداد المصرى للقتال والقدرة على كتمان هذه الاستعدادات لمدة طويلة من الزمن وإخفائها عن أعين الإسرائيليين، هى التى تعتبر من وجهة نظر اللجنة موضع اهتمام كبير.

٢) إن العسكريين المصريين الذين تم الالتقاء بهم فى مسرح العمليات لم يدخلوا مع أعضاء لجنة الكونجرس فى تفاصيل خطة الخداع التى لجئوا إليها للتمويه على استعداداتهم لشن الحرب، بينما كان الحماس والفخر والإحساس بالمجد هو الذى يحركهم طول هذه المدة.

٣) إنه من المؤكد أن المصادر العسكرية الإسرائيلية تنبهت إلى وجود تحركات عسكرية مصرية كبيرة على امتداد قناة السويس وفى العمق الغربى منها، ولكن تقدير الإسرائيليين للموقف انحصر فى افتراض أنها مجرد مناورات تدريبية عادية مثل تلك المناورات التى أقامت مصر على إجرائها مراراً من قبل، وأنه فى ظل هذا التقدير الإسرائيلى الخاطئ للموقف نجح المصريون فى تحريك أعداداً كبيرة من قواتهم ودباباتهم ومدافعهم ومعداتهم الثقيلة إلى قرب حافة القناة.

٤) إن من أهم العوامل التى ساعدت على نجاح خطة الخداع المصرية وبالتالى نجاح عملية عبور تلك السواتر الرملية التى شيدها الجنود المصريون على امتداد

الضفة الغربية لقناة السويس والتى حققت هدفين مزدوجين.. أولهما مراقبة التحركات الإسرائيلية ونقاط النيران على امتداد الضفة الشرقية للقناة. وثانيهما وهو الأهم تغطية تحركات الأفراد والمعدات، فضلاً أن هذه السواتر صممت بحيث تتخللها فتحات منخفضة تم استخدامها كنقاط للعبور ومزاغل لإطلاق نيران المدفعية الثقيلة.

٥) إن الإسرائيليين أعلنوا عند بداية الحرب أن المصريين قاموا بإسقاط العديد من الكوماندوز وراء الخطوط الإسرائيلية فى عمق سيناء واعترف الإسرائيليون بحيرتهم في تفسير هذا الإجراء حيث أن هذا الانزال لم يستتبعه أى ربط مع أية قوات مصرية أخرى، ولم تبذل أية جهود لتغطية، إلا أن العسكريين المصريين الذين التقينا بهم وناقشناهم أشاروا إلى أن هذا الإنزال كان جزءاً من خطة الإسرائيليين من كل الاتجاهات وإرباك خطوطهم وعدم تمكينهم من معرفة وتحديد من أى الاتجاهات ستأتى الضربة الأكبر.

٦) إن درجة الاستعداد المصرية على امتداد جبهة القناة لاتوصف وإن لجنة الكونجرس شاهدت على امتداد المسافة بين القاهرة وقناة السويس مواقع لاحصر لها من الصواريخ والدبابات والمعدات وغيرها من الأليات العسكرية.. ولم يكن هناك كيلو متراً واحداً بين القاهرة والقناة لم يتم تقويته وتحصينه.

٧) إن المصريين واثقون من أن الوقت فى مصلحتهم وإن إسرائيل تواجه موقفاً صعباً لأن طاقة احتمالها للإبقاء على قواتها المسلحة في حالة تعبئة كاملة طاقة محدودة،حيث إن معظم هذه القوات من رجال الاحتياط الذين تؤدى فترة استدعائهم إلى شل حركة العمل والانتاج فى إسرائيل.

٨) إن الإحساس بالفخر العربى بالإنجاز الذى تم فى السادس من أكتوبر كبير، وظاهرة لايمكن لأى زائر مصرى أن يتجاهلها وإن القادة العرب يشعرون بأن قواتهم المسلحة قد استعادت ثقتها بنفسها وإنه لم يكن من الممكن للعرب أن

يذهبوا إلى أى مؤتمر السلام دون أن يشعروا بأن قواتهم المسلحة قد استعادت شرفها فى ساحة القتال.

٩) إن المصريين يشعرون بفخر شديد لنجاحهم فى الحصول على الكثير من المعدات الحربية الأمريكية التى كانت بحوزة الإسرائيليين وإن أعضاء الكونجرس شاهدوا بأعينهم الدبابات والمعدات الأمريكية معروضة فى الحدائق والميادين تمهيداً لنقلها إلى معرض دائم لغنائم الحرب.

١٠) إن لجنة الكونجرس لم تجد أى دليل يثبت صحة مزاعم الإسرائيليين عن وجود قوات أو خبراء سوفيت شاركوا المصريين فى شن الحرب.

وقبل أن تغيب شمس السادس من أكتوبر وقبل أن يخيم الظلام كانت قد تحققت خلال ساعات قليلة حقائق جديدة على أرض الواقع تؤكد بما لايدع مجالاً لأى شك أن الخريطة السياسية المنطقة تتجه نحو التغير إن لم تكن قد تغيرت بالفعل !

كانت صيحات الغرور والغطرسة الإسرائيلية وهى ليست بعيدة عن بعض مايصدر الآن فى إسرائيل ـ قبل غيرهم ـ أن جنرالات المؤسسة العسكرية كانوا يبيعون لهم الوهم، وأن ما أعلنه الجنرال حاييم هيرتزوج المتحدث العسكرى فى اللحظة الأولى لبدء الحرب من أن القوات المصرية ستعرف معنى الهلاك والتدمير الكامل .. لم يكن سوى هراء ساذج للحفاظ على قناع الغرور الكاذب لجنرالات المؤسسة العسكرية.

وسقطت مع سقوط خط بارليف أسطورة الجنرال موشى ديان الذى كان يؤكد أن خط بارليف خط منيع يستحيل اختراقه، وأن إسرائيل تملك القوة التى تمكنها من الاحتفاظ به إلى الأبد وأنه إذا حاول المصريون عبور قناة السويس فإن قواتهم ستتحول إلى رماد وأن جيشهم سيواجه كارثة محققة.

واستطاعت القوات المسلحة المصرية بدقة التخطيط وجسارة التنفيذ وروح القتال العظيمة أن تكتسب احتراماً غير مسبوق ليس فقط للعسكرية المصرية، وإنما للإنسان العربى.

وعاد الاهتمام بقضية الشرق الأوسط وضرورة التحرك الدولي لحلها ونزع فتيل انفجارها مرة أخرى يفرض نفسه على جميع المحافل والعواصم الدولية.

واستعادت مصر حجمها الطبيعي مثلما استعادت الأمة العربية ركائز وحدتها كقوة إقليمية يشار إليها بالاحترام والتقدير.

ولكن من الضروري أن نقول أن جذور يوم السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣ لم تنبت فجأة في هذا اليوم ولا قبله بأسابيع وشهور فقط.

إن التاريخ الصحيح لمولد وإثبات جذور هذا اليوم المجيد، تعود إلى ما قبل ذلك بأكثر من ٦ سنوات.. إلى يوم ١١ من يونيو ١٩٦٧ يوم بدء إعادة تنظيم وبناء القوات المسلحة المصرية على أسس جديدة في ضوء الدروس المستفادة من نكسة وهزيمة يونيو ١٩٦٧.

لابد أن يقال عدلاً وإنصافاً أن السادس من أكتوبر صنعته ملحمة جيش وشعب اتخذا قرار رفض الهزيمة رغم مرارتها. وكان ذلك هو بداية الطريق للوصول في النهاية إلى قرار الحرب وقبول التحدي.

لابد أن يشار وبوضوح إلى أن يوم السادس من أكتوبر هو الابن الأكبر لمعارك حرب الاستنزاف التي بدأت بمعركة رأس العش في يوليو ٦٧ ثم توالت بعد ذلك معارك مجيدة بينها معركة إسقاط وإغراق المدمرة الإسرائيلية إيلات في أكتوبر عام ١٩٦٧ ثم هدير المدفعية الثقيلة المتصل على امتداد جبهة القناة عامي ٦٨، ٦٩ ثم عمليات العبور المحدودة إلى الشاطئ الشرقي والعودة بالأسرى الإسرائيليين خصوصاً في يوم السبت الحزين.. ثم الضربة الكبرى في أسبوع تساقط طائرات الفانتوم بصواريخ سام ٣ عام ١٩٧٠ ونجاح مصر في تحريك حائط الصواريخ إلى حافة القناة في ظل قبول الرئيس الراحل جمال عبدالناصر لمبادرة روجرز وفي إطار ترتيبات وقف إطلاق النار في أغسطس ٧٠ على أساس هذه المبادرة.

نقولها إنصافا لمصر وجنودها.. لأن ماحدث يوم السادس من أكتوبر كان أكبر من أن يوضع في إطار يوم واحد أو قرار واحد، وإنما كان ــ للحق والإنصاف ــ نتاج عرق وجهد ودماء على امتداد أكثر من ٦ سنوات .. وهي ذات المسافة الزمنية بين اليأس والرجاء.

وظني أن المناخ الراهن تحت ظلال الديمقراطية التي يوفرها عصر الرئيس مبارك ـ أحد القادة العظام لحرب أكتوبر ـــ يدعونا إلى تقويم أمين وموضوعي لهذا اليوم المجيد، بحيث يوضع في مكانه الصحيح وبغير عقد أو حساسيات تتصل بما قبل العبور أو بما بعده..

وقد دفعتني هذه الشهادات الأمريكية إلى معاودة التنقيب في أوراقي عن تلك الأيام المجيدة التي عشتها في قلب ثورة الأحداث موزعاً بين التزامات وواجبات المقاتل وغريزة وإحساس الصحفي.

وأستخلص من هذه الأوراق ورقتين محددتين فقط:

كانت الورقة الأولى: مسودة تقدير موقف عن الموقف الإسرائيلي بعد قرار مصر بالاستغناء عن الخبراء العسكريين السوفيت في يوليو عام ١٩٧٢، وكان مضمون هذه الورقة في شكل عدة نقاط على النحو التالي:

١) ليس بمقدور مصر لسنوات عديدة أن تكسر وقف إطلاق النار القائم منذ ٨ أغسطس ١٩٧٠ وفي إطار مبادرة وزير الخارجية الأمريكي وليم روجرز وبعد أزمة تحريك مصر الصواريخ المضادة للطائرات من طراز سام٢ وسام ٣ إلى حافة القناة.

٢) أوضاع الجبهة الداخلية المصرية ومايعتري الناس من يأس وإحباط والفراغ الذي ترتب على طرد الخبراء السوفيت والخلافات العربية الواسعة وأبرزها قطع مصر لعلاقاتها مع الأردن بعد قرارها إعلان انشاء المملكة المتحدة لتشمل الضفة

الغربية المحتلة. كل هذه عوامل تؤكد أن أنور السادات لن يجرؤ على مجرد التفكير في اتخاذ قرار بالحرب.

٣) إن المصريين أول من يعلم ماذا يمثله خط بارليف وماذا يمثله الحائط الترابي. وماهي طبيعة سطح مياه القناة كمانع مائي. فضلاً عما يعلمه المصريون من حرب ٦٧ عن القوة العسكرية الإسرائيلية تدريباً وتسليحاً.

ولم تكن هذه البنود سراً مكتوماً وإنما كانت خلاصة تقدير الموقف الإسرائيلي اعتماداً على ملف كنت أشرف على إعداده في هذا الوقت يحمل اسم.. "النوايا العدوانية من خلال المصادر العلنية".

كان الغرور الإسرائيلي – وقتها – أكبر من أن يطاق !

وكان الصبر والصمت في مصر – وقتها – أمراً محيراً لمن لايعرفون شيئاً عما يتم من استعدادات حقيقية لايجوز كشفها أو الإفصاح عنها، مهما علت صيحات الرفض والاحتجاج في بيانات الكتاب والمفكرين وأصحاب الرأي.

وكان أنور السادات يكظم غيظه وهو يرى استفزازات عدوه من ناحية وقلق واحتجاج شعبه من ناحية أخرى.

ولعل هذا هو مغزى التحية التي وجهها الرئيس مبارك في كلمته إلى الأمة عندما قال بالحرف الواحد "ثم تحية عرفان وتقدير إلى بطل مصر وشهيدها العظيم الرئيس الراحل محمد أنور السادات الذي تحمل ما لايستطيع بشر أن يتحمله كي يثبت للعالم أن مصر لن تكون جثة هامدة بلا حراك. كانت سياسة الصبر والصمت. التي دفع السادات ثمن الجزء الأكبر منها. هي التي أعمت الإسرائيليين عن رؤية الحقيقة حتى بعد أن بدأت ملامح الحشود العسكرية على الجبهتين المصرية والسورية تصبح فوق كل احتمالات الشك والتشكيك في جدية نواياها منذ صباح يوم ٣ أكتوبر أي قبل دوران عجلة الحرب بـ ٧٢ ساعة كاملة.

وأنقل هنا من الورقة الثانية في ملف أوراقي القديمة مسودة تقدير موقف عن التقييم الإسرائيلي لمجمل التحركات المصرية والسورية في الساعات الأخيرة وذلك بتاريخ الجمعة ٥ أكتوبر ٧٣ أي قبل ٢٤ ساعة فقط من بدء زلزال العبور.

كان مضمون الورقة الثانية في شكل عدة نقاط على النحو التالي:

١) أن تصريح دافيد أليعازر رئيس الأركان الإسرائيلي الذي تم تكليفي بالرد عليه في عدد أهرام الجمعة "اليوم ٥ أكتوبر" مقروناً بصفة المحرر العسكري للأهرام يمثل أبرز الإشارات على أن أنباء الحشد قد أصبحت في نظر المؤسسة العسكرية الإسرائيلية أكبر من كونها مجرد مشروعات تدريبية من نوع ماحدث في شهر مايو الماضي.

٢) أن هناك فيما يبدو انقساماً حاداً في تقييم النوايا المصرية والسورية، وفي حين ترى الجنرال موشي ديان وغالبية كبار ضباط هيئة الأركان الإسرائيلية أن هذه الحشود ليست سوى توابع وتداعيات منطقية للمعارك الجوية على الجبهة السورية خلال شهر سبتمبر التي فقدت فيها سوريا عدداً كبيراً من الطائرات، وبالتالي فإن الحشد المصري هو مجرد تحركات ظاهرية لإظهار التضامن مع دمشق، فإن عناصر الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية ترى أن الأمر أكبر من ذلك بكثير وأن الحشود على الجبهتين تتخذ أوضاعاً هجومية لاتقبل أي شك.

٣) أنه من المتوقع أن تكثف إسرائيل من طلعاتها الاستطلاعية وعمليات التصنت الإلكتروني لمحاولات الحصول على مزيد من المعلومات لكي تتبين ما إذا كان هناك هجوم وشيك محتمل أم لا؟

وكان ماكان.. وعجزت إسرائيل عن فهم وتفسير مارأته طائرات الاستطلاع وأجهزة التصنت، لأن ضباب ملف الخداع الذي نفذته مصر ببراعة كان كثيفاً ومكثفاً بما يحول دون رؤية الواقع وتجنب المفاجأة الاستراتيجية والتكتيكية المدوية ظهر السادس من أكتوبر ١٩٧٣.

لقد كان صباح السادس من أكتوبر ١٩٧٣ مليئاً بكل نذر التغيير خصوصاً داخل إسرائيل التي أصبح قادتها على يقين. في ضوء المعلومات المتوافرة لديهم بأن الضربة قادمة خلال ساعات ولكن ليس بمقدورهم أن يفعلوا أي شيء لتجنب الضربة بعد أن فات الوقت.

وكان الرهان الإسرائيلي ـ في ضوء هذه الورطة ـ يقوم على أساس إمكان المسارعة بتوجيه ضربة قاتلة بعد أن ضاعفت منهم فرصة القيام بضربة إجهاض تتفق مع نظرية الأمن الإسرائيلية التي تقوم على مبدأ الحرب الوقائية.

وكانت المفاجأة التي دهمت إسرائيل ـ كما قال المشير طنطاوي ـ هي مفاجأة المقاتل المصري الذي استطاع بتدريبه الراقي وروحه القتالية والمعنوية العالية أن يعوض الفارق الرهيب في نوعية المعدات التي تمتلكها إسرائيل وتحقق تفوقها.

وفي اعتقادي أن المقاتل المصري صنع مفاجآته مبكراً على مراحل بدأت برأس العش في يوليو ٦٧ ثم إغراق المدمرة إيلات في أكتوبر ٦٧ ثم بالهجوم الانتحاري ضد ميناء إيلات في نوفمبر ٦٩ وفي مطلع عام ٧٠ ثم بعمليات الاقتحام والعبور المحدودة خلال حرب الاستنزاف ثم بقدرة الابتكار بدءاً من اختيار أنسب توقيت يلائم عملية العبور في وضح النهار ومروراً باستخدام خراطيم المياه لفتح الثغرات في الساتر الترابي، ووصولاً إلى إجهاض ووقف تقدم الدبابات ـ لأول مرة في التاريخ العسكري ـ بواسطة جندي المشاة الذي يحمل مدفع "م.د".

لقد فوجئ الإسرائيليون على طول امتداد الجبهة بجيوش بأكملها تتدفع فوق سطح المياه، وطلائعهم لاتعبأ بأية نيران، والكل يتسابق من أجل أن ينال شرف أن يكون أول من يرفع العلم المصري مرة أخرى على الضفة الشرقية.

وفوجئ الإسرائيليون بجسارة قتالية غير مسبوقة في شكل أفواج وطوابير تقتحم مواقع خط بارليف الحصينة بأجسادها دون خوف أو رهبة.

وفيما كان الإسرائيليون يسعون لإعادة ترتيب أوضاعهم بعد نجاح الضربة الجوية الأولى في تدمير جميع منشآت ومراكز القيادة على طول الجبهة وفي عمق سيناء خاصة مركز القيادة في أم خشيب فوجئ الإسرائيليون بدوريات الصاعقة ـ التي قد تم إسقاطها في العمق قبل بدء الضربة الجوية بساعات ـ وهي تقطع خطوط الإمدادات وتدمر المواقع والتحصينات وتحدث شللاً كاملاً في معظم وسائل الاتصال.

وتحت نيران آلاف المدافع وبفضل الثقة التي وفرتها ضربة الطيران الأولى ونجاح طلائع العبور بالقوات المظلية في اعتلاء الساتر الترابي واقتحام خط بارليف ورفع العلم المصري، بدأت ملحمة المهندسين العسكريين في بناء الكباري والجسور لكي يبدأ بعدها تدفق الدبابات، وليصبح العبور حقيقة لايملك أحد أن يشكك في قدرتنا على إنجازه.

ومع العبور بدأ تاريخ جديد وأصبح للشرق الأوسط خريطة سياسية وجغرافية جديدة.

لقد أثبت المصريون أن هزيمة عام ١٩٦٧ كانت حدثاً عارضاً، وأن عملية إعادة بناء القوات المسلحة التي تحسب للرئيس الراحل جمال عبدالناصر كانت بمثابة الخطوة الأولى على طريق العبور.

وأثبتت القوات المسلحة أنها كانت ومازالت وستظل عند مستوى الحلم والأمل الذى يضعه الشعب المصري فيها.. ويحسب للرئيس الراحل أنور السادات أنه وفر للقوات المسلحة أفضل الأجواء لكي تكون قادرة على تنفيذ القرار، في إطار محدد ومكتوب، يرسخ قواعد متحضرة لأسلوب التعامل بين القيادة السياسية صاحبة القرار وبين القيادة العسكرية التي تتحمل مسئولية التنفيذ والإنجاز.

وانتهت حالة اللاحرب واللاسلم، ولم نعد في نظر العالم جثة هامدة كما كان يروج الإسرائيليون، وإنما أصبح الكل ينظر لمصر بل وللعرب جميعاً نظرة احترام وتقدير.

وسقطت ركائز نظرية الأمن الإسرائيلية بعد أن فاتها الوقت للقيام بضربة وقائية. وبعد أن تحطمت أكذوبة الحدود الآمنة على طول قناة السويس وعند باب المندب.

ومازال في ملف أكتوبر الكثير والكثير، فقد كان يوم السادس من أكتوبر بمثابة ميلاد فجر جديد بعد قرابة ٦ سنوات من ظلام الهزيمة الدامس والحالك السواد !



منذ أكثر من عشرين عاماً وهناك سؤال يفرض نفسه علينا بحثاً عن إجابة .. وهذا السؤال يتجدد دائماً مرتين كل عام .. مرة في شهر أكتوبر من التقويم الميلادي .. ومرة في شهر رمضان من التقويم الهجري.

سؤال يقول .. كيف نستطيع أن نأخذ بأسباب النصر في حرب "أكتوبر ــ رمضان" لكي نوظفها توظيفاً صحيحاً في خدمة الهدف الاستراتيجي لبناء مصر المستقبل.

سؤال محوره الأساسي يرتكز على كيفية تحديث إدارة الدولة في القطاع المدني لكي تصبح هذه الإدارة على مستوى التحدي والمشاكل والهموم التي تواجهها بمثل مااستطاعت الإدارة الصحيحة للمشروع الاستراتيجي في حرب "أكتوبر ــ رمضان" أن ترتفع إلى مستوى التحديات والمشاكل والهموم الرهيبة التي كانت تؤرق مصر منذ نكسة يونيو ١٩٦٧.

وبادئ ذي بدء أجد لزاماً عليّ أن أسارع بالقول أن طرح هذا السؤال لايعني أننا أضعنا هذه السنوات سُدى لأن ذلك يمثل تجنياً على الحقيقة وإفراطاً في التشاؤم !

لقد أنجزنا الكثير خصوصاً في الاثنى عشر عاماً الأخيرة تحت مظلة حكم الرئيس مبارك، بعد أن بدأت أوسع عمليات تجديد وإعادة البناء لمختلف المرافق والمصانع والمنشآت الحيوية، فضلاً عن فتح الأبواب على مصراعيها لاستثمارات التنمية التي تخلق فرص عمل جديدة وتؤدي لزيادة الإنتاج، وتعيد للعمل المنتج قيمته واعتباره بعد أن كانت قد سادت حقبة السبعينات مفاهيم خاطئة حول الربح والتربح السهل والسريع في إطار الهجمة الشرسة للانفتاح الاستهلاكي .. !

وهذا الذي أنجزناه هو الذي مكننا من أن نقف على أرض صلبة بأقدام راسخة رغم مافرضته علينا المتغيرات العالمية من مصاعب اقتصادية، ومايترتب من أعباء مضاعفة بسبب الزيادة الرهيبة في عدد السكان وبسبب تنامي الطموحات الاجتماعية لشعب ارتفع تعداده من ٤٠ مليون مواطن عام ١٩٨٢ إلى مايزيد على ٥٦ مليون مواطن عام ١٩٩٤.

ولكن الذين يطرحون السؤال من أرضية النية الحسنة والثقة في قدرة مصر وشعبها يرون أن الوقت قد حان لكي نسبق بعملنا الوطني أية مصاعب أو تحديات محتملة، بدلاً من انتظارها ثم العجز بعد ذلك عن ملاحقتها !

بوضوح شديد أريد أن أقول أن طرح هذا السؤال واستمرار الإلحاح عليه علماً بعد عام خير دليل على أننا شعب لم يفقد حيويته برغم كل هذه المصاعب والتحديات، وأن ثقته في غد أفضل أقوى من كل محاولات التيئيس والإحباط التي يروج لها البعض !

إن همومنا بالفعل كبيرة ولكن أحلامنا وطموحاتنا أيضاً أحلام وطموحات كثيرة !

والذين يملكون الأمل هم الذين يقدرون على عبور الحواجز وتخطي الموانع واقتحام المصاعب بروح القدرة على العطاء المتصل .. وتلك هي فلسفة الروح التي قامت عليها أركان الإدارة الحديثة للمشروع الاستراتيجي في حرب أكتوبر.

والأمل ليس فقط مجرد إحساس .. كما أن القدرة على العطاء ليست مجرد شعارات، ولكن الأمل والعطاء وجهان لعملة واحدة أسمها العمل بأسلوب صحيح وبقدر كاف.

لعلي أقول أن المدخل السليم للإدارة الحديثة التي ننشدها يبدأ من مدى قدرتنا على المزج بين رصيد الخبرة المتراكم وبالذات خبرة الاقتحام والمبادرة والابتكار التي جسدتها ملحمة "أكتوبر – رمضان" وبين قدرة العطاء التي تملكها أجيال جديدة علماً وجهداً وحماساً ورغبة في إثبات الذات!

وإذا انتقلنا من التعميم إلى التخصيص فإنني أستطيع القول بصراحة ووضوح بأننا بحاجة إلى إدراك مانحن فيه وتحديد مانحن بحاجة إليه بمثل مافعلنا قبل ٢١ عاماً*.

كنا قبل ملحمة العبور قد وصلنا إلى قناعة تامة باستحالة توافر الإمكانيات اللازمة لتعويض الفارق الرهيب في ميزان القوة العسكرية مع إسرائيل، ومع ذلك قررنا أن نسعى لقهر المستحيل بحسن توظيف العنصر البشري وبعزم الإرادة وقدرة الخلق والابتكار !

---

* قال الكاتب هذا الكلام عام ١٩٩٤

واليوم ونحن أمام تحديات البطالة والغلاء والإرهاب وغيرها من المصاعب لانملك في أيدينا مئات المليارات التي تلزم لإنهاء هذه المشاكل، ولكننا ـ بالقطع ـ نملك إرادة العمل التي يمكن أن تعوضنا عن هذا العجز في تدبير الموارد المالية.

ومن حسن الحظ أننا لن نبدأ من فراغ !

لقد حققنا بفضل انتصار "أكتوبر ـ رمضان" انتصاراً واسعاً لعملية السلام وهذا السلام الذي نعيشه بعد استردادنا لكامل ترابنا الوطني هو مدخلنا الطبيعي إلى التنمية والبناء والإصلاح والنهضة من أجل الحاضر والمستقبل.

ولقد حققنا أيضاً بفضل انتصار "أكتوبر ـ رمضان" انتصاراً نفسياً وسياسياً واجتماعياً خرجت من عباءته مرحلة الانفتاح الاقتصادي التي استطاعت مرحلة حكم الرئيس مبارك أن تجري لها أوسع عملية ترشيد لكي تخلع ثوب الاستهلاك الاستفزازي وترتدي رداء التنمية الحقيقي بما يضمن اجتذاب رأس المال العربي والأجنبي في المجالات الإنتاجية التي تخدم القاعدة العريضة من أبناء مصر وتحقق هدف الاستيعاب لأحدث الأساليب الإنتاجية والتكنولوجية دون أن تؤدي إلى تفاقم الظاهرة الاستهلاكية.

وبالفعل نحن لا نبدأ من فراغ خصوصاً بعد أن أصبحت السياسة الخارجية لمصر في خدمة أهداف التنمية في الداخل انطلاقاً من إيمان الرئيس مبارك بضرورة توظيف التحرك الخارجي لخدمة أهداف التنمية والتطوير وتأمين المصالح القومية الحيوية.

ولعل إلقاء نظرة دقيقة على ملامح التحرك الخارجي على مدى الـ١٢ عاماً الأخيرة هو الذي يؤكد صحة ما نقول، خصوصاً في إطار الجولات والرحلات التي قام بها الرئيس مبارك لمختلف دول العالم شرقاً وغرباً من أجل إسقاط الديون وزيادة حجم المساعدات التي نحصل عليها من الدول الصديقة أو عقد الاتفاقيات الخاصة بالتبادل التجاري الذي يعود على الاقتصاد الوطني بالنفع، أو جذب أطراف خارجية للتعاون معنا في تحديث وسائل الإنتاج وإدخال التكنولوجيا الحديثة في الصناعة والزراعة والخدمات.

ثم لماذا نذهب بعيداً .. أليست دعـوة الرئيس مبارك للحوار الوطني تؤكد جدية الدولة في حشد طاقات الوطن لمواجهة تحديات المرحلة الراهنة بنفس درجة التوحد الوطني التي جمعت شعب مصر وراء ملحمة تحرير التراب الوطني من دنس الاحتلال ومسح عار الهزيمة ؟!

وللانصاف فإن هذه الدعوة من جانب الرئيس مبارك ليست وليدة اليوم، وإنما هي تأكيد لإصرار الرجل على ترسيخ دعوته الصريحة منذ اللحظة الأولى لتوليه مسئولية الحكم وإعرابه عن ضرورة توسيع دائرة المشاركة العامة في تشخيص الأوضاع الاقتصادية والمساهمة في البحث عن طريق لإصلاحها.

ولأن الذكرى تنفع المؤمنين، ولأن البعض مازال يشكك أو يتشكك في جدية الدعوة للحوار الوطني فإنني سوف أسمح لنفسي بأن أسترجع معهم ما قاله الرئيس مبارك منذ ١٢ عاماً وبالتحديد في ٢٦ من يناير عام ١٩٨٢ في افتتاح المؤتمر العام للحزب الوطني بعد ثلاثة أشهر فقط من توليه مسئولياته الدستورية.

إن الرئيس يقول بكل الوضوح أن الحكومة وحدها لايمكن أن تحقق المعجزات أو أن تأخذ على عاتقها الوفاء بكل متطلبات التنمية، بل يجب أن تكون هناك مشاركة شعبية حقيقية لأن الجهد المطلوب للانطلاق إلى مشارف المرحلة الجديدة يتجاوز طاقات الجهاز الحكومي ويتطلب عطاء كل فرد من أبناء مصر المتطلعين لخدمة هذا الوطن المفدى.

وهو نفسه الذي كرر ذات المعنى في كلمته أمام الاقتصاديين المصريين في افتتاح المؤتمر الاقتصادي القومي يوم ١٢من فبراير لعام ١٩٨٢ بقوله أننا يجب أن نشترك جميعاً في التصدي لهذه المسئولية لأن الأمر يخصنا جميعاً وكل تدعيم للاقتصاد الوطني يعود علينا جميعاً بالخير المباشر ومن ثم يتعين أن تكون هناك مشاركة جماعية في بحث الأساليب والبدائل الكفيلة بتعزيز قاعدة الإنتاج وزيادة نسبة الادخار والاستثمار وترشيد الاستهلاك ومحاربة الإسراف في شتى صوره.

فهل هناك مجال للشك بعد ذلك في أن دعوة الحوار الوطني هي دعوة أصيلة وجذورها عميقة وإن لم تأخذ شكل الإطار التنظيمي إلا مؤخراً عندما أعلنها الرئيس في خطابه الأخير أمام مجلس الشعب والشورى في نوفمبر الماضي؟!

ثم هل هناك أدنى شك في أن دعوة الحوار الوطني تؤكد توافر الأجواء الصحيحة لعملية التحديث التي تحتاجها مصر سواء في الفكر أو على مستويات الأداء ؟!

وإذن فإن دعوة التحديث في إدارة الدولة لكي تكون قادرة على مواجهة التحديات وتلبية الطموحات ليست من فراغ، وإنما هي دعوة لها جذورها وركائزها التي تحمل مقومات نجاحها إذا صدقت النوايا وتوافرت العزيمة الصادقة والإرادة الصلبة.

وهذا التحديث المنشود ليس مجرد قرارات تصدر وهياكل تنشأ ولكنه ينبغي أن يكون في المقام الأول إحساساً عاماً ـ شعبياً ورسمياً ـ بأنه ليس أمامنا من سبيل لعبور هذه المصاعب والتحديات سوى هذا الطريق.

وهذا التحديث المنشود الذي أقصده ليس مجرد آلات ومعدات متطورة وأجهزة وتكنولوجيا حديثة ولكنه أوسع من ذلك وأشمل !

نحن بحاجة إلى تحديث في العقول الإدارية التي تملك دفة تسيير الأمور في كل منشأة ومرفق !

نحن بحاجة إلى كوادر قيادية لا تحتمي بالروتين لكي تغطي الفساد وإنما تسهل الأمور وتحطم القيود بما تملكه من رصيد النزاهة والشرف.

نحن بحاجة إلى كوادر تعطي المثل والقدوة في ضرب المحسوبية ومحاربة الرشوة ورفض الوساطة والتفرغ لمهام العمل الحقيقية بدلاً من الإصغاء للوشاة (وكدابي الزفة) !

وهذا الذي أقول به وأدعو إليه هو الذي توافر للإدارة الصحيحة في المشروع الاستراتيجي لملحمة العبور.

وبغير أن توفر هذه العناصر الأساسية للإدارة الحديثة لدولتنا المصرية فسوف يبقى حديثنا عن قدرة الإنجاز وقهر المصاعب والتحديات مجرد أحلام وتمالى صيام !

هكذا أحلم لمصر فى ليلة القدر وفى عبق الذكرى العطرة لانتصار العاشر من رمضان.

وهكذا أتمنى العبور الجديد لمصر لكي تدخل القرن الحادى والعشرين برصيدها الحقيقي، وليس برصيدها المنقوص نسيباً وإهمالاً وتراخياً ويأساً !

هكذا أحلم بمصر اليوم وغداً وبعد غد.

وصدق الشاعر إذ يقول :

ومانيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلاباً

وعلينا أن نمسك في أيدينا بأسباب الغلبة والنصر كما أمسكنا بها فى عام العبور المجيد، وكان الله معنا ناصراً ومؤيداً !

إرادة السلام الغائب !!

وفى ذكرى انتصار أكتوبر المجيد يجدر بنا كعرب أن نلقي نظرة فاحصة على خريطة المنطقة وماجرى فيها من تغيرات لاتقتصر فقط على علامات الحدود السياسية وخطوط إطلاق النار وإنما شملت أيضاً طبيعة التحالفات التكتيكية والاستراتيجية ولمتدت لتشمل كذلك المفاهيم والرؤية الخاصة بكيفية الخروج من المأزق التاريخي الذي يعيشه العالم العربي منذ عام ١٩٤٨ وحتى الآن.

إن أية نظرة على الخريطة الراهنة تعكس دون أدنى تعليق حجم العجز والقصور فى الجانب العربي ليس فقط فى مجال الاستفادة الواجبة من الآثار المادية والمعنوية التي خلقتها حرب أكتوبر، وإنما أيضاً فى تلك القدرة الغريبة على تحويل كل رصيد الإنجازات السياسية والعسكرية التى أفرزتها شجاعة المقاتلين إلى عوامل سلب تضعف وتقوض من دعائم القوة العربية الشاملة.

ويكاد يكون الإنجاز الوحيد في الساحة العربية هو قدرة الإرادة المصرية على استثمار مغزى النصر في تحرير كامل للتراب الوطني المصري، وفتح الطريق أمام إمكانية صناعة السلام الشامل في المنطقة والذي مازالت أطراف عربية كثيرة تحجم ـ دون سبب مفهوم ـ عن ارتياده حتى لو كان الثمن هو استعادة التراب والاقتراب من لحظة الخروج من المأزق التاريخي الذي صنعته تعقيدات المشكلة الفلسطينية بكل ما صاحبها من تطورات في مسار الصراع العربي الإسرائيلي.

وفيما عدا ذلك الإنجاز الذي حققته مصر، تبدو الخريطة العربية وكأنها تمثل لوحة مرسومة ومعلقة على حائط العالم ليرى فيها المشاهد أبعاد مأساة وملهاة وكأنها مرسومة بخطوط فن سريالي غير مفهوم الدوافع والأبعاد، فهذه ملهاة حرب الخليج التي دخلت عامها السادس وهذه مأساة الحرب الأهلية اللبنانية التي تجاوزت عامها العاشر وتلك هي ترسانة السلاح السورية والليبية مبعثرة في شتى أرجاء المنطقة لتنفيذ مخططات غير مفهومة اللهم إلا إذا كان ضرب القيادة الشرعية الفلسطينية أصبح هدفاً استراتيجياً ملحاً تبغي كل من دمشق وطرابلس تحقيقه ملتقيتين بذلك على خط واحد لتصفية القضية الفلسطينية برمتها التي يمثل بقاؤها بغير حل مأزقاً تاريخياً لإسرائيل لايقل عن ذات المأزق على الجانب العربي*.

والسؤال الآن هو: أليست كل تلك الشواهد المرئية للعجز والتمزق العربي كافية لوقفة مع النفس تبدأ بوقف كل أسباب الفرقة والصراع وتتجه في اغتنام الفرصة التاريخية المتاحة لتحقيق السلام قبل فوات الوقت وقبل أن تتمكن إسرائيل من ابتلاع كل الأراضي الفلسطينية وتهديدها بأكثف عملية استيطان في العصر الحديث ؟!.

إن الفرصة التاريخية المتاحة الآن لتحقيق السلام ليست هدية من السماء يكفي القبول بها لكي نجني ثمارها ولكن الأهم هو أن يرتبط القبول باستعداد جاد يستطيع الصمود أمام التحديات والمناورات المحتملة في معركة السلام وهي بالقطع تحديات ومناورات لاتقل خطورة وخبثاً ودهاء عما يجري في ساحة الحرب وخبثاً ودهاء عما يجري في ساحة الحرب والقتال.

* هذا الكلام أول ما سجله الكاتب عام ١٩٨٥

ولأن معركة السلام تكون مسرحاً لتصادم الإرادات فإن العالم العربي يصعب عليه أن يجني شيئاً من تلك الفرصة التاريخية إلا إذا نجح أولاً في توحيد إرادته على طريق الحل بنفس ما استطاع أن يوحد إرادته قبل على طريق الحرب قبل دخوله مرحلة العبور.

إن توحيد الإرادة العربية على طريق الحل لا يجهض فقط خطط وأحلام إسرائيل المبنية على استحالة الوحدة وإنما هي تعزز من قدرة التأثير على الولايات المتحدة الأمريكية ودفعها للخروج من دائرة الانحياز الأعمى لإسرائيل فضلاً عما يمثله اتحاد الكلمة العربية من ضغوط تستطيع على الأقل موازنة الضغوط الصهيونية على الإدارة الأمريكية وبالتالي شل فعالية اللوبي الصهيوني أو على الأقل الحد من تأثيره.

ومن الطبيعي أن يكون هناك سؤال آخر هو .. هل هناك ما يغري على القبول بالمضي على طريق السلام بينما هناك شواهد كثيرة تشير إلى عدم قبول إسرائيل لمخاطر السلام ؟! بل إن سلوكها الأخير في الغارة البشعة ضد قيادة منظمة التحرير الفلسطينية يعكس إصراراً على نسف جهود السلام من قبل أن تبدأ

وفي اعتقادي أن السلوك الإسرائيلي المتطرف المذعور من تحدي السلام ينبغي أن يكون في مقدمة عوامل الإغراء للجانب العربي بقبول الدخول إلى ساحة المواجهة على مائدة المفاوضات وعلى الجانب العربي أن يضع في اعتباره أن إسرائيل وهي تتغالى في طرح شروطها غير المقبولة لإقرار السلام سبق لها أن فعلت نفس الشيء قبل إبرام اتفاقية السلام مع مصر. وطرحت مطالب كانت كافية لنسف المفاوضات قبل أن تبدأ ولكن مصر فطنت إلى اللعبة ومضت على الطريق متمسكة بكل حقوقها فأزيلت المستوطنات واستردت مصر كل سيناء بما في ذلك المطارات وارتفع العلم المصري فوق شرم الشيخ التي قال عنها ديان أن إسرائيل تفضل التمسك بشرم الشيخ بغير سلام مع مصر، على أن تترك شرم الشيخ مقابل السلام!

ثم إنه إذا كانت إسرائيل بمسلكها العدواني وشروطها المتغطرسة تستهدف نسف طريق السلام فلماذا نساعدها من جانبنا على تحقيق ما تبغي ، والوصول إلى ما تريد.. أليس من واجبنا أن نحول بينها وبين أن تهرب من المواجهة.

وإذا انتقلنا بنظرة خاطفة إلى المسرح الدولي وطبيعة توازناته الراهنة نجد أن دوافع القبول بإغراء الفرصة التاريخية أقوى بكثير من كل عوامل التردد والإحجام وذلك في ضوء الشواهد التالية :

١) إنه مع التسليم بأن الموقف الأمريكي مازال دون ما نرجو ونتمنى استناداً إلى العدل والحق والشرعية الدولية إلا أنه لايمكن إغفال ثمة تطورين يعكسان قدراً من المرونة في الموقف الأمريكي أولهما هو القبول من حيث المبدأ بفكرة الحوار مع وفد أردني فلسطيني مشترك وثانيهما التخلي عن فكرة الرفض المطلق لعقد مؤتمر دولي للسلام بشأن الشرق الأوسط.

٢) إنه لايمكن إغفال أهمية وفعالية الدور السوفيتي المنتظر خاصة مع تكرر عمليات الغزل المتبادل بين إسرائيل وموسكو تمهيداً لإعادة العلاقات الدبلوماسية المقطوعة بين البلدين منذ حرب يونيو ١٩٦٧، وقد جاءت تصريحات الزعيم السوفيتي جورباتشوف في ختام زيارته قبل أيام لباريس حول استعداد موسكو لإعادة العلاقات مع إسرائيل في إطار صفقة لتسوية مشكلة الشرق الأوسط متزامنة مع تصريحات شيمون بيريز رئيس وزراء إسرائيل بتعليق شرط الموافقة على القبول بفكرة عقد مؤتمر دولي للسلام في الشرق الأوسط بأن يسبق ذلك إعادة العلاقات الدبلوماسية بين إسرائيل والاتحاد السوفيتي.

٣) إن من بين أهم التطورات الإيجابية دعماً لمسيرة السلام مبادرة السيدة مارجريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا بدعوة عضوين من منظمة التحرير الفلسطينية لإجراء حوار في لندن مع سير جيفري هاو وزير الخارجية البريطاني وصدور تأييد لهذه الخطوة مع جورج شولتز وزير الخارجية الأمريكي الأمر الذي يعتبره

كثير من المراقبين بمثابة تمهيد للحوار المقبل بين واشنطن ووفد أردني فلسطيني مشترك.

٤) إن الرأي العام العالمي بات أكثر تعاطفاً مع الحق الفلسطيني بعد بادرة اتفاق ١١ فبراير بين الملك حسين وياسر عرفات والذي يقوم أساساً على قبول الحل السلمي للمشكلة استناداً إلى الشرعية الدولية ممثلة في قرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة ومجلس الأمن وبالذات قرارا مجلس الأمن رقما ٢٤٢ ، ٣٣٨.

ونصل إلى جوهر القضية المطروحة للنقاش حول كيفية إحياء وحدة الإرادة العربية على طريق السلام بنفس الروح التي صنعت وحدة الإرادة العربية على طريق الحرب خلال مرحلة العبور المجيدة ونتساءل .. هل في ظل تعقيدات الصراع الدائر الآن بين أطراف عربية عديدة والذي وصل في مناطق عديدة إلى حد الصدام بالسلاح وسفك الدماء وتدمير المنشآت يمكن الحديث عن توحيد الإرادة وتحقيق ذلك التوحيد في زمن قياسي يسمح باغتنام الفرصة التاريخية المتاحة لتحقيق السلام؟!

والجواب هو أن تحقيق ذلك الهدف ليس بالأمر الهين ولكنه أيضاً ليس بالمستحيل !

إن عناصر التطرف والمزايدة في الساحة العربية معروفة وواضحة وهي في حجمها وثقلها ضئيلة الحجم محدودة الأثر ولكنها تستمد دعماً إضافياً لمنطقها من خلال قدرتها على إرهاب تيار الاعتدال في المنطقة وهو تيار يحتل بغير أدنى مبالغة مايزيد على ٩٠ في المائة من رقعة الأمة العربية.

ولو أن الأنظمة العربية المعتدلة تخلت عن مهادنة الإرهاب الذي تفرضه كل من ليبيا وسوريا بالذات، وملكت هذه الأنظمة شجاعة الإعلان عن تأييدها لاغتنام الفرصة التاريخية لتحقيق السلام مستندة في ذلك إلى تأييد الرأي العام العربي لها فإن لغة التطرف وسياسة المزايدة سوف تذهب في مهب الريح ولن يكون لها أي تأثير على مسار الأحداث.

ومن الإنصاف أن نقول بأن تجربة ياسر عرفات ورفاقه في القيادة الشرعية لمنظمة التحرير الفلسطينية هي تجربة جديرة بالاحترام لأن عرفات ورفاقه لم يأبهوا بتهديدات دمشق وطرابلس وقرروا أن يتخذوا القرار الصعب بفتح الباب لإمكانية تحقيق السلام مستلهمين في ذلك نبض الشعب الفلسطيني ومعاناة أهلهم وذويهم تحت أسر الاحتلال الإسرائيلي وكل ماتحتاجه المسيرة السلمية الآن إضافة إلى ثقل مصر وحركتها الرامية في المسرح العالمي هو شجاعة لا تفتقر إليها غالبية الأنظمة العربية المعتدلة تؤكد بها دعمها للاتفاق الأردني الفلسطيني الذي أصبح يمثل حجر الزاوية في أي تحرك قادم لإقرار السلام.

وسواء كانت الوسيلة لدعم تيار الاعتدال تتمثل في قمة عربية موسعة أو قمة عربية محدودة أو حركة دبلوماسية عربية نشطة فإن المهم هو أن يبدأ التحرك لفتح صفحة جديدة تجلب احترام العالم لنا.. ولكي تختفي تلك الصورة القاتمة والمأساوية لأوضاع المنطقة في نظر العالم الذي أصبح يستيقظ كل صباح على أنباء تقول حرائق في بيروت وجثث في صيدا وألسنة دخان في الجليل واعتقالات في غزة وطولكرم ودمار في بغداد وطهران وتونس وسيارات ملغومة في الكويت ومذابح في دمشق وبنغازي ...

وبغير أن نستطيع بناء إرادة حرب أكتوبر مرة أخرى فسوف يظل السلام غائباً والحق ضائعاً والتراب القومي مستباحاً !!

الفهرس

رقم الايداع بدار الكتب ٩٠٧٩/١٩٩٨

I.S.B.N 977- 01 - 5698 - 1

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



ومازال نهر العطاء يتدفق، تتفجر منه ينابيع المعرفة والحكمة من خلال إبداعات رواد النهضة الفكرية المصرية وتواصلهم جيلاً بعد جيل. ومازلنا نتشبث بنور المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

ثبتت التجربة المصرية «القراءة للجميع» عن الطوق ودخلت «مكتبة الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضىء النفوس ويثرى الوجدان بكتاب فى متناول الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق والجدية وتعتمدها هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحتذى فى كل العالم الثالث، ومازلت أحلم بالمزيد من لآلىء الإبداع الفكرى والأدبى والعلمى تترسخ فى وجدان أهلى وعشيرتى أبناء وطنى مصر المحروسة، مصر الفن، مصر التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سوزان مبارك



مائة وخمسون قرشاً



القراءة للجميع
مهرجان صيف ٩٨
جمعية الرعاية المتكاملة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب